



د. عبد الرحمن الحاج

البعث الشيوعي في سورية 1919-2007

مسح شهاب الدمشقي

جسور للترجمة والنشر

البعث الشيوعي في سورية



البعث الشيوعي في سورية

١٩١٩ - ٢٠٠٧

د. عبد الرحمن الحاج



جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد جسور للترجمة والنشر

البعث الشيعي في سورية/ عبد الرحمن الحاج.
٣٢٠ ص.

ببليوغرافية: ص ٣١١ - ٣٢٠.

ISBN 978-614-431-782-2

١. الشيعة - سورية.

297. 82

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة لجسور
الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٧

جسور للترجمة والنشر

لبنان - بيروت

josour.pub@gmail.com

المحتويات

٩ مقدمة الطبعة الثانية
١٥ مقدمة الطبعة الأولى
٢٣ الدراسات السابقة
٢٦ مجال البحث وحدوده
٢٧ منهج البحث
٢٨ مصادر المعلومات في الدراسة
٢٩ ملاحظات على البحث
٣٠ المسار العام للدراسة
٣٣ الفصل الأول: المنبذون: الإحياء (١٩١٩ - ١٩٦٩)
٣٤ أولاً: الوجود الشيعي في سورية (.... - ١٩١٩)
٣٧ ثانياً: الشيعة في الدولة الوطنية (١٩١٩ - ١٩٦٩)
٤٣ الفصل الثاني: موطن قدم: التحالف (١٩٧٠ - ١٩٩٠)
٤٦ أولاً: «القومي» الذي كان ضد القومية! (١٩٧٠ - ١٩٨٢)
٤٧ الأقليتان (العلوية النصيرية والشيعة الإثنا عشرية)
٤٩ وفود عمائم الشيعة

٥٣	الثورة الإسلامية في إيران والصدام مع إسلامي سورية
٥٥	فشل تصدير الثورة الإيرانية
٥٨	ثانياً: تشكيل المحور السوري الإيراني (١٩٨٢ - ١٩٩٠)
٦٠	جمعية المرتضى «قائد المسار»
٦٦	تشيع الطائفة العلوية
٨٩	الفصل الثالث: ظاهرة العمام السود: البحث (١٩٩١ - ٢٠٠٠)
٩٣	أولاً: الملالي المستأنسون (١٩٩٠ - ١٩٩٣)
٩٥	الاستئناف
٩٨	تشيع العمال
١٠٠	احتلال المقامات
١٠٣	ثانياً: الملالي المبشرون (١٩٩٤ - ٢٠٠٠)
١٠٥	«قُم» الصغرى في سورية!
١١٢	طلائع الغزو الشيعي
١١٩	الاستيطان
١٢٥	الفصل الرابع: احتلال المركز: الزحف (٢٠٠٠ - ٢٠٠٧)
١٢٦	أولاً: وراثـة الحلفاء (٢٠٠٠ - ٢٠٠٣)
١٢٩	الملالي أولاً
١٣٥	الامتيازات الاستثنائية للملالي
١٤٠	الصّـدع بالطقوس الشيعية
١٥٠	ثانياً: السباق مع الزمن (٢٠٠٣ - ٢٠٠٧)
١٥٢	رسم الهلال الشيعي
١٦٠	«حزب الله»

١٧٠ معركة الحوزات
١٧٩ ملالي خارجون عن القانون
١٨٥ بيان علماء الشام
١٨٨ كسر جدار الصمت
٢٠٧ الفصل الخامس: الاختراق: الدخول إلى عمق الدولة
٢٠٩ أولاً: الأجهزة الأمنية
٢١٤ ثانياً: الجيش
٢١٨ ثالثاً: الوزارات والهيئات الحكومية
٢٢١ رابعاً: الاقتصاد والاستثمار
٢٢٧ خاتمة
٢٢٧ أولاً: نتائج البحث
٢٢٨ عدد المتشيعين ونسبتهم
٢٣٠ التوزع الجغرافي
٢٣٤ الانتشار الجغرافي للتشيع
٢٣٩ معدلات الانتشار
٢٤١ تفسير النتائج
٢٤٥ ثانياً: سيناريوهات
٢٥٣ ملحق (١): جدول الانتشار الشيعي
٢٨١ خريطة الجمهورية العربية السورية
٢٨٣ ملحق (٢): صور بعض الحوزات والمقامات الشيعية في سورية
٢٩١ ملحق (٣): نصوص الوثائق
٣١١ المراجع



مقدمة الطبعة الثانية

قراءة سبعة عشر عاماً عشتها في دمشق، بدءاً من مطلع التسعينيات، شهدت خلالها التغيرات الكثيرة التي أصابت تلك المدينة، وأثار اهتمامي بشكل خاص الوجود المتزايد للمزارات الشيعية الحديثة في قلب الأحياء القديمة، والنشاط غير العادي للعراقيين واللبنانيين وللسفارة الإيرانية فيها وفي محيطها. ومثل الكثيرين من القاطنين في العاصمة، فإن التحول المتسارع، وكثافة الحضور للمظاهر الشيعية في الحياة العامة، والتبشير الواسع النطاق، لم يكن أمراً يمكن معه تجنب السؤال: ماذا يحدث؟ ولماذا؟

في كانون الأول/ديسمبر من عام ٢٠٠٦ كتبت أول مقال عن «التشيع في سورية» في مجلة فورين بوليسي (Foreign Policy) (الطبعة الإسبانية) بالشراكة مع الباحث الأمريكي ستيوارت رجيليوت، كنت قد بدأت بعمل بحثي لم يكن مصمماً للنشر في البداية، كان مجرد محاولة فهم، إلا أن الاهتمام بالتبشير الشيعي في سورية بدأ يصل إلى الصحافة العالمية، وأصبح حديث الشارع السوري، مما اضطر علماء الدين لإصدار بيان لمواجهته، الأمر الذي جعلني أقتنع أنه من الضروري أن لا أكتفي بفهم ما يجري ومعرفة أبعاده وإنما لا بد من نشره. مع الوقت صرت أرى أن

الأمر بات من الخطورة بمكان أنه يتعلق بمستقبل البلاد السياسي، فالأمر لم يكن متعلقاً بالعقائد الشيعية - إذ لم يكن اهتمامي منصباً على مناقشة تلك العقائد والاهتمام بها، فهذا أمر ليس له علاقة بحرية الاعتقاد والتعبير - لكننا هنا أمام مشروع سياسي ممنهج وليس نشاطاً دينياً تقليدياً.

في نهاية ٢٠٠٦ عرضت عليّ حركة العدالة والبناء السورية المعارضة (مقرها في لندن) تمويل تقرير حول هذا الموضوع، فوافقت على الفور، فقد كان هذا ما كنت أنوي العمل به في الأساس، كما أن النتائج الأولية التي كنت قد وصلت إليها في ذلك الوقت كانت تستدعي اهتماماً سياسياً غير عادي.

استكملت البحث خلال عام كامل جبتُ فيه مناطق عديدة في سورية، وتابعت كل ما نشر حول الموضوع في ذلك الوقت، وقابلت العديد من الأشخاص الفاعلين في التشيع، وزرت مقامات وأضرحة وحسينيات، وحضرت احتفالات دينية وأنشطة ثقافية، وحصلت على وثائق حكومية سرية بالغة الأهمية.

في نهاية الأمر تجمّع لديّ كمّ هائل من المعلومات، وصارت الصورة واضحة بما يكفي لفهم ما يجري. وجدت أن صيغة تقرير ستكون أقل أهمية بكثير من كتاب ملتزم بتقنيات البحث العلمي وقيمه إذا تم تبسيط لغته لتكون سلسلة ومفهومة على أوسع نطاق ممكن؛ فبقدر ما أن الغرض هو بحثي وعلمي فإن نشر نتائج البحث هو هدف بحد ذاته. وهكذا صممت نسخة لتكون بمنزلة تقرير تلتته الحركة في مؤتمر صحفي في لندن (٢١ نيسان/أبريل ٢٠٠٨)، وقد حقق غرضه واهتمّت به وسائل الإعلام بشكل لافت. وفي آب/أغسطس ٢٠٠٨ صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عن

«المركز الدولي السوري للدراسات» (كان المركز في الواقع مجرد مشروع لم يجد طريقه للحياة إلا عبر هذا الكتاب اليتيم).

أزعجني أمران في الطبعة الأولى للكتاب: فمن جهة أضاف أحد المراجعين فصلاً قصيراً في نهاية الكتاب هو الفصل الخامس (بعنوان «تطورات مشروع التشيع في سورية») دون استشارتي، وهو فصل رديء شكلاً ومضموناً ومليء بالأخطاء، ولن تخطئ عين القارئ في رؤية التباين بين لغة الفصول السابقة والتقنيات البحثية المستخدمة فيها ولغة هذا الفصل وطريقة كتابته، فاضطرت لحذفه في هذه الطبعة وأضفت فصلاً بديلاً بعنوان «الاختراق: الدخول إلى عمق الدولة» وهو يتناول المساعي الإيرانية للتغلغل في مؤسسات الدولة السورية، وهو ضروري لإكمال الصورة فيما كان يجري في ذلك الوقت.

ومن جهة ثانية كنت قد أخفيت اسم المؤلف لسبب أمني مفهوم بالنسبة إلى عموم السوريين في ذلك الوقت، يتعلق بي كما يتعلق بحماية الذين قدموا لي وثائق وشهادات ضُمنت في هذا الكتاب، كان هذا خياراً صعباً جداً لمؤلف كتاب بحثي، لكن ضرورات الواقع فرضته، وكان علي أن أقبل بذلك لنشر الدراسة.

لقي الكتاب اهتماماً واسعاً، ونُشرت منه عشرات النسخ الإلكترونية، وساهمت اللغة السهلة التي كتب بها في توسيع دائرة انتشاره كما كان متوقعاً بالفعل، لكن السبب الأهم في الواقع لانتشاره هو حاجة الناس لمعرفة ما يجري في بلادهم. هذان العاملان مجتمعين جعلتا الكتاب متداولاً داخل سورية على نطاق واسع ومنقطع النظير؛ فعلى الرغم من حظره إلا أنه تم الوصول إليه عبر نسخ مصورة أو مهربة من دول الجوار أو نسخ إلكترونية،

واهتمت به بشكل خاص دوائر صنع القرار في بعض دول الخليج العربي والدول المعنية بالتمدد الإيراني في المنطقة؛ فالكتاب فيما أعتقد شكل أول مرجع علمي متخصص وشامل حول هذا الموضوع، وقد حظي بتقدير العديد من الباحثين الغربيين المتخصصين بسورية، واعتمدت عليه معظم الدراسات حول التشيع في سورية، منها مثلاً دراسة الباحث الرصين توماس بيريه (Thomas Pierret) الأستاذ بجامعة أدنبره في كتابه «البعث والإسلام في سورية» (٢٠١١)، وفي بحثه بالإنكليزية «كربلاء في مسجد بني أمية: الهلع السني من التشيع في سورية في الألفية الثانية» (٢٠١٣)، والباحث الإيطالي موريزيو سكايني الأستاذ بجامعة ترييست في بحثه «السياحة الدينية كأداة جيوسياسية: التحالف الشيعي الإقليمي الناشئ بين سورية وإيران» (٢٠١١)، وكذلك العديد من الدراسات.

ولقد ساءني أن الباحث المتخصص في الدراسات الشيعية خالد السيناوي في كلية ماكس ستيرن الأكاديمية في إسرائيل استند كلياً في بحث بعنوان «الشيعية يتجهون إلى سورية» (٢٠٠٩) نشره في مجلة "Current Trends in Islamist Ideology" التي يصدرها معهد هيدسون (Hudson Institute) في الولايات المتحدة، فباستثناء الإحصاءات التي اعتمد فيها على تقرير نشره «مجلس الحقيقة والمصالحة» فإن البحث هو بالكامل تلخيص لكتابي هذا، فليس ذلك من الأمانة العلمية في شيء لباحث أكاديمي لم تطأ قدمه أرض سورية يوماً.

وعلى أي حال وبالرغم من أن الكتاب بالكامل يركز على الجانب السياسي، وليس مصمماً لأي نقاش ديني يتعلق بالعقائد الشيعية، إلا أنه كان طبيعياً أن تهتم به الأوساط السلفية التقليدية بسبب عداوتها الدينية للتشيع، وتستثمره كذلك التنظيمات الراديكالية

المعادية لإيران لدعم روايتها؛ ولكن مثل هذا الاستخدام الذي لا أرغب فيه لم يكن بالإمكان تجنبه أو منع حدوثه في مثل هذه الحالة.

يغطي الكتاب مرحلة طويلة من تاريخ سورية، تمتد من تأسيس الدولة السورية وحتى نهاية ٢٠٠٧. وما حصل بعد ذلك وحتى قيام الثورة السورية العظيمة في آذار/مارس ٢٠١١ هو امتداد طبيعي ويمكن التنبؤ به بسهولة بناء على معلومات الكتاب في فترة حكم بشار الأسد. لكن النقلة النوعية والجذرية التي حصلت بعد الثورة تحتاج إلى دراسة جديدة، وهو ما أعمل عليه الآن، ولأن جميع ما حدث بعد الثورة ينبني على ما حدث قبلها، فإن ذلك يجعل هذا الكتاب يمتلك صفة مرجعية لتلك الحقبة، فهو حتى الآن الكتاب البحثي الوحيد الذي يغطي تلك المرحلة. سيكون إذاً هذا الكتاب بمنزلة الجزء الأول عن البعث الشيعي في سورية، وسيليه قريباً الجزء الثاني الذي يغطي المرحلة اللاحقة بدءاً من ٢٠١١.

ولا شك أن كثيراً من المعلومات لم تكن متوفرة عند كتابة الدراسة/الكتاب في مطلع عام ٢٠٠٨ ولكنها صارت متوفرة الآن، وما توفر حتى اللحظة لا يخالف ما ورد في الكتاب بقدر ما يدعم معلوماته واستنتاجاته، لهذا السبب وباستثناء الفصل الخامس لم أُحدث تغييرات نوعية في هذه الطبعة، فحافظت على الأصل وأجريت فقط بعض التعديلات الضرورية.

أخيراً، أثار عنوان الكتاب «البعث الشيعي في سورية» تساؤلاً حول معناه ومغزاه؛ فقد تبادر إلى ذهن الكثيرين أن المقصود من كلمة «البعث» في العنوان حزب البعث، وهو ما قد يجعل العنوان متناقضاً، فالشيعة الإيرانيون لديهم عداوة معروفة مع حزب البعث

الذي يعتبره شيوخهم «حزباً كافراً»؛ غير أن هذه العداوة طريفة، فهي محصورة فقط مع البعث العراقي اليميني، أما في سورية فقد كان الأمر مختلفاً تماماً؛ لقد كان هذا «البعث الكافر» نفسه حليفاً للشيعية! والبعث الآخر فهم الكلمة بدلالتها اللغوية الصرفة أو الدينية على أنها مصدر للفعل «بَعَثَ»، وهو يدل على الإخراج من العدم والإحياء بعد الموت، وهو معنى مقصود أيضاً؛ فالتشيع في سورية يكاد يكون معدوماً، وما يجري هو عملية خلق كبرى من العدم. وواقع الحال أنني تعمدت أن أجمع كلا المعنيين السابقين في العنوان، ولن يكون عسيراً على القارئ إدراك ذلك المغزى بعد قراءته.

٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠١٧

مقدمة الطبعة الأولى

«سنهزم أمريكا وإسرائيل في لبنان!»

خامنئي، تموز/يوليو ٢٠٠٦

بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وبروز مفهوم الهلال الشيعي الذي يمتد من إيران إلى جنوب لبنان، وبجوار جملة من النشاطات المتزايدة للمبشرين الشيعة في سورية والمؤسسات المتكاثرة التي أثارت السكان المحليين - أخذ موضوع النشاط الشيعي التبشيري في سورية يحظى باهتمام محلي وإقليمي ودولي، وأصبح أحد الموضوعات التي تجتذب اهتمام الصحافة العربية والعالمية؛ ذلك أنّ خطورة التبشير الشيعي ليس في كونه نشاطاً دينياً صرفاً، بل في كونه جزءاً من فعل سياسي يتعلق بتغييرات القوى التي أصابت المنطقة، والتطورات التي لحقت بالمحور السوري الإيراني، فحوّلته إلى محور استراتيجي بالنسبة إلى دمشق خصوصاً، في ظل التهديدات الجديّة التي تعصف بنظام الأسد بعد مقتل رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري.

وفي بلد مثل سورية يمتلك موقعاً جغرافياً سياسياً بالغ الأهمية في الشرق الأوسط - إذ يقع تماماً في نقطة تقاطع القارات الثلاث

(آسيا، وأوروبا، وأفريقيا)، ولديه حدود مع خمسة بلدان ذات أهمية خاصة في الشرق الأوسط (فلسطين، لبنان، العراق، الأردن، تركيا)، ويطل على شرق البحر المتوسط - فإن التأثير في استقراره أو السيطرة عليه تمثل خطراً كبيراً على منطقة حيوية وحساسة جداً بالنسبة إلى المجتمع الدولي، وبالتالي فالحديث عن المخاوف من النفوذ الإيراني هو أمر طبيعي تماماً.

ومن الناحية الدينية فإن سورية (عاصمة الدولة الأموية تاريخياً) تحتلّ موقعاً بالغ الحساسية، ومكانة دينية مهمّة لدى المسلمين السُنّة والطائفة الشيعية في الوقت نفسه؛ ففي حين يعتبرها السُنّة معقل الإسلام وحصنه المنيع، ويعتقدون - انطلاقاً من نصوص دينية - أنّها آخر قلاع الإسلام (السُنّي) إذا ضاقت بلاد المسلمين على أهلها^(١)، فإنّ الشيعة في المقابل يعتبرونها البلد الذي بدأ فيه اضطهادهم منذ ظهورهم كطائفة دينية منشقة بعد قرابة ثلاثين سنة من وفاة النبي محمّد ﷺ، ومن جهة أخرى يعتقد معظم السُنّة أنّ الشام ستشهد ظهور «المهدي»، فيما يعتقد الشيعة أنّها البلاد التي ستناهض «المهدي المنتظر»!

وفي بلد يكاد ينعدم فيه الوجود الشيعي الإثنا عشري ديمغرافياً حتى وقت قريب^(٢)، فإنّ فهم الظاهرة الشيعية المتزايدة ودراسة

(١) ثمة نصوص نبويّة كثيرة تشير إلى هذه الأهمية الاستثنائية للشام، وتذكر عادة في هذا السياق، أهمّها: «ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام»، و«عقر دار المؤمنين الشام»، وإنّ قسطنطين المُسلميّين يَوْمَ المَلْحَمَةِ بِالْعُوْطَةِ إلى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ».

(٢) «بضع عشرات من الألوف من الشيعة الإثني عشرية»، هم كل الشيعة الإثني عشرية من السكان الأصليين، وعادة «لا يلتفت إليهم كمجموعة منفردة في بيانات الإحصاءات السكانية السورية». انظر:

مخاطرها على المنطقة أمرٌ يكتسب أهمية حقيقية إذا أُخذت بعين الاعتبار جملة المعلومات المتدفقة حول هذه الظاهرة وإطارها السياسي في السنوات الثلاث الأخيرة.

والواقع أنَّ تفسير قضية النشاط التبشيري الشيعي المتزايد في سورية لا يمكن فهمه بشكل جيد بمعزل عن الأسس السياسية التي حكمت العلاقة بين المجال الديني والفضاء العام في نظام الأسد الأب والأسد الابن، ذلك أنَّ هذه القضية تتعلق أساساً بهذين العهدين بشكل خاص؛ فقد تميّزت شريعة العلماء والمؤسسات الدينية باستقلالها الواضح خلال الحقبة الممتدة بين ١٩١٩ - ١٩٦٣، وبتأثيرها في المجال السياسي بشكل مباشر، وعلى الرغم من التأثير الكبير للخطوة التي وجَّهها الرئيس حسني الزعيم عام ١٩٤٩ بإلغاء مؤسسة الوقف التي كانت تمنح الطبقة الدينية ومؤسساتها الاستقلال الاقتصادي، فإنَّ علماء الدين والمؤسسة الدينية بقيت مستقلة وذات نفوذ واسع في المجال العام.

وأدَّى انقلاب البعث في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣ إلى دخول الدولة الوطنية في نموذج الدولة الأمنية، الوجه الآخر لجمهورية «الشرعية الثورية». وفي دولة كهذه - حيث تصبح خيوط القيادة متمركزة بيد «قائد المسيرة»، و«المجلس الثوري» - يصبح وجود أيّ قوى على الأرض «فاقداً» للشرعية بشكل تلقائي، ولتثبيت أركان جمهورية الشرعية الثورية (وفق منطق الشرعية الثورية) لا بد من تطهير الجمهورية من القوى المناهضة للثورة، ومن ثَمَّ يجب القيام بمواجهة شاملة لكل القوى، وعلى وجه الخصوص المؤسسة الدينية «الرجعية».

= فلاينت ليفريت، وراثة سورية: اختبار بشار بالنار، ترجمة عماد فوزي الشيعبي (بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، ٢٠٠٥)، ص ٢٦.

في هذا العهد - وفيما يخصّ المجال الديني - بدأ التحول نحو ما يمكن تسميته بـ«صراع التطويع» مع المؤسسة الدينية (وبموازاتها سائر القوى السياسية) وطبقة علماء الدين، لإجبار جميع القوى على الخضوع والامتثال لقائد المسيرة، القائد الواحد الأحد في دولة الحزب الواحد والرأي الواحد. وخلال ثماني سنوات لم يستطع انقلابيو البعث تطويع المؤسسة الدينية وعلماء الدين بشكل كامل، وأدّت التوترات الطائفية التي سببتها عملية تطييف (التحول إلى استئثار طائفي) الجيش والحزب إلى ازدياد نفوذ علماء الدين، وتقوية دورهم كمعارضة متزايدة ضد جمهورية البعث.

لم يخرج الأسد - بعد انقلابه في ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٠ - عن نموذج جمهورية البعث، لكنّه قام بمأسسة موقع الرئيس بشكل رسمي كموقع وحيد للقرار، انطلاقاً من تعديل الدستور ١٩٧٣، ليجمع كل مراكز القوة بيده، بدءاً من تعيينه الأمين العام لحزب البعث بعد أن جعل حزب البعث القائد للدولة والمجتمع دستورياً، مروراً بجعل الرئيس هو القائد العام للجيش والقوات المسلحة، وصولاً إلى إسناد تشكيل الحكومة إلى الرئيس مباشرة. لكن الأسد ما كان قادراً على تطويع المؤسسة الدينية وطبقة علماء الدين التي تعاظمت قوتها وبرزت - بوصفها قوة متحدية - في أزمة الاستفتاء على الدستور، حين اعترضوا على الدستور لخلو مواده من ذكر بعض القضايا التي تهمهم وتعتبر حساسة بالنسبة إليهم، مثل تحديد دين رئيس الدولة، أو دين الدولة.

كان الصراع مع المؤسسات الدينية وطبقة علماء الدين يتصاعد بجوار عملية تطييف واسعة أكمل فيها الأسد مسيرة العلونة لدولة البعث منذ ١٩٦٣، وقام بتعديتها إلى أجهزة الأمن ومراكز القرار، إلى أن حدث الانفجار الكبير في الفترة ١٩٧٨ - ١٩٨٢.

بانتهاء أحداث الثمانينيات، أكمل الأسد إضعاف جميع مؤسسات المجتمع المدني (بما فيها المؤسسة الدينية) وإقصاءها عن الفعل العام، وبشكل خاص استطاع حسم الصراع مع المؤسسة الدينية وعلماء الدين وإنهاءه بشكل كامل، ليستتب له ما كان قد أنجزه دستورياً من إقصاء كل مؤسسات المجتمع المدني عن التأثير في المجال السياسي، وحتى يستطيع استتباعها وتطويرها والسيطرة عليها فقد اتبع سياسة الموافقات الأمنية المسبقة والمراقبة الأمنية لكل نشاطات مؤسساتها ونشطاتها، وبذلك استطاع تحقيق أقصى ما يمكن من الضبط الاجتماعي.

وعبر سنوات ما بعد أحداث الثمانينيات من حكم الأسد الأب حرص الرئيس على ضبط شراكة المؤسسة الدينية مع المؤسسة السياسية في التأثير في المجال العام، الذي أصبح محدوداً باستراتيجية الاستئناس القائمة على المنفعة المتبادلة. فالأسد القادم عبر انقلاب عسكري (وليس عبر انتخاب ديمقراطي حقيقي) عانى من معضلة الشرعية بدءاً من أزمة الدستور وحتى أحداث الثمانينيات، ثم هو بحاجة للمؤسسة الدينية لتحسين صورته التي انثلمت بعد أحداث العنف الوحشي الذي مارسه أجهزته ضد الإسلاميين. لقد كان الأسد يريد الالتفاف على المؤسسة الدينية لتكون جزءاً من قوته بدلاً من أن تكون قوة مواجهة له.

كان الأسد يعرف أنّ القوة التي يتمتع بها علماء الدين تأتي من خلال إيمان الناس بهم واعتقاداتهم الدينية. ولمعرفة الأسد أنه ليس بمقدور أحد مواجهة الحقيقة الاجتماعية الإنسانية المتمثلة في الدين فقد قرّر اتباع استراتيجية الاستئناس المبنية على نقطتين أولاهما: أن لا تكون المؤسسة قادرة على اتخاذ قرار مستقل فيما يخص النشاط العام، وذلك بإخضاعها في كل صغيرة وكبيرة لنظام

الموافقات الأمنية والمراقبة المشددة؛ وثانيتها: ضبط النشاط الخاص بها، ومنعها من القيام بنشاطات مستقلة من خلال خضوعها للقرارات الإدارية المصممة بعناية في «مؤسسة الرئاسة»، (ممثلة في نائب الرئيس لشؤون التربية والتعليم)، وأن يكون محكوماً بالخطوط الحمراء المحرمة على جميع السوريين، التي تشرح معنى عدم الاقتراب بأي شكل من الأشكال من المجال السياسي.

ولتحقيق هذه الاستراتيجية فقد كان لا بد من مقايضة المؤسسة الدينية وعلماء الدين بشيء يفرغ رغبتهم المكبوتة بمقاومة النظام والتمرد عليه، ويحفزهم على الاستجابة لشروط اللعبة الجديدة، وذلك بالسماح لها بالنشاط العام، لكن هذا السماح سيكون مشروطاً دوماً بإثبات ولائها ودعمها للنظام، وبإضفاء وتثبيت شرعية النظام كلما احتاج إلى ذلك، فقد كان الأمر أشبه بمبدأ الترغيب والترهيب الديني، لكن هنا يسبق الترهبُ الترغيبُ.

على أساس هذه الاستراتيجية تعامل الأسد الأب بكثير من الحذر مع النشاط التبشيري الشيعي؛ فمن جهة لا يرغب الأسد إطلاقاً باستفزاز المؤسسة الدينية السنيّة وعلماء الدين، إذ خَبِرَ الأسد مرارة المواجهة الدينية لنظامه؛ ومن جهة أخرى كان يريد للمؤسسة الدينية أن تبقى في الخط المرسوم لها وضمن إطار حفاظها على استقرار النظام بالطريقة التي رسمها لها.

توفي الأسد الأب وخلف وراءه مؤسسة دينية منضبطة بإيقاع النظام الذي رسخ قواعده بنفسه، وخلف علماء دين زاهدين بالمجال العام، أو منخرطين فيه وفق شروط الاستثناس الصارمة. وعندما ورث نجله بشار السلطة عام ٢٠٠٠ أغراه هذا الضبط الفائق للمؤسسة الدينية السنيّة، فلم ينلها اهتمامه «الإصلاحي» المزعوم،

وعلى العكس فلم يتعامل معها على أنها مؤسسة مستأنسة ومروّضة حسب قاعدة الترهيب والترغيب التي اعتمدها والده، بل بوصفها مؤسسة ملحقّة بالنظام شأن أي مؤسسة أخرى، يستخدمها لأغراضه ولا يمنحها مقابلاً، فعليه الأمر وعليها الطاعة. كان هذا بمثابة تحول استراتيجي في التعامل مع المؤسسة الدينية.

على سبيل المثال فإنّ اختيار شخصية براغماتية فاقدة للشعبية لمنصب مفتي الجمهورية (الشيخ الواعظ أحمد حسون) بغض النظر عن اعتراض علماء الدين ورأيهم القادح فيه وفي علمه، كان على أساس النظر إلى مؤسسة الإفتاء بوصفها مؤسسة تابعة للنظام، وليست مؤسسة أهلية تنظم إدارياً في سلك حكومي. إنّ قوة المفتي هي في كونه يمتلك مصداقية لدى مواطنيه، غير أنّ الأسد الابن ضحّى بأهم صفة للمفتي، وهي مصداقيته الدينية والشعبية (ثقة الناس به كمرجع ديني)، لصالح معيار ولائه غير المحدود للنظام واستعداده الشخصي وغير المحدود لخدمة مولاة.

في الواقع إنّ هذا التحول الجديد لم ينجم عن تخطيط مسبق، بل إنّ المنطق الأمني الشامل الذي يحكم التفكير السياسي لبشار الأسد - كما تشير جملة الأحداث السياسية خلال سنوات عهده السبع - هو الذي أفضى إلى هذا التحول؛ فبشار لا يمتلك رؤية استراتيجية مخططة خاصة به بقدر ما يمتلك مواقف استراتيجية منفصلة.

لقد أدّى هذا التحول الاستراتيجي إلى إهمال مطالب علماء الدين، بل والتصادم معهم في بعض الأحيان، كما في موضوع قانون التعليم الشرعي الذي لم يأخذ بحسابه موقف علماء الدين والمؤسسة الدينية، فاضطر علماء الدين السوريون إلى أن يصدروا

بيانهم في تموز/ يوليو ٢٠٠٦، وفيهم من هو محسوب على النظام! لا ريب أنَّ البيان وموقف علماء الدين أثار دهشة الرئيس الشاب، إذ كان يتوقع من المؤسسة المستأنسة طاعة مطلقة، كما لو أنها أيُّ مؤسسة من مؤسسات الدولة، وكيف يتجرأ علماء الدين على مواجهة قرارات حكومية ويتجهون مباشرة لمخاطبة الرئيس؟ لا شك أنَّ الرئيس وقتها أحس بشكل واضح أنَّ التعامل مع المؤسسة الدينية وعلماء الدين ليس أمراً هيناً، وأنها ليست كباقي المؤسسات.

ومع ذلك على قاعدة السيطرة الأمنية المطلقة والتحكم الكامل بالمؤسسة الدينية ورجالاتها سمح الأسد الابن للمؤسسة الشيعية بالعمل بكامل حريتها، وبتسهيلات غير عادية - لأغراض سياسية وقناعات شخصية؛ كما ستوضح هذه الدراسة - على أساس أنَّ ضبط العمل الديني ممكن في أيَّة لحظة عندما يخرج عن المسار المتاح له. ويبدو أنَّ الأسد الابن نظر إلى المسألة كما لو أنَّها مسألة تخص النظام وحده، ومن ثَمَّ فقد أهمل من حسابه انعكاساتها الاجتماعية والدينية في الوسط السني الذي يمثل الأكثرية السكانية المطلقة في سورية.

وعلى سبيل المثال، فإن إصرار الأجهزة الأمنية على الاعتقال والحكم بأحكام قاسية لمجرد الانتساب الفكري للتيار السلفي، ومن دون أي عمل مادي ضد النظام منذ تولي الأسد الابن السلطة وحتى اليوم، في مقابل ترك المجال مفتوحاً أمام النشاط التبشيري الشيعي من دون حساب في الوقت نفسه، بما فيه من استفزاز اجتماعي بالغ، وحساسية للمؤسسة الدينية وطبقة علماء الدين، فهذا لا يعني سوى أنَّ المنظور الأمني الاستلحافي للمجال الديني ومؤسساته وعلمائه هو الذي يتحكم في فكر صانع القرار.

الدراسات السابقة

لقد كُتِب ونُشر وأُذيع الكثير من المقالات والتقارير في وسائل الإعلام المختلفة عن التمدُّد الشيعي ونشاط مبشريه في سورية، غير أنَّ معظم ما كُتِب يقوم على مشاهدات جزئية وتقارير يغلب عليها الانطباع والحماس العاطفي؛ وذلك لا يعني بالضرورة أنَّ هذه التقارير الصحفية والمقالات لا تتضمَّن جملة كبيرة من الحقائق، غير أنَّ هذا الموضوع لم يحظَ ببحث منظم إلا في دراستين:

١ - تحذير البرية من نشاط الشيعة في سورية (عبد الستير آل حسين)

كُتِب في وقت مبكر نسبياً (١١ شباط/فبراير ٢٠٠٤)، وشمل (دمشق، وحلب، وإدلب، والرقعة، ودير الزور، والقامشلي، وحمص، والساحل). ويبدو أنَّ اسم المؤلف اسم مستعار، كما أنه منشور بشكل كتيب إلكتروني على شبكة الإنترنت، ولا يشار في أيٍّ من هذه المواقع إلى معلومات عن مكان الطبع والنشر.

وهذا الكتيب أيضاً - الذي جاء في ١٢٧ صفحة من القطع المتوسط - لا يستند إلى أصول علمية صلبة، فهو تسجيل منظم إلى حد ما لانطباعات وملاحظات عن الوقائع والأحداث قائمة على أساس أيديولوجي (منظور سلفي). ومع ذلك تساعد هذه الدراسة - على الرغم من عدم دقة المعلومات الواردة فيها، وحاجتها للتوثيق والتأكيد، وخلوها من أرقام محدّدة - على الإمساك ببعض الخيوط الرئيسية في التبشير الشيعي وتمدّده في المناطق السنيّة في سورية.

٢ - عملية التشيع في سورية، ١٩٨٥ - ٢٠٠٦ : دراسة اجتماعية - إحصائية، ٢٠٠٦

أشرف على هذه الدراسة منظمّة «المجلس الوطني للحقيقة والمصالحة والعدالة في سورية»، وقدم لها رئيس المنظمة الطبيب والمعارض نزار نيوف.

وعلى الرغم من أن الدراسة - كما ورد في عرضها على موقع الجهة المشرفة على الإنترنت - تزعم التمسك «الصارم» بالمنهجية والشكلية البحثية الاجتماعية الإحصائية، وأنّ الباحثين الذين أجروا الدراسة (تسعة باحثين ميدانيين) هم باحثون متخصصون في مجالات علم الاجتماع وعلم الاجتماع السياسي والإحصاء، وجميعهم «علمانيون ونشطاء في حركات «المجتمع المدني» السورية» - على حدّ تعبير مقدّم الدراسة - وأنّها اعتمدت على مصادر معلومات محدّدة هي سجلات المحاكم الشرعية (المذهبية) وبيانات الزواج والطلاق، ومعطيات مستخلصة من سجلات مديريات وزارة الأوقاف في المحافظات، ومقابلات شخصية ميدانية مع علماء دين ووجهاء ومواطنين عاديين، ينتمون إلى مختلف المذاهب الإسلامية المعنية، ومعطيات مستخلصة من سجلات المراكز الثقافية الإيرانية والحوزات، والمدارس الشيعية التي تشرف عليها وتدعمها - جزئياً أو كلياً - السفارة الإيرانية في دمشق؛ على الرغم من كل ذلك فإنّ الدراسة تستدعي عدداً من الملاحظات، نسجّل أهمّها هاهنا:

أولاً: بغضّ النظر عن النتائج التي وصلت إليها الدراسة، فإنّ سجلات وزارة الأوقاف لا تتضمن معلومات تتعلق بالمؤسسات الشيعية الدينية والتعليمية، وهي فقيرة بالمعلومات عن المؤسسات الشيعية إلى حدّ مؤسف، خصوصاً فيما يتعلق بالحسينيات

والمؤسسات التعليمية، ومن ثمَّ فإنَّ الاستناد إلى مصادر مديريات وزارة الأوقاف، وحتى الوزارة نفسها، أمر غير مجدٍ ولا يقدم كثير فائدة، ولا يمكن أن يكون مصدراً غنياً للمعلومات قياساً إلى المصادر الأخرى.

ثانياً: إنَّ النتيجة التي خرج بها البحث - بأنَّ نِسَب تشيع منطقة الجزيرة السورية في محافظتي دير الزور والرقعة والقنيطرة، كونها لا تشكل إلا أجزاء عشوية متناهية الصغر (بضع عائلات تعدَّ على أصابع اليد الواحدة) ولكون النشاط الشيعي فيها يبتعد عن الشكل «التبشيري»، ويقتصر على الجانب «الطقسي» - أمرٌ تخالفه التقارير والوثائق والوقائع على الأرض، كما ستوضحه فصول هذه الدراسة؛ فمعظم المد الشيعي التبشيري في عهد الأسد الابن تركَّز في الوسط الاجتماعي الديني الموسوم بالسنيّ.

كما أنَّ نتائج البحث وتفسيرها تشير إلى تحيُّز أيديولوجي وتضخيم بالغ الواضوح؛ فمن جهة هي تجرّص على منهجية تزعم أنها «علمانية»، إلا أنها من جهة ثانية هي متحيزة طائفيّاً للعلويين! وقد أثبت البحث الميداني والجولات الاستطلاعية التي قمنا بها أنَّ الدراسة مفتقرة بشدّة للمعلومات في المجتمع السنيّ، وبالتأكيد فإنَّ ذلك يؤثر في مصداقيتها، خصوصاً لجهة الأرقام التي أعلنتها، والتي حاولت كسب مصداقية واقعية فيها عبر زهوها بالشكليات المنهجية!

ونظراً للظروف الخاصّة بالطائفة العلويّة فيما يتعلق بالحساسية الأمنية، فإنَّه من الصعوبة بمكان الحصول على معلومات دقيقة بالنسبة إلى الباحثين، ومع ذلك فإنَّ تلك الدراسة تُعتبر أحد المصادر للمعلومات التي تخضع لعمليات الامتحان والغربلة

والمقارنة، مع الأخذ بعين الاعتبار بكل التحفظات المذكورة، والتحفظات العلمية الأخرى التي لم نتطرق لها في هذا الاستعراض المختصر للنقاط الأساسية.

مجال البحث وحدوده

١ - المقصود بـ«الشيعية» في البحث هم طائفة الشيعة «الإثني عشرية»^(٣)، الذين يندرج معتقدُهم تحت المعتقد الديني السائد في إيران، والذي ينصّ عليه دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية. ويستهدف البحث دراسة تبشير الشيعة الإثني عشرية في المجتمع السوري عموماً والشقّ السنّي بشكل خاص.

٢ - يشمل البحث المحافظات السورية الرئيسية: دمشق وريفها، حلب، اللاذقية، طرطوس، إدلب، حمص، حماة، دير

(٣) طائفة إسلامية منشقة، ظهرت إثر الخلاف الذي نشأ بين الخليفة الرابع للمسلمين علي بن أبي طالب (يعتقدون أنّه دفن في النجف) ومعاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على بلاد الشام في عهد الخيفتين الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ويؤمنون بأنّ الخلافة لا ترجع إلى إرادة المسلمين في تحديد مصالحتهم، وإنّما هي محدّدة سلفاً بنصوص من الوحي وبالأسماء، وقد حدّدت النصوص اثني عشر إماماً كلّهم من نسل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (ابن عم النبيّ وزوج ابنته)، يمتلكون جميعهم العصمة الإلهية (الخطأ غير وارد في تصرفاتهم وأقوالهم)، والإيمان بهم أصل من أصول الدين لدى الشيعة. انظر تعريف الشيعة الإثني عشرية، في:

حسن الأمين، ثورة إيران في جذورها الإسلامية الشيعية (بيروت: دار النهار، ١٩٧٩)، ص ٣١ - ٣٥.

وحول عقائد الشيعة، انظر:

محمد رضا الأنصاري القمي، عقيدة الشيعة: تأصيل وتوثيق من خلال سبعين رسالة اعتقادية من القرن الثاني لغاية القرن العاشر الهجري، ط ٢ (قم: دار التفسير، ٢٠١٦).

الزور، الرقة، الحسكة، درعا. واستثنت الدراسة محافظة السويداء ومحافظة القنيطرة؛ فمن جهة ليس هناك تواجد شيعي في محافظة السويداء التي يقطن غالبيتها الدروز، ومن جهة ثانية فإن القرى التابعة لها أو للقنيطرة إذا كان يجري التشييع فيها فانطلاقاً من درعا، ومن ثمّ فما ورد من معلومات تتعلق بريف القنيطرة والسويداء تمّ إلحاقه بريف درعا.

٣ - يركّز البحث بشكل أساسي على الفترة الزمنية الممتدة بين ٢٠٠٠ - ٢٠٠٧، أي منذ تولّي بشار الأسد رئاسة الجمهورية، لكنّه يشمل أيضاً دراسة للوجود والتبشير الشيعي الحديث بدءاً من ظهور الدولة الوطنية وحتى نهاية عهد حافظ الأسد (١٩٧٠ - ٢٠٠٠)، ذلك أنّه من غير الممكن فهم التغيّرات الديمغرافية وتفسير النشاط التبشيري في الفترة (٢٠٠٠ - ٢٠٠٦) من دون معرفة تاريخ الوجود الشيعي وتغيّراته قبل ذلك.

٤ - تمّ تحديد بداية المجال الزمني في هذه الدراسة عام ١٩١٩؛ لأنّه العام الذي شهد قيام الدولة الوطنية السورية، وكلّ ما قبل هذا المجال الزمني هو عبارة عن توضيحات تاريخية عامّة لجذور الشيعة في سورية بشكل مختصر ومركز للغاية.

منهج البحث

استغرقت الدراسة وجمع المعلومات عاماً كاملاً (تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦ - تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧)، وقامت على أساس تعدّد منهجي:

١ - الجولات الميدانية الاستطلاعية: التي شملت أكثر المحافظات المذكورة آنفاً.

٢ - تحليل المضمون: وثائق رسمية حكومية، بيانات سياسية،
شهادات شهود عيان.

وفيما يخصّ شهادات شهود العيان والمصادر المطلعة والتقارير
الصحفية فإنّه تمّ التثبت من معلوماتها عبر المقارنة، وغالباً تمّ
التأكد من المعلومة من مصدر مستقل ومن أكثر من مصدر. أمّا
الوثائق الحكومية فقد تمّ التأكد من صحتها عبر مصادر متعدّدة
مستقلة، وعبر تقاطع نصوصها مع بعضها البعض، وتقاطعها مع سير
الأحداث والوقائع زمن صدورها.

٣ - المقارنة المستمرة مع معلومات ونتائج الدراسات،
خصوصاً تلك التي اعتمدت على سجلات الأحوال الشخصية
للمحاكم الشرعية الجعفرية، مع ملاحظة أنّ سجلات الأحوال
الشخصية لهذه المحاكم لا تحتوي بالضرورة على أسماء كل
المتشيعين (أو «المستبصرين» حسب التعبير الشيعي)، وذلك
يعني أنّ المعلومات التي تتضمنها على أهميتها تعتبر معلومات
تقديرية.

مصادر المعلومات في الدراسة

- ١ - الجولات الميدانية.
- ٢ - وثائق رسميّة.
- ٣ - شهادات متشيعين وشهود عيان.
- ٤ - الدراسات السابقة.
- ٥ - التقارير الصحفية.
- ٦ - المقابلات مع شخصيات ذات علاقة بموضوع الدراسة.

٧ - الدراسات العامة عن التاريخ السياسي والاجتماعي
للسورية بعد الاستقلال.

٨ - الدراسات السياسية المتخصصة بعهدَي: حافظ الأسد
(١٩٧٠ - ٢٠٠٠)، وابنه بشار الأسد في الفترة (٢٠٠٠ - ٢٠٠٧).

ملاحظات على البحث

١ - لا تدخل هذه الدراسة في إطار التحيزات المذهبية
والدينية، وتعامل مع المصطلحات الدينية (مثل: «سني» أو
«شيعي»... إلخ)، بوصفها مصطلحات أداتيّة مجردة، كما أنها
ليست معنيّة بتصحيح أو تخطئة ما يندرج فيها من التصورات الدينية
والأيديولوجية.

٢ - تجنّبت الدراسة الاعتماد على أساليب البحث الاجتماعي
في تفريغ البيانات نظراً لصعوبة الإحصاء الميداني والحصول على
أرقام حقيقية، ومن ثمّ اكتفت بالنسب التقديرية القائمة على تقاطع
معلومات من المصادر المختلفة التي اعتمدتها هذه الدراسة.

٣ - إنّ دراسةً ترصد الأرقام الحقيقية لا يمكن أن توجد في
ظل الظروف الحالية، ولا يمكن لفرد أو بضعة أفراد القيام بها؛ إذ
لا بد لذلك من مؤسسات حكومية - أو دولية متخصصة في مجال
الدراسات الأمنية والاجتماعية، وبمساعدة حكومية - كي يمكن
إنجازها بدقة وإعطاء صورة حقيقية لما يجري في الواقع. ومع ذلك
فإنّ الجهد المبذول في هذه الدراسة يمثل عملاً قريباً جداً لوصف
الواقع، ولهذا السبب تعتبر النتائج التي توصلت إليها نتائج نسبية
مهما كانت قريبة من الحقيقة. فمن المتعذر في ذلك الوقت وجود
نتائج إحصائية دقيقة.

٤ - ستغفل هذه الدراسة، لضرورات تتعلق بأصحابها، مصادر المعلومات الشخصية، خصوصاً في الشهادات العيانية ومصادر الوثائق.

٥ - توثيق المعلومات من مصادرها التي تعتبر مرجعاً أصلياً وموثوقاً في موضوعها؛ فعلى سبيل المثال تعتمد الدراسة في توثيق الأحداث التي تتعلق بالأقلية الشيعية في سورية والوجود الشيعي الجديد على مصادر شيعية أو حكومية رسمية.

المسار العام للدراسة

نظراً لصعوبة فهم حركة التشيع الراهنة بمعزل عن تاريخ الوجود الشيعي في سورية، فقد تمّ تخصيص الفصلين الأول والثاني للتمهيد التاريخي عن الوجود الشيعي والتغيرات التي طرأت على بنيته الاجتماعية والفكرية، فمن المهم للغاية وضع المعنيين بهذا الموضوع في السياق التاريخي.

تتجه الدراسة في الفصل الثالث للإمساك بالبدايات الفعلية للمد الشيعي في عهد حافظ الأسد، وانعكاسها على التشيع في الطائفة العلوية، وتأثير تشكيل المحور السوري الإيراني غداة قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩ وعشية حرب الخليج الأولى^(٤).

وفي الفصل الرابع تصل الدراسة إلى غايتها في الكشف عن أبعاد قضية التشيع ودور النظام السياسي والجهاز الأمني في دعم وحماية التبشير الشيعي في المجتمع السوري، والظروف السياسية

(٤) حول تشكيل هذا المحور - الذي كان بمبادرة حافظ الأسد وليس الخميني كما يُعتقد - وأسبابه، انظر: ميشيل سورا، سورية: الدولة المتوحشة: ترجمة أمل سارة ومارك ببالو؛ تقديم برهان غليون وجيل كييل (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧)، ص ٨٨.

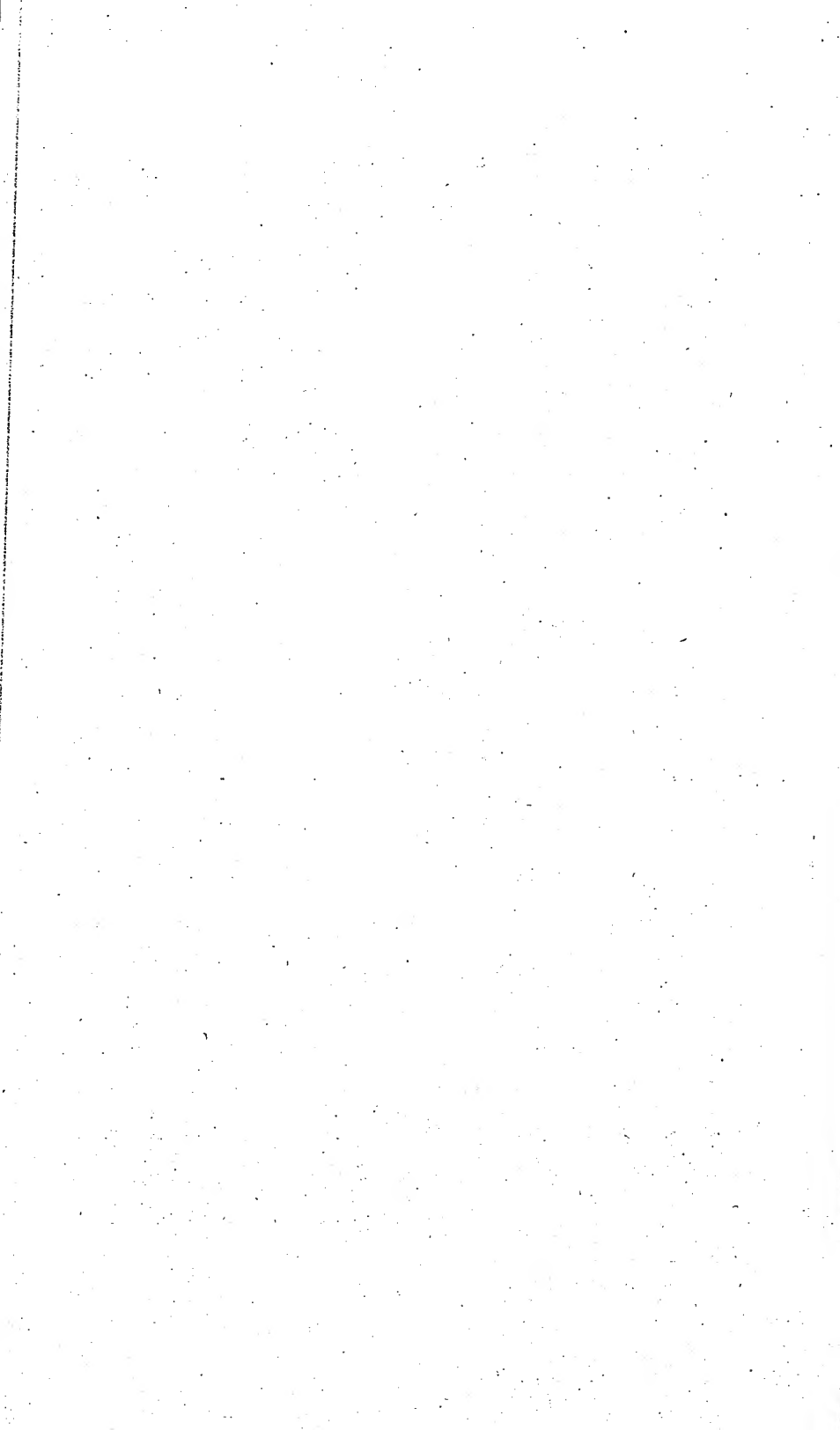
والاجتماعية المحلية والدولية التي أدت إلى انفجار قضية التشيع في سورية، وتتناول بالبحث انعكاسات التحول الاستراتيجي في المحور الإيراني - السوري في ظل أزمة الملف النووي الإيراني وخروج الجيش السوري من لبنان (عام ٢٠٠٥) غداة انطلاق التحقيق الدولي في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري.

تختتم هذه الدراسة بعرض النتائج التي توصلت إليها، وتوضيح خارطة المد الشيوعي، ودلالاتها السياسية والاجتماعية، والتقديرات الرقمية للمتشييعين في المجتمع السوري كما هي عليه اليوم، والنسب التي تعتبر من نتاج المرحلة الخاصة بعهد بشار الأسد في حدود الفترة ٢٠٠٠ - ٢٠٠٧.

أخيراً...

تندرج هذه الدراسة في إطار البحوث المتخصصة بموضوع الدين وعلاقته بالمجال السياسي، وانطلاقاً من ذلك فهذه الدراسة تشكّل جزءاً متمماً للدراسات التي درست الحركات الإسلامية وتأثير المؤسسة الدينية وعلماء الدين في السياسة، التي يمكن بمجموعها أن تفسر بشكل أعمق علاقات القوة واللعبة السياسية في سورية اليوم.

ولا بدّ في ختام مقدّمة هذه الدراسة - التي تداخلت فيها جهود عدد من أبناء الوطن المخلصين - من التوجّه بالشكر لكل الذين وفروا وثيقة من الوثائق التي تتعلق بالقضية، وكل الذين قدموا شهاداتهم ومشاهداتهم بأمانة، ولأولئك الذين أتعبوا أنفسهم في مراجعة النسخ الأولية من هذه الدراسة، ولم يبخلوا بتقديم ملحوظاتهم القيمة وخبراتهم في موضوع البحث، فكان لها الأثر في تحسين صيغته وتصويب بعض ما جاء في الدراسة، وكذلك لكل من ترجمها إلى لغة أجنبية، وكل من بذل ولم يدخر جهداً من أجل إخراجها، نتوجه بالشكر الجزيل والتقدير الكبير.



الفصل الأول

المنبوذون

الإحياء (١٩١٩ - ١٩٦٩)

«إننا مقبلون على تطور اجتماعي يعمّ أبنائنا، شئت أم أيينا، فلنقطع الطريق على ما يرافق التطورات عادة من انحراف وتهور وضياح بإنشاء مدرسة تزودهم بما يقضي به هذا التطور من صنوف المعرفة، وتبقيهم في رعايتنا ضمن إشرافنا».

السيد محسن الأمين

عندما حدثت عملية تفجير مرقد الإمام الحسن بن علي العسكري (٢٦٠هـ) في سامراء عام ٢٠٠٥، كان مدير محطة إذاعية محلية في العراق يستفتي على الهواء مباشرة عمّن يمكن أن يكون وراء هذا الحادث، وبحماس شديد قال أحد المتصلين: «أنا أعرفه!» المذيع يسأل: «من هو؟»، فيجيب المتصل: «إنهما أبو بكر وعمر!» يقصد أوّل خليفتين للإسلام. هذه الاستعادة للتاريخ تعني بالضبط أنّ التاريخ يفعل فعله الرمزي في التحشيد الطائفي، فما قاله الشاب يختزل - في الواقع - المخيال الجماعي الشيعي في العراق وغيره؛ فغداة تفجير المرقد اندلعت حرب طائفية مخيفة وغير مسبوقة في العراق. إن تحوّل الشيعة إلى أقلية مهمشة في العالم الإسلامي (السني) وعجزهم طوال التاريخ عن التحول إلى

أكثرية، والنكبات التي منوا بها في رموزهم السياسية - الدينية جراء محاولاتهم السيطرة على المركز أو على الأكثرية، خلقت وعياً انتقامياً مؤسساً على رؤية نفسية سوداوية للعالم، قائمة على الشعور العميق والمزمن بالمظلومية، والنظر إلى الشيعة بوصفهم أقلية ضالة، يعزّز هذه الرؤية ويغذيها مجموعة الطقوس الدموية الندية على مقتل الحسين يوم عاشوراء، ومجالس العزاء، والبكائيات الجماعية، والترانيم الدينية المغرقة في الحزن والأسى^(١). باختصار، ثمة رؤية للعالم مكرّسة طقوسياً قلماً توجد لدى أقلّيات دينية أخرى، تقوم على الشعور بالمظلومية والحزن والألم النفسي الشديد والمستديم، نابع من الاعتقاد بالظلم التاريخي والحرمان لأهل البيت وأتباعهم.

جملة المصطلحات المستخدمة في الخطاب الشيعي الديني مثل «الحسينية»، «المظلومية»، «العزاء»، «الندب»، وسواها، تؤسّس لحالة نفسية قابلة للانفجار في أي لحظة انتقاماً من الجماعة «الظالمة»؛ لهذا السبب فإنّ استحضار التاريخ يبدو قوياً في الحرب الطائفية الدائرة في العراق الآن. لقد قُتل الإمام الحسين عام ٦١هـ (نهاية القرن السابع الميلادي) في كربلاء على يد جند يزيد بن معاوية (الخليفة الأموي)، والآن يُعثر على جثث في مختلف أنحاء العراق انتقم من أصحابها للحسين، ومُثّل بها بعبارة: «يا لثارات الحسين»!!

أولاً: الوجود الشيعي في سورية (.... - ١٩١٩)

في القرن الثالث الهجري قدّم الإمام النَّسائي (عالم الحديث

(١) حول طقوس الحزن الشيعي، انظر: رالف رزق الله، يوم الدم: مشهديات عاشوراء في جبل عامل (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٧)، وسعود المولى، «عاشوراء وطقوس الحزن»، صحيفة المستقبل (بيروت)، ١١/١/٢٠١٢، ص ٢٠.

السُّنِّي الشهير) إلى دمشق أيام الدولة العباسية، وجلس في المسجد الأموي الكبير (وفق التقاليد العلمية في ذلك الوقت)، ليروي الحديث عن النبي ﷺ، فسُئِلَ أن يحدث الناس عن فضائل معاوية بن أبي سفيان (خليفة المسلمين الخامس)، فأجاب مستنكراً: «ألا يرضى معاوية أن ينجو رأساً برأس حتَّى يُفَضَّلَ؟!»، فقام إليه الناس فضربوه حتَّى أخرجوه من المسجد، ليغادر دمشق من فوره، ويموت إثر تلك الحادثة بوقت قليل! هذه القصة تكشف عن مدى تجذر الوعي السُّنِّي وحساسيته الشديدة من التشيع.

وحيث يقبع اليوم ضريح مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان في دمشق تأسست جذور الوعي السُّنِّي المفارق للانشقاقات الأخرى في الجسد الإسلامي، والتي كانت قد بدأت بالظهور والتبلور شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت والأحداث. وما انتهت الدولة الأموية بعد قرن من الزمان حتَّى كانت الشام^(٢) مركزاً سنياً عصياً على الزحزحة والتغيير، ورث من العهد الأموي تشدده إزاء الانشقاق الشيعي.

بقيت بلاد الشام إقليماً سنياً متمسكاً بسننّه ومذاهبه الفقهية الحنفية والشافعية والحنبلية حتَّى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجري، حين وفد الحمدانيون وأسّسوا دولتهم في مدينة حلب (شمال سورية)، وهم شيعة وُصِفوا بأنّهم غير مغالين، وكان الصراع بينهم وبين الإخشيديين (حكام مصر) حول السيطرة على دمشق. وفي نهاية القرن الرابع الهجري استطاع الفاطميون (العبيديون) احتلال أجزاء من بلاد الشام، وخاصة مناطق من الساحل السوري،

(٢) «إقليم الشام»، يضمّ كلّاً من: سورية وفلسطين والأردن ولبنان، وإذا أُطلق مصطلح «الشام» عادة ما يُقصد به سورية ولبنان معاً.

وبقي الأمر مضطرباً والصراعات مستمرة بين الفاطميين والمرداسيين في حلب ودمشق إلى أن جاء السلاجقة الأتراك في منتصف القرن الخامس الهجري، وكان من آثارهم صلاح الدين الأيوبي، الذي وُحِدَ بلاد الشام ومصر^(٣).

ويبدو أنَّ التشيع كان له أثر على بعض المناطق وخاصَّة في مدينة حلب؛ إذ يذكر المؤرخون أنَّه حين أراد القائد التاريخي الناصر صلاح الدين الأيوبي الاستيلاء على حلب استنجد الوالي بأهلها، فاشترط عليه الشيعة - الذين كان لهم وجود ملحوظ في حلب - إن أجابوه أن يعيد في الأذان «حيَّ على خير العمل» في جميع المساجد، وينادي باسم الأئمة الإثني عشر أمام الجنائز، ويكبِّر على الميت خمس تكبيرات، ويفوض أمر العقود والأنكحة لشيخ الشيعة أبي المكارم حمزة بن زهرة^(٤) فقَبِلَ الوالي ذلك مكرهاً^(٥)!

ارتبط الوجود الشيعي - الذي كان أقلّياً - بالدولة الحمدانية، كانت هذه هي المرَّة الأولى والأخيرة التي يغزو فيها الفكر الشيعي

(٣) شاكر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣)، ج ١، ص ٣٥٣.

(٤) أحد أبرز فقهاء الشيعة في حلب، ولد فيها في عام ٥١١هـ، وتوفي فيها في عام ٥٨٥هـ، ويقال إن نسبه يمتد إلى جعفر الصادق (أحد الأئمة الإثني عشر). انظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي (الرياض: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، ١٩٩٧)، ج ١٦، ص ٥٠٣.

(٥) انظر: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزبيق (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٣٤٩.

بلاد الشام، فقد استعادت الدولة الأيوبية - خصوصاً بعد صلاح الدين - ثمَّ العثمانية حكم هذه البلاد^(٦)، وأعادتها إلى وضعها الأصلي، لكنَّ جيوباً للتشيع بقيت هنا وهناك، تمَّت محاربتها ودفعها إلى الجبال، فقد كانت بمنزلة جيوب معارضة سياسية، فمعظمها يدين بالولاء للفاطميين، لهذا السبب ما كانت المسألة تعصباً سنياً بقدر ما كانت توطيداً سياسياً وعسكرياً للدولة استطاعت إخراج الصليبيين الغزاة من القدس بعد أن سقطت في أيديهم في العهد الفاطمي.

وبعد انهيار الدولة الفاطمية حوَّلهم مع الوقت إلى أقليات دينية باطنية منغلقة، تغزوها الأفكار الوثنية للديانات الإحيائية التقليدية في محيط منطقة الشرق الأوسط، وشكَّلت انشقاقات عن التشيع (الدروز والإسماعيلية والعلويون النصيريون)، ولم يبقَ من الشيعة الإمامية الإثني عشرية سوى أقلية منبوذة اجتماعياً وسياسياً صغيرة جداً، تقطن بعض القرى الصغيرة آخذة بالاضمحلال والذوبان في الجسم السني الكبير.

ثانياً: الشيعة في الدولة الوطنية (١٩١٩ - ١٩٦٩)

لا تتوفَّر إحصاءات دقيقة لعدد الشيعة في سورية عند قيام الدولة الوطنية عام ١٩١٩، ولا يبدو واضحاً كيف أصبح الشيعة

(٦) بكثير من المغالطة يشير مبشرو التشيع حتى اليوم إلى أنَّ سورية كانت شيعية، وأنَّ صلاح الدين ثمَّ الدولة العثمانية حوَّلوا أهلها بالقوة إلى العقيدة السنية! انظر مثلاً: مقابلة مع الشيخ جلال معاش (عراقي، مدير الحوزة الزينية)، صحيفة الوطن الكويتية، ١/ ٢٠٠٧، الذي صرَّح بأنَّه: «كان هناك دولة شيعية في سورية على عهد الدولة الحمدانية، وبالتالي سورية في الأصل كانت دولة شيعية!» وكانت هذه إحدى الأفكار الرئيسية التي رُوِّجت لها «جمعية المرتضى» (١٩٨١ - ١٩٨٣). انظر أيضاً الفصل الثاني من هذا الكتاب.

جزءاً من النسيج الاجتماعي الدمشقي؛ فللشيعة وجود في دمشق، وهم الأقلية الشيعية المدنية الوحيدة في سورية، وباقي الشيعة - على الضآلة الشديدة لعددهم - مشتتون في بعض الأرياف، قرب دمشق وحلب وحمص وإدلب^(٧). وقد يكون مفيداً للغاية البحث في السجلات العدلية العثمانية المحفوظة في تركيا لمعرفة أعدادهم وأوضاعهم في ظل الدولة العثمانية، فيما إذا كانت هناك أساساً وثائق تدل على وجودهم في دمشق أو في المناطق التي تدخل الآن ضمن الحدود السورية.

في «حي الأمين»، و«الجورة» - يسمى الآن حي جعفر الصادق - وعلى مقربة من الجامع الأموي الكبير في دمشق، وداخل المدينة القديمة الأثرية، حيث الأزقة المغلقة والحارات الضيقة، يقيم شيعة دمشق، في منطقة تفصل بين الأقليتين اليهودية والمسيحية، وهي المنطقة الوحيدة التي يوجد فيها أقليات دينية في دمشق. وفي منطقة المهاجرين في جبل قاسيون في دمشق يقيم الشيعة في حي «زين العابدين»، ويطلق عليهم أهالي دمشق وصف «المتأولة»، أو «الأرفاض»، وهي أوصاف تدلّ على نبذ المجتمع الدمشقي لهم.

ويشير بعض الباحثين إلى أنه في جوار دمشق، وتحديدًا في الغوطة في قرية عين ترما وقرية راوية - في الدقانية، وفيها مقام السيدة زينب الصغرى - دخل التشيع في القرن الثامن للهجرة. وفي ريف حلب يقطن الشيعة قريتي بُبُل والزهراء الصغيرتين،

(٧) باستثناء ذلك، فإنّ الوجود الشيعي جميعه جديدٌ وطارئٌ، يرجع في قسم منه إلى إيمان شخصي وجدل ديني - كما هي الحال في قرية «زرزور» قرب جسر الشغور - أو يرجع إلى فترة لاحقة مثل الهجرة التي سببتها الحرب الأهلية في لبنان كما في مدينة بصرى.

ولطالما كانت هاتان القريتان موضع حساسية المجتمع المدني الحلبى، وهو مجتمع معروف بتعصبه الاجتماعى فضلاً عن الدينى. وفى إدلب كان يقطن العديد من الشيعة قريتي الفوعة وكفريا. وفى حمص فى وادى إيران والعباسية جوار «حي البياضة»، وفى قريتي الحميدية وأم العمد اللتين يرجع الوجود الشيعى فيهما إلى القرن الرابع الهجرى على أبعد تقدير^(٨).

ولم يكن بإمكاننا - بسبب الوقت - البحث للتوصل إلى تاريخ ظهور الشيعة فى هذه المناطق جميعها، وما إذا كانت ترجع إلى ما قبل ظهور الدولة الوطنية فى العصر الحديث أم بعده.

وحسب الإحصاءات الرسمية، فإن نسبة الشيعة إلى عدد السكان فى سورية كانت فى عام ١٩٥٣ تمثّل ٠,٤ بالمئة^(٩) من سكان سورية، وهذا يؤكد أن الطائفة الشيعية كانت صغيرة للغاية. وقد طغى على المجتمع الشيعى حالة من الانغلاق الشديد، حتى إنه لم يكن قادراً على الإسهام الجيد فى المجال العام؛ لا ثقافياً ولا اجتماعياً ولا سياسياً، حتى الستينيات. وبينما كان فى عزله غارقاً فى طقوس عزائه المقيم وبكائياته المتواصلة على «الإمام المظلوم» الحسين بن علي وفد على هذا المجتمع الشيعى الشيخ محسن الأمين الحسينى من جبل عامل فى لبنان بدعوة من أبناء الطائفة فى دمشق^(١٠)، ليواجه هذا الانغلاق وما صحبه من

(٨) انظر: جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة فى لبنان وسورية: أول دراسة علمية على تاريخ الشيعة فى المنطقة (بيروت: دار الملاك، ١٩٩٢)، ص ٢٥١.

(٩) سورية بالأرقام: دليل إحصائى شامل (المعطيات الجغرافية والسياسية والتربوية والعسكرية) (بيروت: المركز اللبنانى للدراسات الاستراتيجية، ١٩٨٥)، ج ١، ص ١٢٤-١٢٥.

(١٠) هشام الأمين، وصابرنا ميرفان (تحقيق وشرح)، سيرة السيد محسن الأمين (بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر، ٢٠٠٠)، ص ١٤٥.

تصورات دينية سقيمة، ويث فيه روح الحياة من جديد.

انشغل الشيخ الأمين بتصحيح «الانحرافات» التي أصابت الفكر الشيعي الإثني عشري في دمشق، وأسّس لهذا الغرض «المدرسة العلوية» لإحياء التعاليم الدينية الشيعية «الصحيحة» ومواجهة «الانحرافات» الأخلاقية التي يجلبها العصر^(١١)، وهي أوّل مدرسة شيعية في سورية للتعليم الديني، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وهي معروفة باسم «المدرسة المحسنية» في حي الأمين. وعلى الرغم من أنّ الشيخ لم يواجه في إصلاحاته ممانعة قوية من المجتمع الشيعي الصغير، إلا أنّه نازع شيوخه على سلطتهم الدينية والاجتماعية، ولقي في سبيل ذلك الكثير من التجريح كما يشير في مذكراته؛ إذ يقول: «وجدنا مجالس العزاء وما يتلى فيها من أحاديث غير صحيحة، وما يُصنع في المشهد المنسوب إلى زينب الصغرى المكناة بأُم كلثوم في قرية «راوية» من ضرب الرؤوس بالسيف والقامات، وبعض الأفعال المستنكرة، وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها، لا سيما أنّها ملبسة بلباس الدين». وعندما كان المجتمع الشيعي يذكر إنجازاته ف«هو الذي شيّد المجالس في دمشق»، كان شيوخ الشيعة يكفرونه: «قد كان هذا عن أول أمره، لكنّه بعد ذلك خرج من دين الإسلام!»^(١٢).

(١١) ينقل نجله هاشم عن والده - بشأن فكرة تأسيس هذه المدرسة - قوله: «إنّنا مقبلون على تطور اجتماعي يعمّ أبناءنا شتّى أم أبينا، فلنقطع الطريق على ما يرافق التطورات عادة من انحراف وتهور وضياح بإنشاء مدرسة تزودهم بما يقضي به هذا التطور من صنوف المعرفة، وتبقيهم في رعايتنا ضمن إشرافنا». انظر: هاشم محسن الأمين وعباس بيضون، «الخبية والحزب والعزلة»، السفير، ١٧/١١/١٩٨١، ص ١٠، نقلاً عن: وضاح شرارة، دولة حزب الله: لبنان مجتمعاً إسلامياً، ط ٤ (بيروت: دار النهار، ٢٠٠٦)، ص ٢٧.

(١٢) المصدر السابق، ص ١٥٧.

توفي الشيخ محسن الأمين عام ١٩٥٢، ودُفن في «الحضرة الزينية» مخلفاً وراءه طائفة بدأت تدبّ فيها الحياة، متحفزة للمشاركة في المجال العام بعد أن كانت منبوذة ومنغلقة على نفسها، يعلوها غبار مئات السنين من التاريخ المطوي؛ لهذا السبب يحظى السيد محسن الأمين لدى الشيعة السوريين باحترام كبير، فهم مدينون له بإحياء الطائفة، وتكريماً له يُطلق على أحد الأحياء التاريخية التي يقطنها الشيعة اسم «حي الأمين».

في الستينيات شارك شيعة في حكومة البعث في الفترة ما بين شباط/فبراير ١٩٦٦، وتشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠ عبر حقبة وزارية واحدة^(١٣)، وذلك بعد استيلاء الضباط العلويين الكامل على السلطة، وهو أمر له دلالاته الهامة، خصوصاً إذا عرفنا أنّ حزب البعث امتدَّ إلى لبنان في ذلك الوقت، وأنَّ من بين أبرز قياداته في لبنان شيعة^(١٤).

وعلى أيّة حال لم يُسجَل للشيعة قبل هذا التاريخ أيّ مشاركة سياسية، في وقت كان الدروز والمسيحيون والعلويون يسهمون بقوة في الحكومات^(١٥) وانقلابات الجيش، وبرز منهم ضباط كبار أدّوا دوراً مهماً في تاريخ سورية في مرحلة ما بعد الاستقلال.

(١٣) انظر: Nikolaos van Dam, *The Struggle for Syria: Politics and Society under Asad and Ba'th Party*, 3rd ed. (London; New York: I. B. Tauris Publishers, 1996), p. 83.

(١٤) مثل «علي نادي»، وهو شيعي من بنت جيبيل، انظر: شرارة، دولة حزب الله، م.س، ص ٧٣ و ٨٣.

(١٥) في فترة الانتداب الفرنسي وتحديدًا عام ١٩٢٥، أسّس الأخوان يوسف حيدر وسعيد حيدر جريدة المفيد التي كان من أبرز محرريها نجيب الرئيس، وفي مكاتبها انعقد الاجتماع الذي تقرّر فيه إرسال الوفد الوطني لمقابلة المفوض الفرنسي السامي الجديد، الجنرال ساري، وكانت منبراً لحزب الشعب (الوطني). وعلى الرغم من أنّ اسم الأخوين =

حتى ذلك الوقت، لم تكن هناك تغيرات ديمغرافية ملحوظة للوجود الشيعي في سورية، وباستثناء بعض حالات التحول (الاستبصار) الفردية في حلب^(١٦) وإدلب^(١٧)، وربما في ريف درعا وغيرها، فإنه لا يوجد تبشير شيعي بالمعنى المنظم، ولا بالمعنى السياسي؛ كانت المسألة في ذلك الوقت مجرد قناعات نادرة دينية ومذهبية صرفة.

= قد يوحى بشيعيتهما إلا أنه لا وجود لهذه الكنية في العائلات الشيعية في دمشق، وعلى الأغلب هما من العلويين؛ فهذه الكنية تدل على أصول ريفية من جهة، ومن جهة ثانية فإن الكنية شائعة جداً في العائلات العلوية. انظر: حسن الأمين، غارات على بلاد الشام (دمشق: دار قتيبة، ٢٠٠٠)، ص ٢٠٥.

(١٦) يعتبر الشيخ محمد مرعي الأنطاكي (ولد سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م في قرية عنصو، وهي من القرى التابعة لأنطاكية)، مؤسس التشيع الحديث في مدينة حلب. كان شافعي المذهب ثم اعتنق المذهب الشيعي الجعفري الإمامي في ثلاثينيات القرن المنصرم، ونشط بالدعوة للتشيع في حلب ومحيطها.

(١٧) في قرية زرزور - والتي تقع شمال جسر الشغور (مدينة تابعة إدارياً لمحافظة إدلب) بحدود سبعة عشر كيلومتراً، قرب الحدود التركية - بدأ التشيع على يد محمد ناجي الغفري، الذي كان قد تأثر بالشيخ محمد مرعي الأنطاكي وأعلن تشيعه عام ١٩٤٥، الأمر الذي يدل على مدى التأثير والنشاط الذي أحدثه الأنطاكي في ذلك الوقت.

الفصل الثاني

موطئ قدم

التحالف (١٩٧٠ - ١٩٩٠)

«الطريق إلى القدس يمر عبر كربلاء، والطريق إلى لبنان يمر عبر العراق»

هاشمي رفسنجاني، رئيس مكتب حركات التحرر الإسلامية في الحرس الثوري الإيراني (تموز/يوليو ١٩٨٢)

«العلويون»^(١) هم فرع من الشيعة يوصفون في الأدبيات الشيعية

(١) ترجع تسمية الطائفة بـ«العلويين» إلى الانتداب الفرنسي، فقبل الحرب العالمية الأولى كانت الطائفة تعرف باسم «النصيرية». انظر: باتريك سيل، الأسد: الصراع على الشرق الأوسط (لندن: دار الساقى، ١٩٨٩)، ص ٣٢.

مؤسس هذه الطائفة هو أبو شعيب محمد بن نصير النميري البصري (توفي ٢٦٠هـ) الذي عاش في العراق وادّعى أنه الباب للإمام الحادي عشر الحسن العسكري، وهو الذي جمع عقائد الفرق الشيعية المتطرفة ليصوغ منها المعتقدات النصيرية التي اتسمت بالسرية، وأهمها تأليه الصحابي علي بن أبي طالب، والقول بالتناسخ، وتأويل كل الأوامر الشرعية بأن لها باطناً يخرجها عن مفهومها الشرعي، وجاء بعده عبد الله بن محمد الجنان الجنيلاني الذي رحل من إيران إلى مصر، وهناك تبعه الحسين بن حمدان الخصبي الذي حاول نشر مبادئ هذه الفرقة عندما استقرّ في حلب أيام الدولة الحمدانية. انظر: عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين: المعتزلة والأشاعرة والإسماعيلية والنصيرية (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٧).

بأنهم غلاة انشقوا عن الطائفة الإمامية الإثني عشرية، ويُنظر إليهم في النصوص الفقهية باعتبارهم «كفاراً»، وهذا ما يقيم جداراً شاهقاً بين الأصل وانشقاقه، ولم يكن من المحتمل أن تقوم آية علاقة بين العلويين والشيعة الإثني عشرية لأسباب دينية محضة حتى وقت قريب.

الانتماء إلى أقلية دينية^(٢) من هذا النوع كان له عمق كبير في شخصية حافظ الأسد، وعلى الرغم من انتمائه اليساري (فهو من الفصيل اليساري لحزب البعث) فإنه «كان يشارك أبناء طائفته عواطفهم في السخط على الماضي (...) وكان عليه أن يعمل بجدّ

= حول شخصية الخصبي ومرجعته للعلوية، انظر: أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصبي، الهداية الكبرى، ط ٤ (بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩١)، ص ٧ و ١٤ و ٣٢٣.

(٢) الطائفة العلوية هي أكبر أقلية دينية في سورية، فنسبتها - حسب الإحصاءات حتى عام ١٩٨٥ - (١١,٥ بالمئة). الأقليات الأخرى: الدروز (٣ بالمئة)، والإسماعيليون (١ بالمئة)، والمسيحيون (٨ بالمئة)، والشيعة قرابة (٠,٤ بالمئة)، والباقي مسلمون سنة (٧٦,١ بالمئة). انظر إحصاءات الأعوام: ١٩٥٢، ١٩٦٠، ١٩٦٣، ١٩٧٥، ١٩٨٢، ١٩٨٣، في: سورية بالأرقام: دليل إحصائي شامل (المعطيات الجغرافية والسياسية والتربوية والعسكرية) (بيروت: المركز اللبناني للدراسات الاستراتيجية، ١٩٨٥)، ج ١، ص ١٢٤ - ١٢٥ وج ٢، ص ١٢٧ - ١٢٨. وهناك بعض الباحثين من يشكك في دقة هذه النسب، ويرى أن نسبة السنة في سورية لا تقل عن ٨٠ بالمئة. وقارن أيضاً بـ:

Nikolaos van Dam, *The Struggle for Syria: Politics and Society under Asad and Ba'th Party*, 3rd ed. (London; New York: I. B. Tauris Publishers, 1996), p. 1.

وهو يعزو إلى:

Gabriel Bear, *Population and Society in Arab East* (London: Routledge and Kegan Paul, 1949), p. 109; J. C. Dewdney, «Syria: Patterns of Population Distribution», in: John I. Clarke and W. B. Fischer, eds., *Populations of the Middle East and North Africa* (New York: Africana Pub. Co., 1972), pp. 130-142, and Eugen Wirth, *Syrien: Eine Geographische Landeskunde* (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1971), pp. 170-171.

لإقناع المتشككين بأنّه قد خَلَفَ عَقْدَ الأقلية وراء ظهره، وبأنه ملتزم جسداً وروحاً، قلباً وقالباً بالتيار القومي الرئيسي العام^(٣). لكن الأحداث أثبتت أنّه كان غير ذلك، فقد كانت نزعته الطائفية أقوى من قوميته بما لا يقاس؛ إذ عمل الأسد ورفاقه في «اللجنة العسكرية» على علوّة حزب البعث وعلوّة السلطة. وقد بدأت عملية تطييف الجيش والبعث منذ انقلاب البعث في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣، واشتدّت مع تسلّم الأسد وزارة الدفاع في عهد نور الدين الأتاسي (ظلّ صلاح جديد، ١٩٦٦ - ١٩٧٠)^(٤)، وبلغت ذروتها بعد انقلاب الأسد واستيلائه على السلطة، وكان الأسد يعمل من أجل بناء سلطته الخاصة، ويستخدم طائفته العلوية لتؤدي «دور خط الدفاع والحماية الأول»^(٥) لهذه السلطة ضد المجتمع، فمنذ استيلائه على السلطة وهو «يكرس كل سياسته لربط مصير الطائفة بمستقبله السياسي»^(٦)، وكان لذلك أن يستثير الغريزة الطائفية السنيّة التي تتم عملية إزاحتها من الجيش والسلطة بشكل ممنهج، ويفجر

(٣) سيل، الأسد، م.س، ص ٤٥.

(٤) على سبيل المثال: شكّل الضباط من منطقة اللاذقية أعلى نسبة تمثيل بين الأعضاء العسكريين في القيادة القطرية لحزب البعث، فقد وصلت إلى ٤٩ بالمئة بعد انقلاب البعثيين في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣. وبالنظر إلى الأقليات الدينية فإنّ تمثيل الضباط العلويين في الفترة بعد انقلاب البعث في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣، وقبل انقلاب صلاح جديد - بالقيادات القطرية السورية كان على أشده، حيث وصل في المتوسط إلى ٣٧,٧ بالمئة، يليه الدروز (٩,٤ بالمئة)، ثمّ الإسماعيليون (٩,٤ بالمئة)، وتمّ تمثيل الضباط السنيين بنسبة ٤٣,٤ بالمئة. ووصلت هذه النسبة إلى ٦٣,٣ بالمئة من ضباط اللاذقية في عهد صلاح جديد، انظر:

Van Dam, *The Struggle*, Ibid., p. 79.

(٥) سورا، سورية، م.س، ص ٨٦.

(٦) المصدر نفسه.

أسوأ أحداث عنف شهدتها سورية في تاريخها بين عامي ١٩٧٨ - ١٩٨٢، ولا يزال أثرها قائماً إلى اليوم.

أولاً: «القومي» الذي كان ضدّ القومية! (١٩٧٠ - ١٩٨٢)

لم تلتقِ الأقليتان السوريتان (أكبر أقلية دينية: العلوية النصيريون، وأصغر أقلية دينية: الشيعة الإثنا عشرية) الواقعتان بحجمهما على طرفين متقابلين من المجتمع؛ فلاتزال الأصول الاعتقادية النصيرية - بالنسبة إلى الشيعة على الأقل - خارج دائرة الإيمان «الصحيح». وتشير الدراسة التي أجراها «المجلس الوطني للحقيقة والمصالحة في سورية» إلى أنّ الشيخ العلوي عبد الرحمن الخيّر (١٣٢٢ - ١٤٠٢هـ/ ١٩٠٣ - ١٩٨٢م) أوّل من بدأ حركة التشيع في سورية عبر نشر التشيع في طائفته. غير أنّ هذا ليس دقيقاً؛ فمن جهة يجب التمييز بين التشيع وبين حركة إصلاحية تتوسّل بالأصول الشيعية لفك عزلتها (وهو ما كان يسعى إليه الخير)، ووفقاً لتأريخ الشيخ الخيّر لـ «يقظة العلويين» فإنّ تاريخ هذه الحركة الإصلاحية يرجع إلى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر.

ومن جهة ثانية فإنّ كتابات الخير أيضاً وكتبه المنشورة لا تشير إلى تبشير شيعي بالمعنى الدقيق، بقدر ما تشير إلى محاولة إكساء العقائد العلوية قدراً من الشرعية في المجتمع السنّي الإسلامي الكبير، عبر شرحها بمفاهيم ومصطلحات شيعية جعفرية؛ فمعظم مؤلفاته هي تعريف بالعلويين وعقائدهم، وهي تُوزّع بكثافة مثيرة للانتباه في الأكشاك العامة والمكتبات في دمشق، وبعض المدن الأخرى. كل ما يمكن قوله بصدد الشيخ الخير وجهوده أنّه عمل على محاولة كسر الجليد بين الطائفتين (النصيرية والإمامية

الإثني عشرية)، ولا يبدو أنه مارس تبشيراً شيعياً صرفاً؛ فقد كان حريصاً على بقاء الطائفة العلوية واستمرارها عبر ضخ الدم الشيعي فيها، وحاول أن يمدّها بأسباب البقاء نظرياً، كما الكثيرون قبله، مثل أستاذه الشيخ سليمان الأحمد، وإن كان ذلك لا يعني أنّ هذه التصورات الجديدة لم تؤدّ إلى إعادة قسم من الطائفة إلى أصلها الشيعي، وأنّ الشيخ الخير نفسه ربما تشيّع رسمياً في نهاية المطاف وإن ظلّ يتحدّث باسم الطائفة النصيرية.

الأقليتان (العلوية النصيرية والشيعة الإثنا عشرية)

في مطلع السبعينيات، وفي ظل استقطاب سياسي سنّي - مسيحي واحتقان طائفي نظر فيه الشيعة والدروز لأنفسهم على أنّهم الطرف المحروم من الكعكة السياسية التي حُصرت بين السُنّة والمسيحيين الموارنة في لبنان، كان الأسد يرنو بنظره إلى هناك متطلعاً إلى نفوذ فيه، فلطالما كان لبنان معقل تخطيط الانقلابات السورية. ثم إنّ الأسد كان قد استفاد من دروس حربَي ١٩٦٧ و١٩٧٣ مع الإسرائيليين؛ فبعد خسارة الجولان عرف أنّ الخاصرة الرخوة لسورية بالنسبة إلى العدو الإسرائيلي تكمن في لبنان، لهذا السبب كان حريصاً على مدّ علاقاته مع القوى والزعامات الدينية والسياسية في لبنان.

لا أحد يعرف بالضبط كيف تعرف الأسد على رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان، الإمام موسى الصدر^(٧) (الإيراني

(٧) رجل دين إيراني، ولد في قم ودرس في النجف الأشرف، قدم لبنان عام ١٩٥٩

بناءً على طلب آل شرف الدين من أهالي جبل عامل لخلافة عالمهم الذي توفي شاباً عبد الحسين شرف الدين (ت ١٩٨٥). أصبح أهم الزعامات الشيعية في التاريخ اللبناني =

اللبناني)، وانعقدت بينهما صداقة حميمة، وليس من المستبعد أن تكون زعامات دينية من الطائفة العلوية (مثل الشيخ الخيّر) هي التي كانت سبباً في هذه العلاقة؛ فقد كانت للصدر علاقات جيدة بهم، وقد زار جبال العلويين مراراً، لكن من الواضح أيضاً أن العلاقة كانت ذات أبعاد سياسية، يحاول الأسد من خلالها دعم الشيعة لاقتسام الكعكة السياسية وأخذ نصيبهم منها، فيما هو يسعى لنفوذ داخل القوى الناقمة؛ فالأسد أقام علاقات صداقة مع المسيحيين الموارنة، ولديه بطبيعة الحال علاقات مع بعض الأطراف الفلسطينية، وقد استثمر ذلك كله في الدخول إلى لبنان عام ١٩٧٦، بموافقة أمريكية وثُمَّ إسرائيلية (كما تشير الوثائق) عشية اندلاع الحرب الطائفية.

سرعان ما احتاج الأسد إلى موسى الصدر؛ ففي ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٧٣ نُشرت مسوِّدة الدستور السوري الجديد، الذي صمَّمه الأسد ليكون أساساً لحكم طويل المدى، ويعتبر من أسوأ الدساتير التي وضعت في تاريخ سورية منذ نشوئها كدولة وطنية. حُذفت في هذا الدستور المادة التي تشترط أن يكون «رئيس

= الحديث، وإليه يعود الفضل في تحشيد الشيعة للمطالبة بحقوقهم السياسية (فقد كانوا مهمشين ومحرومين من الامتيازات التي تتمتع بها الطائفتان الكبيرتان: السُّنة والموارنة) وإدخالهم في معترك الصراع على السلطة. أُسِّس لهذا الغرض «حركة المحرومين» السياسية عام ١٩٧٤، والجناح العسكري لها «أمل» (الحروف الأولى من عبارة «أفواج المقاومة اللبنانية») عام ١٩٧٥. اختفى أثناء زيارته ليبيا في آب/أغسطس ١٩٧٨. وما زال اللبنانيون الشيعة إلى اليوم يطالبون بمعرفة حقيقة غياب الصدر. انظر: سيل، المصدر نفسه، ص ٤٤١ و ٥٧٣.

ويستند سيل في معلوماته عن الصدر إلى: فؤاد عجمي، الإمام المختفي: موسى الصدر والشيعة في لبنان (لندن: طبع إيتاكا، ١٩٨٦). انظر أيضاً: وضاح شرارة، دولة حزب الله: لبنان مجتمعاً إسلامياً، ط ٤ (بيروت: دار النهار، ٢٠٠٦)، ص ٤٤.

الجمهورية مسلماً»، فأثار ذلك موجة احتجاجات عمّت سورية، لا سيما في مدينة حماة (التي سيكون لها تاريخ دموي رهيب مع قوات الأسد). وعلى الرغم من تراجع الأسد عن حذف المادة إياها، فإنّه واجه مشكلة فيما بعد تلخص في أنّ العلويين لا يُعتبرون مسلمين لا عند السُّنة ولا عند الشيعة!! ومن ثمّ فالأسد لا ينطبق عليه الشرط الدستوري للرئاسة، وعليه لا يحق له تولي منصب الرئاسة. أصبح هذا حديث الشارع السوري وأحد شواغله الرئيسية. لجأ الأسد إلى صديقه الزعيم الشيعي الإمام موسى الصدر، فأصدر له (في تموز/يوليو ١٩٧٣) فتوى تقول بأنّ العلويين مسلمون، وهم طائفة من الشيعة^(٨).

مهما كانت قوة أو ضعف أثر هذه الفتوى على الشارع السوري، إلّا أنّ مصطلح «شيعي» برز لأول مرة في المجال السياسي السوري وطرق أسماع السوريين بهذه الفتوى.

وفود عمائم الشيعة

في مطلع السبعينيات لجأ إلى سورية عدد من رجال الدين

(٨) انظر: Hussein J. Agha and Ahmad S. Khalidi, *Syria and Iran: Rivalry and*

Cooperation (London: Pinter Publishers: Royal Institute of International Affairs, 1995), p. 3.

انظر أيضاً: سيل، الأسد: الصراع على الشرق الأوسط، ص ٢٧٩.

وكان الشيخ الشيعي (العراقي من أصل إيراني) حسن مهدي الشيرازي قد أفتى في شباط/فبراير ١٩٧٣ (١١ ذي القعدة ١٣٩٢هـ) بأنّ (العلويين) و(الشيعة) كلمتان مترادفتان مثل كلمتي (الإمامية) و(الجعفرية)؛ فكل شيعي هو علوي العقيدة، وكل علوي هو شيعي المذهب». وذلك في تقديمه لوثيقة شهيرة لثمانين شيخاً من الطائفة العلوية بيّنوا فيها «عقيدتهم» صدرت في ذلك الوقت. لكن حجم الشيخ حسن الشيرازي لم يكن إلى حد يسمح بمقارنته بحال بالزعيم موسى الصدر، ولم يكن الشيخ الشاب أساساً في موقع مرجعية دينية تمكّنه من الفتوى، لهذا لم يكن لما قاله صدى. وللتعريف بالشيرازي انظر الهامش التالي.

الشيعة هرباً من بطش النظام العراقي البعثي اليميني إلى دمشق حيث النظام البعثي اليساري! كان من بينهم الشيخ حسن مهدي الحسيني الشيرازي^(٩)، الذي عانى في السجون العراقية إلى أن تمكّن من الخروج إلى سورية بعد لأي. أقام الشيرازي في قرية سنّية بجوار مقام كان لا يزال غير معروف بشكل واسع في ذلك الوقت، هو مقام السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، الذي أصبح فيما بعد أشهر مقامات الشيعة، وربما أهمها بعد النجف وكربلاء. وأسس حسن مهدي الشيرازي عام ١٩٧٦ حوزة علمية للتعليم الديني، عُرفت بـ«الحوزة الزينية»، وهي أوّل حوزة للتعليم الديني (العالي) للشيعة في سورية.

كان تأسيس الحوزة - من وجهة نظر الشيرازي - «في سورية جبراً للتاريخ الأموي والتاريخ الماضي»^(١٠)، ولـ«إحياء مذهب أهل

(٩) الشيخ حسن الشيرازي (١٩٣٥ - ١٩٨٠): عالم دين عراقي من أصل إيراني، الأخ الأصغر للمرجع الشيعي آية الله العظمى محمد الشيرازي، مناضل أصولي، اعتُقل مرات عدّة في العراق، وانتقل إلى سورية. حمل فكرة أخيه في استعادة الفرع الشيعي (العلويين النصريين) إلى المذهب الأم (الجعفرية الإثني عشرية)، ولعب دوراً رئيسياً في تأسيس تيار للتشيع في أوساط الطائفة العلوية (النصيرية) في سورية بتوجيه من أخيه المرجع. اغتيل في لبنان عام ١٩٨١، ويُنسب اغتياله إلى المخابرات البعثية العراقية.

ينحدر حسن الشيرازي من أسرة دينية إيرانية عريقة من منطقة شيراز، التي لعبت دوراً في تاريخ إيران الحديث، فمنها المرجع الديني الكبير السيّد محمّد حسن الشيرازي، قائد ثورة التبّاك الشهيرة في إيران إبان الاستعمار البريطاني، والمرجع الديني الميرزا محمّد تقي الشيرازي أحد قادة ثورة العشرين التي اشترك فيها السُنّة والشيعة ضد الاحتلال العسكري البريطاني في العراق.

(١٠) مقابلة لموقع الشيرازي. نت، الموقع الرسمي للمرجع الشيرازي وأخويه، مع تلميذه الأفغاني «محمد علي العلوي». انظر المقابلة على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/legaat/legha/shahid/008.htm> >.

البيت (ﷺ) في عاصمة الأمويين أعداء أهل البيت (ﷺ)»^(١١)! على حدّ تعبير حسن الشيرازي نفسه.

تعتبر الحوزة الزينية الآن أهم الحوزات العلمية في سورية وأكثرها نشاطاً وتأثيراً، وطلابها من لبنان، وشيعة السعودية والخليج، والأردن، والعراق، وسورية، وباكستان، وأفريقيا، وأفغانستان^(١٢). وكان الشيرازي المناضل الأصولي والمبشر الشيعي يرى أنّ «سورية هي بوابة إلى العالم العربي وإلى العالم بأسره؛ فهي كانت ولا زالت جسراً بين العالمين الإسلامي والعربي». فاستثمر الشيرازي هذا الموقع الاستراتيجي بإنشاء الحوزة العلمية في السيدة زينب. واليوم يرى الشيعة أنّ «يوم افتتاح الحوزة [كان] فتحاً للشيعة ولعلمائهم؛ حيث استطاعوا أن يفتحوا على العالم (...) فعبر هذه الحوزة أنشئت حوزات في السعودية وأفريقيا ولبنان، حيث استطاعت (...) أن تُوجد تياراً من العلماء يقومون بأعمال التثقيف والتعليم [الديني الشيعي] في مختلف المدن السورية»^(١٣).

وإذا كانت الحوزة الزينية بدأت تمارس دوراً خطيراً في التبشير الشيعي في سورية وجوارها منذ ذلك الوقت، فإنّه لا يبدو أنّ الشيرازي استطاع أن يوجّه جهده التبشيري للداخل السوري السني بقدر ما وجّهه للداخل السوري العلوي، وإلى دول الجوار

(١١) نقلاً عن تلميذه الأفغاني، انظر: المصدر نفسه.

(١٢) انظر: مقابلة مع الشيخ جلال معاش (عراقي، مدير الحوزة الزينية)، صحيفة الوطن (الكويت)، ٢٠٠٧/٦/١.

(١٣) انظر سيرته الذاتية على الصلة:

<http://rabe3_alarartripod.com/Subject.html>.

(لبنان ودول الخليج) لمساندة الأقليات الشيعية هناك، ولكنه قام برحلات تبشيرية أيضاً إلى أفريقيا (سيراليون وساحل العاج على وجه الخصوص)، وتبنتى «في هذه الرحلات إيفاد مجموعة من الطلبة للدراسة في الحوزات العلمية في بيروت، و[الحوزة] الزينية، ثم العودة إلى أفريقيا لغرض التدريس وتأسيس المشاريع الإسلامية»^(١٤) بهدف التبشير، وتنفيذاً لفكرة شقيقه في استعادة الفروع العلوية إلى أصلها الجعفري الإمامي.

بالتأكيد إذاً، لا يعود انكفاؤه عن التبشير في الوسط السني السوري لحسن نواياه تجاه أهل البلد المضيف، بقدر ما كان الوضع في المجتمع السوري هو السبب؛ فقد تزايدت نقمة الأكثرية السنية بسبب العلونة الممنهجة للجيش والحزب التي مارسها حافظ الأسد ورفاقه منذ استيلاء البعث على السلطة في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣، واستيلائهم على حزب البعث في الوقت نفسه. وفي هذا الوقت الذي أخذ فيه الاحتقان الطائفي يتصاعد قدّم الشيعة مساندتهم للأسد ممثلة بفتوى موسى الصدر عن العلوية والشيعة، ولا يبدو أنّه كان لدى حافظ الأسد - في ذلك الوقت - مانع من أيّ نشاط تبشيري شيعي في ظرف كان يدافع فيه عن شيعة الطائفة العلوية لترسيخ موقعه في الرئاسة، وكان يأمل فيه ربما - ولكن على نحو أقل أهمية - بمساعدة الطائفة العلوية بإخراجها من عزلتها العقدية الاجتماعية^(١٥).

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) يروي الشيخ إبراهيم حسن النجار (أحد شيوخ العلويين) هذه القصة الدالة على علاقة الأسد بشيوخ الطائفة ذوي النزعة الشيعية والملاي الشيعية في تلك الفترة: «كنا خلال السبعينيات، وذلك إمّا في عام ١٩٧٥، أو ١٩٧٦ مع المرحوم الأستاذ أحمد الخيّر في سفرة إلى دمشق، ومنها قمنا بزيارة مقام السيدة زينب عليها السلام، حيث التقينا هناك بسماحة =

الثورة الإسلامية في إيران والصدام مع إسلامي سورية

«لا شيء يخرجنا في هذا البلد، فقد تجاوزنا العُقد وتحررنا منها منذ وقت طويل»^(١٦)، كان هذا ما قاله الأسد رداً على الانتقادات التي طالته؛ لأنه ذهب إلى لبنان ليواجه المسلمين (السُّنة والفلسطينيين) حماية للمسيحيين في لبنان. لم يكن بالتأكيد متحمساً للمشروع المسيحي في لبنان، كان متحمساً فقط لوجود قوي وهيمنة سورية على لبنان. وعلى أية حال لعبت ميوله الطائفية دوراً مهماً في علاقته بآيات الله في إيران، فقد كان «لها أيضاً جذور في خلفيته كأحد أبناء طائفة منشقة من التشيع، وفي شعوره بالتعاطف مع رجل دين من أصول ريفية ومن أقلية كالشيعة المحرومين في لبنان»، كما يقول كاتب سيرته وصديقه الشخصي باتريك سيل^(١٧).

=المغفور له الشهيد السيّد حسن الشيرازي قُدّس سرّه، فطلب السيد من الأستاذ أحمد الخير (علماً أنّ الأستاذ أحمد الخير هو أستاذ حافظ الأسد) أن يحدّد موعداً لزيارة الرئيس حافظ الأسد، فقال: لا مانع؛ تفضّل، وسأحدّد لك موعداً. وفي اليوم التالي ذهبُ بمعِيّة المرحوم الأستاذ أحمد الخير وآية الله الشهيد السيّد حسن الشيرازي إلى زيارة الرئيس حافظ الأسد، فقال السيّد الرئيس ضمن حديثه وهو يخاطب السيّد الشيرازي: يا سيّد أنت في حمايتنا في سورية، ونحن في خدمتك واحترامك ونحافظ عليك، ولكن قلّل من ذهابك إلى لبنان، ففيه هناك مؤامرات عليك وخطر على حياتك، فابقِ عندنا. فأجابه السيّد:

«واسحق جباه الملحدين مردّداً لا السجن يرهبني ولا الإعدام!» فقال الرئيس له: وعلى كلّ حال فأنت من سلالة أهل البيت الطيبين الطاهرين، وقلبك قوي، ولكن هذا رأيي». انظر: الشيخ إبراهيم النجار (أحد العلويين المؤسسين للجمعية الجعفرية في اللاذقية سنة ١٩٥٠، وأحد موقعي بيان العلويين ١٩٧٣)، مقابلة أجراها معه موقع الشيرازي. نت، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥. انظر اللقاء على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat.htm> >.

(١٦) سيل، الأسد، م.س، ص ٤٦١، نقلاً عن: ملخص الإداعات العالمية عن الشرق الأوسط من محطة الإذاعة البريطانية، العدد ٥١٨٥، يوم ١٤ نيسان/أبريل ١٩٧٦.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٥٧٢.

في صيف ١٩٧٦ عندما دخل جيش الأسد إلى لبنان أسدى إليه موسى الصدر خدمة أخرى؛ إذ أبقى الطائفة الشيعية اللبنانية خارج ائتلاف كمال جنبلاط اليساري، الذي كان الأسد يحاول كبحه وإخضاعه آنذاك^(١٨)، أصبح الأسد مديناً للصدر مرتين، وكان عليه أن يرد الدين يوماً ما.

لعب الصدر دور صلة الوصل بين المعارضة الإيرانية المتمثلة بمعسكر الخميني وبين الأسد، فمدّ لهم يد المساعدة^(١٩)، وعرض على الخميني النزول في ضيافة سورية قبيل خروجه من العراق عام ١٩٧٨، ولكنه فضل أن يستقر في «نوفل لو شاتوه» قرب باريس. جاءت دعوة الأسد في وقت بدأ يواجه معارضة إسلامية سنّية مسلّحة.

كان الأسد يشعر بالخوف من المعارضة الإسلامية السنّية المتعاضمة في الداخل، وكان يراقب بانتباه انقضاخ الإسلاميين الشيعة على الشاه بقيادة الشيخ الشيعي آية الله الموسوي الخميني، لكنّه على الرغم من أنّ دروس المعارضة الداخلية جعلته حذراً من النوم مع الإسلاميين تحت سقف واحد، إلا أنّه مع ذلك أقام علاقات استثنائية مع الخميني؛ فما أن انتصرت الثورة الإيرانية حتى أوفد وزير خارجيته السّني عبد الحليم خدام في آب/أغسطس ١٩٧٩ مهنتاً، وكان قد سبقه وزير الإعلام العلوي أحمد إسكندر

(١٨) المصدر نفسه، ص ٥٧٣.

(١٩) ساعد بعض المقربين من الخميني، مثل إبراهيم يزدي، ومصطفى شمران، وصادق قطب زاده، فأعطى - على سبيل المثال - قطب زاده جواز سفر سورياً مكّنه من القيام بنشاط معادٍ لنظام الشاه تحت مظلة العمل كمراسل صحفي في باريس لجريدة الثورة السورية اليومية.

أحمد بهدية من الأسد، هي نسخة من القرآن الكريم مزخرفة بالذهب!

ومع أنَّ الأسد ظلَّ على الدوام يرفع الشعارات القومية، إلاَّ أنَّه كان ينقضها باستمرار وفقاً لمصالحه ومصالح طائفته الخاصة؛ فقد متَّع علاقته بالخميني لأسباب سياسية وغير سياسية^(٢٠)، تخوفاً من عدوه الرئيس العراقي صدام حسين وطموحاته، واستثماراً للتغيرات الاستراتيجية التي حصلت في المنطقة بعد سقوط الشاه، وخروج مصر من الصراع العربي - الإسرائيلي بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد. وفي الوقت نفسه كان الأسد بتحالفه مع الخميني يفكر في معاقبة الدول السنيَّة التي دعمت انتفاضة الإخوان المسلمين التي ظلَّ يعاني منها حتى عام ١٩٨٢، خصوصاً الأردن التي آوت قيادات الإخوان، والأهم من كل ذلك هو ابتزاز الدول الخليجية (السعودية على وجه الخصوص) التي كانت تمول نظامه.

فشل تصدير الثورة الإيرانية

«إنَّكم تعرفون ماهية حزب البعث الكافر هذا (...) فإذا أعطيتكم الفرصة لهذا الحزب الكافر فسوف لا يمضي وقت طويل إلا ويدمر أضرحة أئمة الإسلام، ومشايخ وأئمة الشيعة والسُّنة. إنَّ عدو هؤلاء الحقيقي هو الإسلام والقرآن، وإنَّ هؤلاء يعتبرون الإسلام منافياً ومخالفاً لهم ولأهوائهم الشخصية. إنَّ عفلق ومؤيديه لا

(٢٠) انظر حول جملة الأسباب السياسية والاقتصادية لموقف الأسد:

Agha and Khalidi, *Syria and Iran*, Ibid., pp. 9-10.

انظر أيضاً: شرارة، دولة حزب الله، م.س، ص٣١٦، وسيل، الأسد، م.س،

ص٥٧١ - ٥٧٥.

يعتقدون بأي دين ومذهب»^(٢١)، كان هذا جزءاً من كلام الخميني المفترض أنه حليف الرئيس الأسد الذي يحمل صفة الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي في سورية!

الواقع أنَّ الأسد - على ما يبدو - لم يكن متحمساً كثيراً للخميني؛ إذ كان يرى فيه أصولياً، والأسد ما كان متديناً أبداً، بل كان علمانياً، وطائفته طائفية سياسية لا تتعلق بأي قناعات دينية. لهذا السبب فبقدر ما كانت العلاقة مع الزعيم الشيعي الأكبر (الخميني) ذات وظائف سياسية كانت في المقابل لا تتضمن بعداً دينياً، بل إنَّ الأسد حرص على ضبط العلاقة في هذا الإطار.

قام الأسد بمجازر وجرائم إبادة ضد شعبه في المدن السورية (وبشكل خاص في حلب وإدلب وحماة) في سياق محاولة قمعه الإسلاميين قمعاً وحشياً للتخلص منهم بشكل كامل. وقد لقي الأسد تغطية أمريكية، وهو الذي كان دخل لبنان بصفقة أمريكية إسرائيلية. وأسد ملالي إيران خدمة للأسد بصمتهم المطبق عمّا فعله من مذابح ومجازر ١٩٨٠ - ١٩٨٢، وذلك على الرغم من أنَّ إيران رفعت شعار تصدير الثورة ومناصرة الحركات الإسلامية التحررية^(٢٢) من الأنظمة الظالمة و«الكافرة»، مثل النظام البعثي! بل

(٢١) الخميني (قائد الثورة الإيرانية)، خطاب للشعب العراقي والجيش العراقي، ٦ ذي الحجة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(٢٢) خصَّص قادة الثورة مكتباً في الحرس الثوري (باسيج) لدعم حركات التحرر الإسلامية باسم «مكتب حركات التحرر الإسلامية»، وكان يرأسه في البداية هاشمي رفسنجاني، والذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية. قد يكون بالإمكان تفسير موقف إيران تفسيراً مذهبياً، فالخميني وملاليه متعصبون لشيعة، ولكن الأرجح أنَّه كان نفاقاً سياسياً لحفظ مصالحهم في التحالف مع الأسد ضد العراق، ومن ورائه الأنظمة العربية؛ لأنه في ذلك الوقت ليس لديهم موقف متشدد إزاء الإخوان المسلمين.

إن إيران أيدت موقف الأسد وقدمت له مساعدات استخباراتية واستشارات عسكرية، ولا بدّ أن الأسد كان ممتناً ومديناً لهم بذلك بالتأكيد.

كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماة وسياسة أخرى في طهران؟ أكان الصراع مع الإخوان المسلمين بكامله مجرد شيء صوري فارغ بلا التزامات عقدية؟ أليس مشايخ إيران رجعيين ومتعصبين مثل الإسلاميين الذين قاتلهم الأسد في سورية؟

كانت هذه التساؤلات هي التي أطلقها الجنرال رفعت الأسد^(٢٣) نائب الرئيس، وعضو القيادة القطرية لحزب البعث، وقائد سرايا الدفاع) بعد أن بدأ يُنحَى من مناصبه شيئاً فشيئاً إثر محاولته الانقلابية على أخيه في ٣٠ آذار/مارس ١٩٨٤. كان رفعت محقاً، ولكن حافظ الأسد - الذي استفاد كثيراً من دعمه لإيران، عبر إقامة محور «سوري - إيراني»، إضافة إلى محوره المتمم «السوري - الشيعي»^(٢٤) في لبنان - كان يقطاً جداً، فهو بالتأكيد يخشى من فكرة تصدير الثورة، خصوصاً أنّ الخمينيين يضمرون أنّه بعثي «كافر». وعلى الرغم من كل الود الظاهري الذي أبداه الإيرانيون للأسد فإنّ الأسد بقي حذراً لا يأمن جانبهم؛ فخلال عشر سنوات من دولة الثورة الإسلامية في إيران لم يزر الأسد الإمام الخميني أو يلتقي به لأي سبب كان^(٢٥)، على الرغم من التزايد المطرد في اشتداد المحور السوري - الإيراني.

(٢٣) سيل، الأسد، م.س، ص ٧٠٦.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٩٢.

(٢٥) لم يلتقي الأسد أياً من رؤساء إيران في عهد مرشد الثورة (١٩٧٩ - ١٩٨٩)، سواء الرئيس (أبو الحسن بني صدر) (١٩٧٩ - ١٩٨١)، أو الرئيس علي خامنئي (١٩٨١ - ١٩٨٩) - مرشد الثورة الإيرانية الحالي وثالث رئيس للجمهورية - باستثناء زيارة الرئيس خامنئي لسورية في أيلول/سبتمبر ١٩٨٤.

ثانياً: تشكيل المحور السوري - الإيراني (١٩٨٢ - ١٩٩٠)

حتى من الناحية السياسية لم يكن الأسد واثقاً من آيات الله في طهران، ف«فضيحة إيران - كونترا» عام ١٩٨٦ التي كشفت عن صفقة تسليح إسرائيلية إيرانية^(٢٦) بقيمة ١٠٠ مليون دولار، بدءاً من عام ١٩٨٠ (تاريخ اندلاع حرب الخليج الأولى) - والتي كشف الأسد نفسه خيوطها^(٢٧) - هزّته بعنف، وشكّكته بقوة في إمكان الاعتماد على إيران في المواجهة مع الأخطار التي تهدد نظامه مع ملالي لا يتورعون عن صفقات مشبوهة مع العدو، كما أنّ حادثة خطف السفير السوري في طهران إياد المحمود (في ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦) من قبل جماعة إيرانية شيعية متطرفة، يقودها مهدي هاشمي، عزّزت المخاوف والريب لدى الأسد من ملالي الشيعة.

لم يكن الأسد في حقيقة الأمر يُسرّ لرؤية اللحي الشيعية الراديكالية الشعثاء في جبال لبنان وشوارع طهران، بل إنّهُ كان يخشى أن يراها في شوارع دمشق؛ فهي تستثير مخيلته لتسترجع

(٢٦) انظر: سيل، الأسد، م.س، ص ٧٨٠ - ٧٨٩.

(٢٧) سرّب الأسد خبر الصفقة الفضيحة عبر مجلة الشراع (اللبنانية) التابعة لحركة أمل، ونشرته في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٦، وأصل القضية أنّ بعض كبار موظفي البيت الأبيض في إدارة الرئيس رونالد ريغان كانوا يأملون ببيع سلاح أمريكي عن طريق الإسرائيليين - وربما بالموافقة على بيع السلاح الإسرائيلي إلى إيران - الإفراج عن الرهائن الأمريكيين ببيروت! وفي نهاية آب/أغسطس من عام ١٩٨٥ أقلعت من تل أبيب إلى طهران أول طائرة محمّلة بقدائف «تاو»، ولكن هذه المرة بموافقة الولايات المتحدة، بعد أن كان يتم نقل الشحنات من تل أبيب إلى طهران بإرادة إسرائيلية متفردة منذ عام ١٩٨٠. ولم يُعرف حتى اليوم ما إذا كانت الأسلحة أمريكية الصنع أم معها أسلحة إسرائيلية الصنع أيضاً. وكان تسريب الأسد للخبر معاقبة للإيرانيين على سوء تصرفهم معه وعدم وقوفهم إلى جانبه في أزمة طائرة إل عال (١٩٨٦ - ١٩٨٧).

أحداث الثمانينيات الدموية، وتنقله من جهة أخرى إلى مشهد انقضاخ الملاي على شاه إيران العلماني. وبحساباته السياسية - في الاستفادة من النزعة الدينية العنيفة للعب أدوار ونفوذ في المنطقة، وغريزته السياسية - قرّر أن لا يسمح للملاي في طهران وتابعيهم في لبنان بتصدير ثورتهم إلى دمشق تحت أي عنوان.

كان هذا أحد الأسباب التي جعلت الأسد حتى التسعينيات لا يسمح لأي من أعضاء حزب الله وقياداته بدخول سورية؛ إذ كان يعرف جيداً أنهم خمينيّون يؤمنون بتصدير ثورة إمامهم في طهران، فضلاً عن أن «أساليبهم تمحو خط التمييز الفاصل بين نضال العرب المشروع من أجل التحرّر الوطني وبين الإرهاب»^(٢٨)، وإن كان يريد الاستفادة «من كل ذرة من التصلب الشيعي»^(٢٩) في مواجهة إسرائيل في جنوب لبنان.

كان الأسد يقطاً للغاية، يحاول بكثير من الانتباه منع التبشير بالتشيع لمنع أفكار الثورة الإيرانية من التقدّم إلى بلاده، وكان بانتظام وإصرار يلجم التواجد الإيراني. وفي كل مرة يشعر بتزايد النشاط الإيراني الشيعي يعمد إلى اتخاذ إجراءات لمواجهة تغلغل المؤسسات الإيرانية في المجتمع السوري؛ كإغلاق المعاهد والمؤسسات، وحتى المستوصفات الممّولة إيرانيّاً، دون أن يقدم الأسباب، وباستمرار كانت تحركات السفير الإيراني والملحق الثقافي ومستشاره توضع تحت المراقبة. كان الأسد حازماً في ذلك، فقد كان دقيقاً في إدارة العلاقة مع إيران الشيعية: محور سياسي خالص يلعب دور توازن في القوى الإقليمية لمصلحته ومصلحة النظام الإيراني، وليس أكثر من ذلك.

(٢٨) انظر: سيل، الأسد، م.س، ص ٧٥٩.

(٢٩) المصدر نفسه.

جمعية المرتضى «قائد المسار»

بينما كان نظام الأسد يصارع من أجل البقاء إبان أحداث الثمانينيات التي اندلعت في المدن السورية^(٣٠)، وبعد نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية، وأثناء أزمة الإخوان المسلمين، أنشأ جميل الأسد^(٣١) (شقيق الرئيس) عام ١٩٨١ جمعية إسلامية في مدينة اللاذقية لنشر الفكر الشيعي باسم «جمعية المرتضى الإسلامية». غير أنَّ الجمعية، التي لم تكن تحمل أفكاراً شيعية صرفة، كانت تحاول أيضاً توسيع نطاق النفوذ العلوي في سورية^(٣٢)، فعمد جميل الأسد

(٣٠) قادت نقابات المهن الحرة - مثل نقابة المهندسين والأطباء والصيدالة ولا سيما نقابة المحامين والأحزاب السياسية - حراكاً سياسياً ضد نظام الأسد، فقمعه بعنف، ونجح بالقضاء عليه بعد تحويله - الذي يمثل ثورة طلابية - إلى معركة عسكرية بين «نظام علماني» و«إسلاميين متطرفين» ممثلين في الإخوان المسلمين. حول هذا الحراك السياسي انظر: سورا، سورية، م.س، ص ٣٨.

(٣١) وُلد جميل الأسد عام ١٩٣٣. انتُخب عضواً في مجلس الشعب عام ١٩٧٣، وبقي عضواً فيه حتى وفاته، وتمَّ اختياره عضواً في المؤتمر القومي الثاني عشر لحزب البعث عام ١٩٧٥ (مع ابن عمه عدنان، إضافة إلى شقيقه رفعت). تخرَّج من كلية الحقوق، ثم حصل على شهادة دكتوراه في الحقوق من روسيا عام ١٩٩٢.

وكان جميل قد عمل موظفاً في الأمن العام في شركة نفط العراق في بانياس، ثم أصبح رئيساً لبلدية القرداحة (مسقط رأس الرئيس الأسد)، وتحوَّل إلى رجل أعمال، واشتهر بممارسة الطرق غير المشروعة لكسب المال، فقد وضع مفارز مرتبطة به في المرافق والمنافذ الحدودية تفرض الرسوم على كل بيان جمركي. عُرف عنه الفساد المالي وممارسة التهريب على نطاق واسع. انظر:

Van Dam, *The Struggle for Syria*, Ibid., p. 189.

توفي في كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٤م، في مستشفى في فرنسا، وخلف وراءه ثروة هائلة بمليارات الدولارات (ما يقارب خمسة مليارات دولار في البنوك في الخارج، إضافة إلى قصور وأراضٍ في فرنسا ولبنان وسورية)، حيث فجرت صراعاً عنيفاً بين ورثته وصلت فضائحه إلى العلن وبلغت أسماع المجتمع السوري.

(٣٢) انظر: سورا، سورية، م.س، ص ٨٧.

إلى افتتاح مقرات للجمعية في مختلف أنحاء سورية، وركز بشكل أساسي على القبائل في منطقة درعا والجزيرة ومناطق الأكراد في منطقة القامشلي، وفي مدينة اللاذقية وقرى العلويين.

وعلى الرغم من أن أفكار الجمعية كانت منفرة للوسط السني إلا أنه انتسب للجمعية آلاف من المواطنين السوريين في المدن السورية وأريافها المختلفة تحت وطأة الخوف من القمع الدموي الذي مورس ضد الإخوان المسلمين، وتحت الإغراءات التي قدمتها الجمعية؛ فأعضاء الجمعية المهمون كانوا يُسلحون، وتُقدم لهم سيارات الحماية من قبل سرايا الدفاع، الأمر الذي كان يشير إلى صلة أكيدة بين الجمعية ورفعت الأسد قائد السرايا؛ وعلى هذا فليس من المستغرب أن تكون الجمعية بالأساس من بنات أفكار رفعت في سياق مواجهة الإخوان المسلمين وشد عصب الطائفة.

ما كان جميل متديناً، لكنه كان أقل علمانية من أخويه، وسمحت له ميوله الطائفية الدينية بالتفكير بجمعية دينية تبسط له النفوذ السياسي؛ أي إنشاء «تجمع سياسي وراء واجهة دينية»^(٣٣). كان زعيم الجمعية يسعى بشكل خاص إلى علونة البدو والمزارعين من الجزيرة والمناطق الصحراوية وشبه الجذباء من حمص وحماة بزعم «أن سكان هذه المناطق كانوا في الأصل علويين، واضطروا تحت ضغط السلطات العثمانية أن يصبحوا سنيين»^(٣٤). عملت الجمعية بصورة علنية، وعقدت ندوات واحتفالات ومهرجانات في مختلف المناطق السورية، ورفعت يافطات الجمعية في المدن، وفي

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢ - ١٢٣.

معاقل شديدة التعصب ضد الشيعة^(٣٥)، وأصدرت وثائق وشهادات لمنتسبيها. وانتسب إلى هذه الجمعية - إضافة إلى المواطنين السوريين - عدد من المسؤولين العلويين داخل النظام، وبعض كبار التجار وزعماء العشائر ممن يستهويهم التسلط. واستطاع جميل من خلال جمعيته أن ينشئ شبكة واسعة من الأتباع والمؤيدين، فكانت عشرات الحافلات تنقل مؤيديه إلى اللاذقية من شتى أنحاء سورية. وفي ظروف الحرب الدموية مع الإخوان المسلمين من الطبيعي أن تلعب هذه الجمعية دوراً استخباراتياً مهماً عبر اختراقها للوسط الديني السنّي.

حشد خلفه بالقوة والمال والسلطة الكثيرين، وطال تأثيره بشكل خاص مناطق العلويين والمناطق الكردية، وبشيء من الدعم الذي حظي به من قبل حزب العمال الكردي (PKK) لاقت جمعية المرتضى إقبالاً في القامشلي والحسكة والقرى والبلدات الكردية، مثل بلدة عفرين وجنديرس (شمال مدينة حلب) التي افتتح فيها مقرات لجمعيته؛ إذ روج جميل الأسد وعوداً بالاهتمام بالشأن الكردي في سورية، وبتوزيع الأسلحة الفردية على أنصاره، وكان تأثيره في الأكراد قوياً قياساً إلى الوسط السنّي العربي^(٣٦).

لقد خلط جميل الأسد بين الفكر العلوي والعقائد الشيعية ربما على نحو قريب من أفكار الشيوخ الإصلاحيين في الطائفة العلوية

(٣٥) مثلاً: في مدينة دوما ريف دمشق معقل الحنبلية في سورية تزعم الشيخ الكردي أبو الحسن الميقرى افتتاح مقر الجمعية، وكان من أنشط مقارّها في دمشق وريفها.

(٣٦) بلغ أعضاء الجمعية آلافاً من الأكراد، وقد أخذ الحماس بعضهم حلاً أقدم فيه أحد الأعضاء الأكراد القدامى - وهو رشيد مراد من قرية كفر صفرة - على الإعلان عن تشكيل حزب سياسي باسم «حركة التضامن الديمقراطي الكردي»، متأثراً بأفكار الجمعية، وأصدر نشرة باسم «التضامن»، وذلك بعد حلّ الجمعية بفترة قصيرة.

الذين كانوا يؤمنون بـ«عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي الجعفري الإمامي»، وجمع حوله علماء دين متفيعين من دور الإفتاء في دمشق وبعض القرى والمدن السورية، وخلع على نفسه لقب «الإمام المرتضى»! وفي وقت لاحق ومع تزايد أتباعه أطلق على نفسه «قائد المسار» - بموازة اللقب الذي أطلقه حافظ الأسد على نفسه «قائد المسيرة» - لم تكن شخصيته الانتهازية ولا سمعته وممارساته السيئة والذائعة الصيت في الساحل تسمح بالقناعة به كقائد متدين، ولم يكن هناك شيء من مظاهر التدين يدل على «تدينه» سوى لحيته! لهذا لم يكن بين أتباعه سوى البسطاء والسذج والانتهازيين، الذين سيكون لهم دور لاحق وخطير في الغزو الشيعي لسورية.

سرعان ما أقام «الإمام المرتضى» علاقات مع الإيرانيين، وحظي بدعم ملالي الشيعة في إيران. لكن النظام الإيراني الرسمي نأى بنفسه، فعلاقته بحافظ الأسد لا تسمح له بالتورط في هذا النوع من النشاط التبشيري ذي الخلفية السياسية، وحافظ الأسد كان يضبط حدود العلاقة ويتدخل كلما شعر باختلالها. وكان الإيرانيون يحاولون الدخول - بطرق شتى - إلى المناطق التي توجد فيها الطائفة العلوية، مستغلين ما يعتبرونه تقارباً مذهبياً مع أبنائها. وفي كل الأحوال كان الإمام الجديد «المرتضى» يحظى بدعم مالي ومعنوي من قبل المرجعيات الشيعية في العراق وإيران، التي اهتمت بشكل كبير بتشجيع الطائفة العلوية وتصدير الثورة؛ وبالتأكيد لم يكن يتورع عن استثمار هذا الدعم للإثراء غير المشروع. وفي هذا السياق افتتح «الإمام المرتضى» أيضاً عشرات الحسينيات في أنحاء سورية، وبشكل خاص في الساحل السوري حول مدينتي اللاذقية وطرطوس^(٣٧).

(٣٧) يقدّر بعض مواطني مدينة اللاذقية عدد الحسينيات التي خلفتها جمعية المرتضى =

كان حافظ الأسد يغض الطرف عن الجمعية؛ لأنه كان مستفيداً منها فيما يتعلق بالشق الاستخباراتي على الأقل. إلا أنَّ انشقاقاتٍ برزت في صفوف الضباط إبان ظهور النقاش على خلافة الرئيس حافظ الأسد بعد تشكيله «اللجنة السداسية»^(٣٨) لإدارة البلاد أثناء مرضه في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣؛ حيث كان كثير من الضباط العلويين الكبار يرون في رفعت الشخص الأقوى ليحل مكانه أثناء مرضه. ولم يخفِ جميل تأييده العلني لرفعت الأسد،

= بنحو ٧٦ حسينية في المدينة وحولها فقط. وحسب شهادة أحد المواطنين فإنَّ هذه الحسينيات ألت «إلى خرائب يأوي إليها الشذاذ للعب القمار وشرب الخمر، وأشياء أخرى بعثت عن ذكرها القلم... أكبر هذه الحسينيات كان في ضاحية «دم سرخو»، وتزيد مساحتها على ستة آلاف متر مربع، وأصغرها في قرية «عين التينة» لا تكاد تزيد عن ٤٠ متراً مربعاً»، غير أنَّ هذا الرقم، الذي قد يكون دقيقاً، لا يعني أنَّ هذه الحسينيات من إنجاز الجمعية، فهناك تيار شيعي في وسط العلويين لا بدَّ أنَّه شيدَّ عدداً منها قبل وجود جمعية المرتضى أساساً. الشهادة منشورة على الإنترنت، بعنوان: «رسالة من مواطن سوري حول المد الصفوي في اللاذقية»، على الوصلة الآتية:

< <http://www.d-sunnah.net/forum/showthread.php?t=62624> >.

(٣٨) أصدر الأسد وهو على فراش المرض أوامره بتشكيل لجنة سداسية أطاق بها إدارة الأمور اليومية، مكوّنة من: وزير الخارجية عبد الحليم خدام، والأمين العام المساعد للقيادة القومية لحزب البعث عبد الله الأحمر، ووزير الدفاع مصطفى طلاس، ورئيس الأركان حكمت الشهابي، ورئيس الوزراء عبد الرؤوف الكسم، وزهير مشاركة الأمين العام المساعد للقيادة القطرية لحزب البعث (جميعهم سنيون)؛ بيد أنَّ الأمر غير الطبيعي هو عدم تعيين رفعت الأسد، والذي كان ترتيبه ضمن أعلى عشرة مراكز بالحزب، في هذه اللجنة السداسية التوجيهية، وبالرغم من أنَّه أيضاً كان أقوى أعضاء القيادة القطرية بعد الرئيس نفسه، وكان يتمتع بقاعدة قوية داخل القوات المسلحة المكوّنة من سرايا دفاعه، ذات الأسلحة الثقيلة والبالغ عددها ٥٥ ألفاً، وربما كانت هذه السرايا نظرياً تتبع رئيس الأركان أو وزير الدفاع، أمّا عملياً فقد كانت هذه السرايا تتصرف كتشكيلات مستقلة؛ وقد يعود لهذا السبب - بجانب تصرفات رفعت التي تتسم بالتهور وعدم الحنكة والفساد - أن تقاعس الرئيس عن اختياره عضواً في اللجنة السداسية. انظر:

Van Dam, *The Struggle*, Ibid., p. 199.

ويشير البعض إلى أنه أثناء مرض الرئيس أعلن تأييده له من خلال قيام عدد كبير من أتباعه بمظاهرة أمام قصر الضيافة بدمشق تطالب بتنصيب رفعت الأسد رئيساً للبلاد! وهذا يدل على أنَّ الجمعية فعلياً تعود إلى رفعت الأسد؛ لهذا السبب وبمجرد أن برأ الرئيس من مرضه قرّر حلّ الجمعية تقليماً لأظفار رفعت وإضعافه، فأصدر في منتصف كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣ قراراً بحلّها^(٣٩).

وإثر حلّها تمّ اعتقال عدد غير قليل من أعضائها، خصوصاً الأكراد^(٤٠)، ودخل «الإمام المرتضى» و«قائد المسار» غير المظفّر حالة غياب، وبقيت له بعض الصلات بكثير من أعضاء الجمعية ما لبثت أن تحولت - مع انصرافه للاهتمام بالتجارة وتجارة التهريب ومزاولة الابتزاز في الموانئ والنوافذ الحدودية الجمركية - إلى عصابات مسلحة عرفت باسم «الشيّحة»^(٤١) (الاسم الذي سيكون له دور خاص عند اندلاع الثورة في ٢٠١١) في العديد من المدن السورية، أثارت قلقاً للآمن والاستقرار الداخلي. وقد تحمّل النظام أنواعاً مختلفة من الأنشطة غير المشروعة المتّسمة بالعنف التي كان يقوم بها جميل الأسد وباقي الأفراد الأصغر سناً من أسرة الأسد الموسّعة، بمن فيهم فوّاز نجل جميل، خاصّة في منطقتي اللاذقية وطرطوس. وقد تمّ كبح هذه الأنشطة فيما بعد ولو جزئياً، ولكنها بقيت مستمرة حتى مطلع التسعينيات، حيث وسّد إلى باسل

(٣٩) انظر: المصدر نفسه، ص ١٢٢. وسيل، الأسد، م.س، ص ٦٩٥.

(٤٠) حسب رواية أحد شهود عيان لنا (طلب عدم ذكر اسمه) فإنّ الاعتقال في صفوف أعضاء الجمعية كان كبيراً في مناطق الأكراد.

(٤١) مع اندلاع الثورة في آذار/مارس ٢٠١١ صار هذا المصطلح يشير إلى العصابات الإجرامية المنظمة التي استخدمها الأسد كقوات غير نظامية لقمع الثورة والتي نظمها الأسد عبر شركاء محليين في جميع أنحاء سورية بقيادة من المعرّمين وتجار المخدرات.

الأسد التصدي لها. لكن الجمعية خلفت وراءها عدداً من المتفيعين، وبعض المؤمنين الذين تسربت إليهم بعض فئات شيعية في أنحاء مختلفة من البلاد.

لقد شكّلت جمعية المرتضى أول نشاط تبشيري «شيعي» سياسي واسع النطاق مورس على الأراضي السورية تحت سمع النظام وبصره، لكنّه نشاط تبشيري لأغراض سياسية محلية، وليست إقليمية تتعلق بالمحور الإيراني أو هلاله الشيعي.

تشيع الطائفة العلوية

بقي العلويون في عزلة وعقائدهم توغل في كنف الأسرار والأساطير، ولم تدب اليقظة في الطائفة إلا مع مطلع القرن الهجري الثالث عشر (نهاية القرن التاسع عشر الميلادي)، وعند بدايات ظهور الدولة الوطنية^(٤٢)، إلا أنّ جذور اليقظة قد تعود إلى سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م عندما وقّع خمسة عشر من زعماء العشائر العلوية اتفاق «إلغاء العشائرية»^(٤٣)، بعد أن بقيت عهداً طويلاً في

(٤٢) أرّخ ليقظة العلويين الشيخ عبد الرحمن الخيّر، في سلسلة مقالات مهمّة للغاية في مجلة النهضة - التي كانت تصدر في مدينة طرطوس - بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨، ثمّ جمع المقالات ونشرها نجله هاني الخيّر في كتاب صغير مستقل عام ١٩٩٦ تحت عنوان: يقظة المسلمين العلويين. انظر الكتاب على الموقع:

< <http://alawi12.tripod.com/yaqaza.htm> >.

(٤٣) نصّ الوثيقة: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنّك رؤوف رحيم». الباعث تحريره في يوم تاريخه: قد حضرنا، الفقراء لله، طلبة العلم، المرقومة أسماؤهم أذناه، وقد اجتمعنا مع بعضنا البعض وحصلت المكالمات بيننا، حيث إنّنا عبيد الله ووعية الدولة العالية، وكلّ منّا قصده رضا ربّه، وقد اتفقنا واعتمدنا على خيرة الله تعالى وصرنا عشيرة واحدة، وصار صالح الدم والغيرة واحدة على حق الله تعالى؛ وإذا أحد منّا ادّعى على أخيه بدعوى من جميع =

صراع وتنافس مرير^(٤٤).

وشأن أي جماعة دينية عندما تريد الانخراط في العالم الجديد والخروج من عزلتها وفي الوقت نفسه تؤدّ أن تحافظ على هويتها فإنها تولّد حركات إصلاح ديني، هي في جوهرها حركة لمواجهة تحدّيات العصر والبحث عن أسباب البقاء والاستمرار. ولا نعرف بالضبط ما إذا شهدت الطائفة العلوية هذا النوع من الحركات من قبل، وتشير بعض الكتابات إلى أنّ حركة الإصلاح الديني هذه جديدة كلياً في الطائفة^(٤٥) الغارقة في سبات منذ قرون طويلة جداً.

=الدعوى يترافعان مع بعضهما البعض بالشرع الشريف، وكما يثبت ويحكم يجري العمل، ومن أتبع رأينا من عامّة الشعب له ما لنا وعليه ما علينا؛ فعلى هذا الوجه المشروع تمّ الرضا وحصل الاتفاق ممّا جميعاً برضانا واختيارنا، وتحزّر هذا السند لوقت الحاجة. تاريخ هذا السند: ١٢٧١هـ. الشيخ حبيب عيسى - متور، الشيخ صالح علي - الحداديات، الشيخ ديب الأحمد - البيري، الشيخ جابر عباس - الطليعي، الشيخ محمد يوسف - رأس الخشوف، الشيخ إبراهيم مرهج، الشيخ إسماعيل أوبين، الشيخ الحاج عبد العال الحاج، الشيخ حسين المسقس، عمران حمدان - الزاوي، الشيخ حسين أحمد - حمين، الشيخ يونس ياسين - بيت الشيخ يونس، الشيخ صالح عمران - الصومعة، الشيخ سليمان عباس - كاف الجبش، الشيخ إبراهيم السعيد - البهلولة.

أعدّ هذه الوثيقة ونشرها على الإنترنت سام محمد الحامد علي، نقلاً عن مخطوط كتاب للشيخ العلوي عبد الهادي حيدر بعنوان المراجعات، ج ٢، ص ٥٦٦، الذي يشير إلى أنّه عثر على هذه الوثيقة في بيت الشيخ العلوي يونس ياسين (في بلدة صافيتا). انظر الوثيقة على الإنترنت:

<<http://www.alaween.net/cms/modules/news/article.php?storyid=65>>.

(٤٤) حول الصراع والتنافس العشائري في القرن التاسع عشر، انظر: المنصف بن عبد الجليل، الفرقة الهامشية في الإسلام (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٤)، ص ١١٣ - ١١٤.

(٤٥) يشير عبد الرحمن الخيّر إلى أنّ «بدء الجمود [في الطائفة] كان في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة، حيث تكاد أعمال المؤلفين تقتصر في ذلك الحين وما يليه على إعادة وتكرير ما كتبه سابقوهم من العلماء، دون أن يضيفوا شيئاً يذكر». انظر: المصدر نفسه.

وعموماً فإنَّ حركات الإصلاح الديني تتجه غالباً لإخراج الجماعة من العقائد التي تتسبب بعزلها عن الجماعة الكبرى، وتدفعها ربما لتأويلها أو مذهبها بالتفسيرات العقلية، وإذا عجزت عن ذلك في بعض العقائد تبدأ بالتخلي عنها بطرق شتى تحت مسميات التقليد والخرافات والانحرافات عن العقائد الأصل. ومن المنطقي أن تكون أولى سبل التأويل إعادة الفرع العقدي إلى أصله، أو مقاربتة بأصله، وفي حالة العلوية (النصيرية) يعني - بالطبع - إعادة الطائفة إلى أصلها الشيعي الجعفري الإثني عشري، فمن الطبيعي إذاً أن يبدأ التفكير بالخروج من العزلة بأفكار تصب في النهاية في سلة الشيعة الجعفرية.

١ - عودة الفرع إلى أصله

هذا ما حصل ربما في الطائفة العلوية مع بدء ظهور مصلحين دينيين في نهاية القرن التاسع عشر، وبافتتاح أوّل مسجد في جبل العلويين «في بيت الشيخ يونس - صافيتا؛ الذي شرع في ابتناؤه كلّ من... الشيخ غانم ياسين والشيخ عبد الحميد أفندي - الذي نُسبت إليه آنئذ أعمال سياسية، فُنّي إلى طرابزون وتزوج منها وعاد مكرماً - ثمّ أتمّ الجامع المذكور... المرحوم الشيخ ياسين يونس والشيخ سليم الغانم سنة ١٢٨٦هـ [١٨٦٩م]. وقد قام المرحوم الشيخ ياسين - الآنف الذكر - بإمامة الجامع طيلة حياته، وخلفه ولده الولي العلّامة الشيخ محمّد ياسين»^(٤٦)، وذلك في وقت كان العلويون يمتنعون عن إعمار المساجد في جبالهم^(٤٧).

(٤٦) بُني بعده مسجدان في قضاء صافيتا: «مسجد الخضر» في قرية «تلة الطليعي»، والآخر في قرية «ضهر بشير»، انظر: المصدر السابق.

(٤٧) لم يكن لدى العلويين مساجد، فصلاتهم السريّة تقتضي الاختباء حتى من =

أخذت يقظة العلويين بالنمو حتى قام الشيخ علي عباس و«افتتح في أواخر الحرب الكونية [الأولى] مدرسة في قرية العنازة بانياس، جمعت أكثر من مائة وعشرين طالباً وستة معلمين كلهم علويون»^(٤٨)، درس فيها أصول الدين واللغة. بدأت في هذه الفترة - على ما يبدو - تصعد أفكار الإصلاح الديني باتجاه الفكر الشيعي الإمامي؛ ففي فتوى لأحد زعماء الطائفة العلوية الكبار (وهو من المنخرطين في الإصلاح الديني) الشيخ سليمان الأحمد^(٤٩) في مسألة جواز الجمع بين البنت وعمتها أو خالتها في ذمة رجل واحد^(٥٠)، يُلاحظ في الفتوى - التي صدرت في أوائل العشرينيات المنصرمة - ثلاثة أمور غاية في الأهمية: أولها التأكيد على أنَّ

= ذريهم وزوجاتهم وأولادهم، والجوامع باعتبارها إعلاناً للعبادة ونقضاً لسريتها، لم تكن جائزة في عقائد الطائفة، وهذا يعني أنَّ بناء الجوامع جاء استناداً إلى تأثير خارجي، سيتبين فيما بعد أنَّه كان شيعياً جعفرياً.

ومن الطريف أن يعزو أحد شيوخ العلويين عدم بناء المساجد والجوامع عند العلويين (النصيريين) إلى «الفقر، والاهتمام بالعمل مما يمنع من التردد على المساجد»! انظر: عبد اللطيف سعود، «العلويون شيعيون»، مجلة النهضة (عدد خاص عن العلويين) (طرطوس)، العدد ٨ (تموز/ يوليو ١٩٣٨)، نقلاً عن: ابن عبد الجليل، الفرقة الهامشية في الإسلام، ص ١٨٢.

(٤٨) هاني الخير، يقظة المسلمين العلويين (دمشق: يقظة الشرق الجديد، ١٩٩٦)، ويضيف الخير أنَّه: «ولأسباب قاهرة لم تعمر - مع الأسف - تلك المدرسة إلا عامين فقط».

(٤٩) الشيخ سليمان الأحمد، لغوي وعالم دين علوي، من كبار شيوخ الطائفة، درس الفقه على يد الداعية الشيعي الكبير عبد الحسين شرف الدين الموسوي (صاحب الكتاب التشييري، المراجعات). كان عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق، وهو والد الشاعر السوري المعروف «بدوي الجبل».

(٥٠) نصّ الوثيقة كاملاً ورد في بيان شيوخ العلويين الشهير: المسلمون العلويون... شيعة أهل البيت (ع) (طرابلس، لبنان: دار الصادق، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م)، ص ١٢.

المذهب الإمامي الجعفري «هو الأصل»، والطائفة العلوية «فرع منه»، وعليه فإن رجوع الطائفة إليه «في أصول الفقه وفروعه هو الواجب الحق الذي لا مندوحة عنه».

وثانيها أن هذا التأكيد على هذه العودة للأصل الشيعي يبدو بدعة جديدة ابتدعتها الإصلاحيون الدينيون؛ فثمة تأكيد على ضرورة الصلة بين المذهب الشيعي والعلوية؛ إذ كان سبب الانقطاع «بواسطة السياسة من مئات السنين، حتى انتبه إليها في عصرنا هذا»؛ أي إن فكرة العودة للأصل جديدة كلياً حتى ذلك الوقت.

وثالثها أن مرجعية العلويين الفقهية - أو بتسمية الشيخ الأحمد «الإرث وآداب الشريعة» - حتى ذلك الوقت كانت «أهل السنة؛ بحكم الوقت والأحوال والرخصة المعطاة لهم من أئمتهم حسبما يسمح به التأويل» على حدّ تعبيره.

في هذا المناخ الذي تهبّ عليه رياح الإصلاح الديني نشأ عبد الرحمن الخير^(٥١)، الذي أسّس (مع بعض أصدقائه) في عام ١٩٢٥م «جمعية اللاطائفية» كجمعية إصلاحية «لمكافحة التعصب العشائري والعزلة الاجتماعية، ومعالجة حالات الجهل والفقر والحرمان التي خلفتها العهود من ظلم المتسلطين، وتجاوزهم بحق أبناء الطائفة»^(٥٢).

(٥١) الشيخ عبد الرحمن الخير والده الشيخ محمد ديب الدرويش الخير كان من كبار شيوخ الطائفة في قرية القرداحة، وعمّه أحمد ديب الخير، قاضي قضاة الطائفة أواخر الدولة العثمانية، تتلمذ على يد الشيخ علي عباس، ودرّس في مدرسته، كما تأثر بشكل خاص بأستاذه الشيخ سليمان الأحمد كما سبق وأشرنا من قبل، ويعتبر الخير أبرز الشيوخ العلويين الذين جاهدوا لإعادة الفرع النصيري إلى أصله الشيعي الإثني عشري.

(٥٢) انظر موقع «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب»، صفحة من رواد التقريب، على الوصلة:

< <http://www.taghrib.org/arabic/rowad/alkher.htm> >

٢ - الديانة في دولة العلويين المستقلة

كانت حركة الإصلاح العلوي الدينية قد بدأت تستقطب عدداً من مثقفي وعلماء الدين من نخبة المجتمع العلوي؛ ففي عام ١٩٣٦ وقّع عدد من رجال الدين العلويين بياناً هو الأول من نوعه؛ إذ يوضح في بندين عقيدة العلويين بأنها عقيدة إسلامية: «البند الأول: كلّ علوي فهو مسلم، يقول ويعتقد بالشهادتين، ويقيم أركان الإسلام الخمسة. البند الثاني: كلّ علوي لا يعترف بإسلاميته، أو ينكر أن القرآن كتابه وأنّ محمّداً ﷺ نبيّه، لا يعد في نظر الشرع علوياً، ولا يصح انتسابه للمسلمين العلويين»^(٥٣). وهذا البيان لم يصرح أبداً بشيعة العقيدة العلوية، وإنّما كان حريصاً على إسلاميته، وفيه مغازلة واضحة للمسلمين السُنّة، بالتأكيد على «الشهادتين»، و«أركان الإسلام الخمسة».

ويبدو أنّ هذا البيان جاء في سياق الخلاف داخل الطائفة حول فكرة «الدولة العلوية» التي أراد الفرنسيون إنشاءها؛ ففي مقابل إثبات إسلامية العلويين، وفي إطار تصاعد التيار الديني المتنامي والمنجذب نحو الشيعة، كان ثمة توجّه لدى بعض الشيوخ والزعامات النصيرية القويّة للنأي بالطائفة عن الإسلام ذاته كدين بالكامل، واعتبار النصيرية ملّة وأقلية دينية مستقلة، رغبة في دعم الفرنسيين لهم في إقامة دولة مستقلة. كان هذا واضحاً في العريضة التي قدّمها قادة نصيريون إلى رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم في ١٥ حزيران/يونيو ١٩٣٦، والتي يدعون فيها إلى استقلال العلويين بدولة خاصّة بهم، وجاء فيها أنّ «الشعب العلوي - الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة، بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في

(٥٣) من نصّ بيان: المسلمون العلويون، م.س، ص.٩.

النفوس - هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم [السني]»^(٥٤).

بعد ما يزيد على شهر تقريباً من تاريخ توقيع هذه العريضة، وتحديدأ في ٢٧ تموز/ يوليو ١٩٣٦: رفع رجال دين وزعماء عشائريون علويون عريضة إلى وزارة الخارجية الفرنسية يحتجون فيها على التبشير المسيحي الذي يقوم به الآباء اليسوعيون في أوساط العلويين بدءاً من عام ١٩٣٠، باعتبار أن «هذه الحوادث التبشيرية - التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان - إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث - وهنا موضع استيائنا وعليه احتجاجنا - هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير وشراء ضمائر ضعيفة، كما تُشتري السلع لتمرُق من دين إلى دين آخر»^(٥٥)، ويطالبون بالوحدة

(٥٤) وثيقة محفوظات الخارجية الفرنسية رقم ٣٥٤٧، تاريخ ١٥/٦/١٩٣٦. الموقعون: محمد سليمان الأحمد، محمود آغا حديد، عزي آغا غواش، سلمان المرشد، محمد بيك جنيّد، سليمان الأسد.

(٥٥) وقع الوثيقة أكثر من ٥٠ شخصاً من وجهاء ورجال الدين المسيحيين، إضافة إلى بعض السياسيين شخصاً من الوجهاء والسياسيين ورجال الدين المسيحيين، إضافة إلى بعض السياسيين السُنّة؛ وهم: حليم بشور (من الأعيان المسيحيين)، أسعد هارون (عضو البلدية، وزعيم الشباب الوطني)، الدكتور ميخائيل بشور (عضو سابق بالجمعية التأسيسية)، الدكتور إسكندر بشور، نقولا بشور، إسبر بشور، عزيز عرنوق، إسبر الطيار، رفيق البيطار، زاهي عرنوق، إبراهيم خوري، الأب يوسف بطرس، الأب إسطفان سابا، سليمان شدياق، عبد الله روفائيل، الأب موسى ديب، ياخوس عركوش، عبد الواحد هارون (زعيم سُنّي ونائب سابق في البرلمان العثماني)، محمود عبد الرزاق (نائب)، فايز إلياس (نقيب المحامين)، عبد القادر شريط (زعيم سُنّي ونائب سابق).

م محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - سورية ولبنان، مج ٤٩٢ - ٤٩٣ «برقية المطالبين بالوحدة مع سورية في منطقة العلويين مرسلة من اللاذقية في ٢ تموز ١٩٣٦».

وقد ذكر بيان المسلمون العلويون... شيعة أهل البيت (ع)، ص ١٠ - ١١، مقاطع من هذه الوثيقة دون تاريخ ولا توضيح، وينسب للوثيقة مقطعان لم نجدهما في نسخة الوثيقة =

السورية، ويؤكدون فيها بأنَّ «العلويين شيعة مسلمون، وقد برهنوا طوال تاريخهم عن امتناعهم عن قبول كل دعوة من شأنها تحوير عقيدتهم، فهم يحتفظون بشدة بالعقيدة الشيعية الإسلامية»^(٥٦). كان هذا التصريح الجماعي هو الأول من نوعه في تاريخ الطائفة النصيرية، وقد جاء هذا البيان وسابقه في سياق معترك سياسي وانشقاق بدأ يذب داخل الطائفة بسبب قضية استقلال العلويين في دولة وخيار الانضمام للدولة الوطنية على مشارف خروج الاحتلال الفرنسي^(٥٧).

= التي استطعنا الوصول إليها، وهما: «إنَّ العلويين ليسوا سوى أنصار الإمام علي - عليه السلام - وما الإمام علي سوى ابن عم الرسول (ﷺ) وصهره ووصيه، وأول من آمن بالإسلام، ومن مكانه في الجهاد والفقه والدين الإسلامي مكانه، وإنَّ القرآن الكريم هو كتاب العلويين»، والمقطع: «وما العلويون سوى أحفاد القبائل العربية التي ناصرت الإمام علياً - عليه السلام - فوق صعيد الفرات».

كما أنَّ هذا البيان (المسلمون العلويون) يذكر - قبل هذه الوثيقة - أنَّ قضاة الطائفة العلوية سبق وأن ردوا على رغبة الفرنسيين في أن يكون للمحاكم المذهبية العلوية تشريع خاص مبين للتشريع الإسلامي، فرفض القضاة العلويون ذلك، وأعلنوا أنَّهم مسلمون، وتشريعهم إسلامي جعفري. ممَّا اضطر الفرنسيين للتراجع عن فكرتهم وجعل القضاء في الأحوال الشخصية للعلويين على الفقه الشيعي الجعفري.

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) في ٢٢ تموز/ يوليو من عام ١٩٢٢ أعلنت الدولة العلوية ضمن اتحاد سورية الفيدرالي، وفي مطلع عام ١٩٢٤ صدر قرار بإلغاء الاتحاد وإبقاء دولة العلويين مستقلة، وأصبحت تعرف بـ «دولة العلويين المستقلة». كان إنشاء دولة علوية مستقلة مطلباً علوياً صريحاً؛ ففي نص القرار الذي أصدره الجنرال غورو (H. Gouraud) يذكر «لما كان النصيرية قد صرحوا جلياً ومراراً بأمالهم بأن يكون لهم إدارة قائمة بذاتها تحت رعاية فرنسية؛ لأجل ذلك يجب أن تنشأ مقاطعة تجمع أكثرية هؤلاء لتتيح لهم أن يواصلوا السعي في سبيل مصالحهم السياسية والاقتصادية، تحقيقاً للأمني التي صرَّحوا بها». انظر:

حسن الحكيم، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي

الفيصلي والانتدابي الفرنسي، ١٩١٥ - ١٩٤٦ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٤)، ص ٢٤٥ =

وفي عام ١٩٣٨ وقّع أحد عشر من رجال الدين العلويين وشخصياتهم البارزة جواباً على سؤال عن عقيدة العلويين، جاء فيه - على لسانهم - أن «مذهبنا في الإسلام هو مذهب الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام)»^(٥٨)، وهذه الوثيقة

= الوثيقة الرقم ٤٣، نقلاً عن: ابن عبد الجليل، الفرقة الهامشية في الإسلام، م.س، ص ١١٩.

وعندما شعرت الطائفة النصيرية بأن سورية مقبلة على الاستقلال، وأن الفرنسيين سيغادرون (ومن دون الفرنسيين لن تستمر «دولة العلويين المستقلة» التي لا تمتلك مقومات الدولة أساساً) قرّر العلويون الطلب من فرنسا إلحاق الدولة العلوية بلبنان لا بسورية! ففي عريضة رفعها «المجلس التمثيلي النصيري» إلى وزير خارجية فرنسا في ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٣٦: «نحن نرفض رفضاً قاطعاً أي اندماج بسورية، نحن نطالب باستقلالنا تحت وصاية فرنسا (..)، إننا متمسكون بشدة بقرارنا بمقاومة الهيمنة السورية بكل السبل، وحتى بالقوة. وستكون فرنسا مسؤولة عن الدماء التي ستسيل. وإن كان استقلالنا مستحيلاً دولياً؛ فإننا نوافق على التباحث مع لبنان حول اتحاد يضمن استقلالنا الذاتي الكامل تحت حماية فرنسا». انظر:

Archive du Ministère des Affaires Etrangères: Levant, Syria-Liban, 1930-1940, vol. 493, p. 8.

نقلاً عن: ابن عبد الجليل، الفرقة الهامشية، م.س، ص ١٢١.

وعندما ضُمَّت الدولة العلوية للأراضي السورية وأصبحت محافظة من محافظات الدولة السورية في ١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٣٧ أصبح العلويون مضطربين للانضمام للأكثرية في وجه الاحتلال!

(٥٨) نُشرت الوثيقة في مجلة المرشد العربي التي كان يصدرها الشريف عبد الله آل علوي الحسيني، ابن الأمير الشريف حسن بن فضل باشا (أمير ظفار) من مطبعة الإرشاد في اللاذقية، عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

انظر هذه الوثيقة أيضاً في مقدمة محقق كتاب: الخصيبي، الهداية الكبرى، م.س، ص ١٩، وقد ورد هذا النص بجملته في بيان المسلمون العلويون... شيعة أهل البيت (ع) (م.س، ص ١٠)، ويشير البيان إلى أن ما كتب في هذه المناسبة جمع ونشر أكثره الشريف عبد الله آل الفضل في كتيب عنوانه «تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وطبع في مطبعة الإرشاد باللاذقية سنة ١٣٥٧هـ، ولعلّه نشره في كتيب بعد أن نشره في المجلة في العام نفسه.

التاريخية تمثل ثاني بيان جماعي يُعلن فيه زعماء دينيون علويون انتساب الطائفة العلوية النصيرية إلى الشيعة الجعفرية^(٥٩)، وهو بمنزلة إيذان بانتشار الدعوة الشيعية وتحولها إلى ظاهرة في الطائفة، وهو ما جعل الطائفة ترسل بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ بضعة عشر طالباً للدراسة في حوزة النجف وتعلم الفقه الجعفري^(٦٠).

٣ - الظاهرة

انتشار دعوة الأصل الشيعي والعودة للأصل في أوساط العلويين بلغت حداً دفع بالشيخ عبد الرحمن الخير^(٦١) - الذي نشط في بناء المساجد والحسينيات - إلى تأسيس «الجمعية الخيرية الإسلامية الجعفرية» في اللاذقية سنة ١٩٥٠، والتي ستكون قاعدة فيما بعد للنشاط الشيعي الجديد في الطائفة، في عهد حافظ الأسد وما بعده.

(٥٩) في العام نفسه صدرت عدّة وثائق جماعية بعد هذه الوثيقة، منها ردّ عدد من رجال الدين في الطائفة العلوية في بلدة صافيتا على مقال نُشر في صحيفة النهار، يتعرض لعقائد الطائفة. نشر الرد في ٣ آب/أغسطس ١٩٣٨ في الصحيفة نفسها، وأصدر زعماء علويون بياناً تعقيباً على هذا الموضوع نفسه، استمدوا فيه تعبيرات الفتوى السالفة، نشرته جريدة النهار أيضاً في العدد ١٤٥٤ (آب/أغسطس ١٩٣٨). انظر نص البيانين. في مقدمة المحقق لكتاب: الخصيبي، الهداية الكبرى، م.س، ص ٢٠ - ٢٣.

(٦٠) عبد الرحمن الخير، عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين للجعفرين العلويين (دمشق: د.ن، ط ٣، ١٩٩٢)، ص ٧٣.

(٦١) ولد عبد الرحمن الخير في القرداحة عام ١٩٠٤، درس الفقه الجعفري، وتلمذ على يد الشيخ سليمان الأحمد (عضو المجمع اللغوي العربي بدمشق)، وتوفي عام ١٩٨٦. انظر ملخص سيرته الذاتية في: المصدر السابق نفسه، ص ١٠٣.

وخلال عام ١٩٥٢ وبعد مناقشات طويلة ومراجعات لشيخ من الطائفة مع المفتي العام استمرت ٢٠ يوماً في دمشق استصدر العلويون مرسوماً تشريعياً^(٦٢) رقم ٣ في ١٥ حزيران/يونيو، ينص على تأليف «لجنة خاصة بالجعفرين من علمائهم في مركز محافظة اللاذقية قوامها ثلاثة أشخاص من العلماء الجعفرين، ويضاف إليهم شخص واحد من كل قضاء عندما يتعلق البحث في قضائه»، وقراراً من مفتي الجمهورية السورية (رقم ٨) في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٥٢. وتألّفت اللجنة بموجب هذا المرسوم من علماء الطائفة العلوية، وقامت بفحص من تقدم إليها من شيوخ جعفرين، وأجازت بعضهم وسمحت لهم بارتداء الكسوة الدينية المنصوص عليها في المرسوم التشريعي.

بدأ المصلحون الدينيون العلويون المنشدون بقوة لفكرة الأصل الشيعي ينسجون علاقاتهم مع المراجع الدينية الشيعية، وقد جذبت هذه العلاقات المراجع الشيعية في العراق وإيران لاستكشاف

(٦٢) نص المرسوم: «إنَّ رئيس الدولة بناءً على الأمر العسكري رقم ٣، المؤرخ في ٣/٣/١٩٥١، وبناءً على المرسوم التشريعي رقم ٢٥٧ بتاريخ ٨ حزيران/يونيو عام ١٩٥٢، وبناءً على قرار مجلس الوزراء رقم ٣/ تاريخ ١٤/٦/١٩٥٢، وبناءً على المرسوم التشريعي رقم ٢٣/ المؤرخ في ٢ ربيع الثاني هجرية/ ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥١م، وعلى وجوب عدد كبير من أهالي محافظة اللاذقية على المذهب الجعفري، وعلى اقتراح المفتي العام، رسم ما يلي: المادة الأولى: يضاف إلى المادة الثالثة من المرسوم التشريعي رقم ٣٣ الفقرة التالية: تؤلف لجنة خاصة بالجعفرين من علمائهم في مركز محافظة اللاذقية قوامها ثلاثة أشخاص من العلماء الجعفرين ويضاف إليهم شخص واحد من كل قضاء عندما يتعلق البحث في قضائه. ويسمى أعضاء هذه اللجنة بقرار من المفتي العام من العلماء الأكفاء، مهمتها فحص حالة متدينين بالكسوة الدينية على المذهب الجعفري والذين يرغبون ارتداء هذه الكسوة وإقرار من يحق لهم الاحتفاظ بها ومن يمنح تتحقق اللجنة من أنه دخيل على سلك رجال الدين من ارتدائها. المادة الثانية: ينشر هذا المرسوم التشريعي ويبلغ من يلزم. دمشق في ١٥ حزيران/يونيو عام ١٩٥٢ - الزعيم فوزي سلو».

الحركة الدينية الجديدة في جبل العلويين (النصيريين)، وقد يكون أوائل رجال الدين الذين زاروا الجبل واطلعوا على أحوال الطائفة الشيخ محمد جواد مغنية سنة ١٩٦١ (رجل الدين الشيعي اللبناني المعروف)، والذي تحدّث لمرجعه آية الله السيد محسن الحكيم - بعد زيارته - عمّا شاهد ولمس من «المصلحين»، و«عن المصلّين والمؤمنين حقاً بكل ما في معنى الإيمان [الشيعي] الصحيح»^(٦٣).

في الفترة بين ٣ - ٧ شعبان ١٣٩٢/ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢ زار رجل الدين الشيعي حسن الشيرازي - المبشر الأصولي الذي سيكون له فيما بعد دور تاريخي في التشيع العلوي - لأول مرة جبل العلويين «على رأس وفد من العلماء، بأمر من سماحة الإمام المجدّد المرجع الديني... السيّد محمّد الشيرازي (دام ظله)»^(٦٤)، وذلك لـ«إجلاء الهوية الدينية للعلويين، مساهمة منه في إزاحة الضباب التاريخي الذي يلفّهم»^(٦٥)، فقد كان «منذ توليه مقام

(٦٣) من نص رسالة مؤرخة في ٢٣/٤/١٩٦١ أرسلها لشيخ الطائفة سليمان الأحمد، تحدّث فيها مغنية عن زيارته للجبل. انظر الرسالة في: محمد حسن بادياني النيسابوري، العلويون هم أتباع أهل البيت: فتاوى مراجعهم وشرح نص بيانهم (بيروت: دار الإرشاد، [د. ت. د.])، مج ١، ص ١٣٠. وقد نشر إلكترونياً نص هذه الرسالة سام محمد علي الحامد، على موقع «العلويون أونلاين»:

< <http://www.alaweenonline.com/site/modules/news/article.php?storyid=142> >.

(٦٤) ويضيف الشيرازي: «فالتقيت بجماعة من أفاضل علمائهم ومثقفهم، وجموع من أبناء المدن والقرى في جوامعهم ومجامعهم». انظر مقدمة الشيرازي لبيان: المسلمون العلويون، م. س، ص ٣.

(٦٥) مقابلة مع حسن الشيرازي، صحيفة الحياة (لندن)، ١٦/٦/١٩٧٣. والنص التالي هو الجزء الأهم من هذه المقابلة: «[الحياة]: لقد تبَيَّنَت قضية العلويين منذ سنوات، فهل يمكن أن نعرف الدافع إلى ذلك؟ [الشيرازي]: لا بد من الإجابة عن هذا السؤال بشيء من التبسيط؛ فسماحة أخي المرجع السيد محمّد الشيرازي منذ توليه مقام المرجعية كان يفكر في قضية العلويين باعتبارهم جزءاً من العالم الشيعي الذي يشعر بمسؤولية عنه، =

المرجعية (...). يفكر في قضية العلويين، باعتبارهم جزءاً من العالم الشيعي الذي يشعر بمسؤولية عنه»^(٦٦).

التقى الشيرازي بعدد من شيوخهم^(٦٧)، وفي ٢٤ شعبان ١٣٩٢هـ اجتمع عدد كبير من شيوخ العلويين (٧٤ سوريون، و٦ لبنانيون) بتحريض من الشيرازي وقرروا إصدار بيان^(٦٨) ينسب العلويين للشيعة الجعفرية الإثني عشرية، ويؤكد على أن «التسمية (الشيعي والعلوي) تشير إلى مدلول واحد، وإلى فئة واحدة هي الفئة الجعفرية الإمامية الإثنا عشرية». طُبع البيان في طرابلس لبنان بعد ثلاثة أشهر من هذا الاجتماع، (في ذي القعدة ١٣٩٢هـ/ الموافق لكانون الثاني/ ديسمبر من عام ١٩٧٢م)، وقدم له الشيرازي بفتوى تتضمن أيضاً التصريح بأن العلويين شيعة^(٦٩).

بعد خمسة وثلاثين عاماً من آخر بيان أصدره زعماء دين علويون يوضحون انتماءهم فقهياً وعقدياً للشيعة الجعفرية، يأتي هذا البيان - شأن عريضة ٢٧ آب/أغسطس ١٩٣٦ للخارجية الفرنسية - في سياق معترك سياسي للطائفة. فقد كان الحديث عن الطائفية في

= وقد كُلفني منذ ثلاث سنوات [١٩٧٠] إجلاء الهوية الدينية للعلويين، مساهمة منه في إزاحة الضباب التاريخي الذي يلفهم (...). فالاضطهاد الذي عانوه - كما عانته بقية الشيعة في العالم - على مدى ثلاثة عشر قرناً لم يكن اضطهاداً سياسياً فحسب، وإنما كان اضطهاداً فكرياً أيضاً، وهذا ما جعلنا شركاء في المحنة، ومسؤولين جميعاً عن الاشتراك في إزالة أسباب المحنة سياسياً وفكرياً.
(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) انظر مقدمة الشيرازي لبیان المسلمون العلويون، م.س، ص ٣.

(٦٨) صدر البيان في كانون الثاني/يناير ١٩٧٣ عن دار الصادق، بطرابلس - لبنان.

(٦٩) انظر مقابلة لموقع «الشيرازي». نت، الموقع الرسمي للمرجع الشيرازي وأخويه، مع تلميذه الأفغاني «محمد علي العلوي». انظر المقابلة على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/legaat/legha/shahid/008.htm> >.

أوجّه مع بداية عهد حافظ الأسد، الذي كان قد مارس علوّة ممنهجة للسلطة والجيش والحزب، وقد بدأ الحديث يدور فيه عن استفتاء لدستور جديد للبلاد، وكان الدستور حتى ذلك الوقت (قبل طرح مسودة الدستور الجديدة) يشترط أن يكون رئيس الجمهورية مسلماً، وبما أنّ العلوية في الفقه الرسمي لكل من السُنّة والشيعة «كفاراً» وليسوا مسلمين، فقد أُصدر هذا البيان في سياق الدفاع عن موقع الطائفة وامتيازاتها في الرئاسة (والسلطة تالياً) لمواجهة الحظر الدستوري.

وهذا بالضبط ما كان يقصده أرباب هذه «الوثيقة» حين قالوا في مقدمتها: «نحن اليوم حرصاً منا على تمتين الصلات بإخواننا في الدين والوطن، ووقاية لهم من الانخداع بما يدسه أعداء العروبة والإسلام، ويرجف به المفترون والحاقدون من شائعات تفرق وتهدم بما توقظ من فتن»^(٧٠).

وثمة ملاحظتان مهمتان في البيان: أولاًهما أنّه أسهب وبشكل لافت للنظر، ولأول مرة في شرح العقائد - التي أجملها من قبل بوضع كلمات - كما لو أنّه مختصر لكتاب تعليمي للعقائد الجعفرية الإمامية، إلى الحد الذي ضمن فيه ذكر أسماء الأئمة الإثني عشر جميعاً، بل حتى عدد ركعات الصلوات الواجبة والمستحبة!!

الملاحظة الثانية أنّ البيان ذكر توضيحاً لمصادر التشريع، فكانت مصادر التشريع أربعة: «القرآن، السُنّة، الإجماع، العقل»؛ وهذه المصادر ليست شيعية ولا سنيّة! بل هي تلفيق بين المصادر السنيّة والشيعة؛ فمن جهة تتجاهل هذه الوثيقة المصدر الشيعي

(٧٠) بيان المسلمون العلويون، م.س، ص.٨.

الأبرز «قول المعصوم» (النبي ﷺ) ومن بعده من الأئمة الإثني عشر) وتكتفي بالسُّنة (ما ينسب للنبي وحده)؛ ومن جهة أخرى تذكر الإجماع كمصدر تشريعي، وهو مصدر سنِّي وليس شيعياً! فالفقه الشيعي لا يعدّه مصدراً، والدلالة الوحيدة لهذه الملاحظة هي أنَّ البيان لم يكتب لتوضيح العقائد وإنما لإرضاء الأكثرية السُّنَّية، ويبدو أنَّ السيد حسن الشيرازي هو الذي أقنعهم بتضمينها في البيان؛ فالشيرازي يعرف جيداً أنَّ «الإجماع» السنِّي كان المستند السنِّي الأبرز لإخراج الشيعة من دائرة «أهل السُّنة والجماعة»، وأحياناً من الجماعة المسلمة ذاتها.

يضاف إلى ذلك ملاحظة ثالثة، وهي أنَّ قائمة موقعي البيان ضُمَّت اسم ٧٤ زعيماً ورجل دين من العلويين السوريين وستة من اللبنانيين، وهي أول قائمة تتضمن هذا العدد الكبير. وإذا كنا لا نشك بالدافع السياسي للبيان، فإنَّ دلالة كثرة الأسماء تعني - فيما تعنيه - اتساع تيار الإصلاح الديني المندفَع إلى الأصل الشيعي العلوي في الجبل^(٧١).

كما أنَّه - ومن جهة أخرى - تشير قائمة الموقعين إلى أنَّ عدد المساجد والجوامع العلوية يزيد على ١٣ مسجداً وجامعاً كان خطبائها وأئمَّتها من موقعي البيان.

٤ - التشيُّع العلوي: من الظاهرة إلى التيار

نشط الملا حسن الشيرازي - منذ ذلك الحين وحتى تاريخ

(٧١) انظر أيضاً ملاحظات بعض العلويين على البيان، تحت عنوان: «مع بيان علماء العلويين»، على الرابط:

< <http://www.alaweenonline.com/site/modules/news/article.php?storyid=23> >.

مقتله سنة ١٩٨١ - في الجبل العلوي بشكل لم يسبق له مثيل من نشاط الملاي الشيعة (الإيرانيين أو العراقيين) على الأراضي السورية؛ فإضافة إلى الدروس والمحاضرات التي كان يحرص على إلقائها ولا يدع مناسبة دينية واجتماعية للطائفة إلا ويشارك فيها، فقد قام - وبمساعدة بعض شيوخ الطائفة المتحمسين لعودة الفرع العلوي إلى شيعيته (من أمثال الشيخ فضل غزال) - ببناء بعض المساجد والحسينيات في اللاذقية ومنطقة الساحل السوري، كان أولها ربما «مسجد الإمام الحسن العسكري» (١٩٧٨م) الذي اشترى عقاره الشيخ الشيرازي بنفسه، ولا يزال باسمه إلى اليوم في السجل العقاري في مدينة اللاذقية (حي الزرقانية). واختيار اسم المسجد له دلالة الرمزية الخاصة بالنسبة إلى الطائفة العلوية؛ فأبو شعيب محمد بن نصير (الذي تُنسب إليه الطائفة) هو تلميذ «الإمام الحسن العسكري» وأحد أصحابه. ومسجد «الإمام الحسن المجتبي» في قرية البلاطة (ناحية صلنفة)، و«المسجد الجامع» (في قرية حكر)، و«مسجد الخضر» (في قرية أوبين)، ومسجد «فاطمة الزهراء» (في حمص)، ومسجد «الإمام الحسين» (في صافيتا)، ومسجد «الإمام الرضا» (في جبلة). وأسّس الشيرازي حسينيات عديدة في المدن والقرى منها الساحلية، ومنها حسينية في بانياس، وأخرى في حمص (٧٢).

(٧٢) انظر: مقابلة مع الشيخ ذو الفقار فضل غزال، موقع الشيرازي. نت، بتاريخ ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠٥، على الرابط:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat/legha/shahid/005.htm> > .

وانظر أيضاً مقابلة مع الشيخ حسين الشريف، موقع الشيرازي نت، بتاريخ ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٦، على الرابط:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat/legha/shahid/0023.htm> > .

وبلغ احتفاء الشيرازي وتحمُّسه لتشجيع الطائفة العلوية حداً جعله يؤسّس حوزة علمية في مسجد «الإمام جعفر الصادق» الذي يقع في مقرّ «الجمعية الجعفرية» (التي كان قد أسَّسها الشيخ عبد الرحمن الخيّر سنة ١٩٥٠) في مدينة اللاذقية، باسم «حوزة الإمام الصادق»، وذلك بعد تأسيسه للحوزة الزينية، لتكون قاعدة تبشيرية في الساحل السوري، وربط بين الحوزتين بحيث إنّ خريجي هذه الحوزة الجديدة ينتقلون إلى الحوزة الزينية لإكمال دراستهم في مستويات أعلى. استمرت هذه الحوزة بضع سنوات، ودرس فيها مجموعة من خطباء المساجد، لكن الشيرازي عدل عن الفكرة، ويبدو أنها لم تكن مجدية كما كان يأمل، فالعلويون لم يهبوا أفواجاً إلى مذهب الإمام جعفر الصادق!

يحظى الشيرازي باحترام خاص لدى التيار الشيعي في الطائفة العلوية؛ فهم يرون أنّه أدّى دوراً مهماً في تبييض صورة العلويين لدى الشيعة وعموم المسلمين، وساعد الطائفة على إخراجها من عزلتها^(٧٣)، فقد عمل الشيخ ميدانياً مع أبناء الطائفة ولم يكتفِ بالتصريحات والبيانات.

يذكر بعض الباحثين أنّه في لقاء لأعيان في الطائفة العلوية في القرداحة، وتحديدأ في صيف عام ١٩٨٠، اتُّخذ قرار بإرسال قرابة

(٧٣) بتعبير الشيخ ذو الفقار فضل غزال: «عندما كنا في هذه الجبال تعرّضنا للظلم وللاضطهاد وللقتل والذبح، وفتاوى التكفير التي تأتي يمنة ويسرة غيّبتنا عن المسلمين، وغيّبت المسلمين عنا، فكان همّه قدّس سره الأول أن يعيدنا إلى الخط الذي كنّا عليه، وكان لا يألو جهداً في إظهار هذه الصورة الحضارية عن إخوانه هنا، وعن إبراز الهوية الشخصية لنا التي تثبت إسلامنا وعقيدتنا كمسلمين في صميم الإسلام» (المصدر السابق نفسه).

خمسمئة شاب من العلويين للدراسة في المعاهد الدينية في حوزات مدينة قم الإيرانية، ليتخصصوا في المذهب الجعفري^(٧٤)، وكان يخطط في تلك الفترة لتشكيل تحالف شيعي إقليمي إثر نجاح الثورة الشيعية في إيران، وسواء صحّت هذه الرواية أم لا، فإنّه من المؤكد أنّ عدداً غير قليل من شباب العلويين المتدينين ذهبوا للدراسة في قم والنجف، وتخرجوا هنالك، منذ السبعينيات، ومنهم اثنان من موقعي بيان «المسلمون العلويون... شيعية أهل البيت (ع)»^(٧٥)؛ أي في مطلع سنة ١٩٧٣. كما أنّ السيّد الشيرازي كان قد بدأ منذ اتصاله بالعلويين بتشجيع وترغيب وإرسال النابهين العلويين للدراسة في قم^(٧٦).

(٧٤) انظر: سورا، سورية، م.س، ص ٨٨. يشير إلى أن العدد هو ٢٠٠ طالب، والرقم المذكور في: محمد أبو رمان، «التشيع في الأردن: ظاهرة يغذيها حزب الله»، صحيفة الغد (الأردن)، ٢٠٠٦/١٠/٤.

ونشير هنا إلى أنه لم يكن بإمكانهم الذهاب إلى النجف بعد قطع العلاقات مع العراق في بداية عهد صدام حسين.

(٧٥) هما: الشيخ محمود مرهج من قرية بحنين طرطوس، وهو مجاز من النجف الأشرف، والشيخ فضل غزال من قرية تلا قضاء الحفة، وهو مجاز من كلية الفقه في النجف الأشرف. والشيخ فضل غزال عُيّن إماماً لـ «مسجد ناعسة»، وهو المسجد الكبير الذي بناه الأسد في مدينة القرداحة وسماه باسم والدته، وافتحه في مطلع التسعينيات، وفيه صُلّي على نجله باسل إثر وفاته بحادث سير مروع عام ١٩٩٤، وتعرّف السوريون على الشيخ فضل غزال الذي ظهر في شاشة التلفزيون السوري لأوّل مرة في تلك الحادثة، على الرغم من أنّه أقصي عن أداء الصلاة على نجل الأسد بأمر من الرئيس نفسه؛ فالأسد قرّر - ولتوازنات طائفية - أن يؤمّه شيخ سنيّ، كان هذا الشيخ السنيّ هو شيخ بلاط الأسد محمّد سعيد رمضان البوطي، المفكر الإسلامي السوري الكردي الدمشقي المعروف.

(٧٦) الشيخ إبراهيم حسن النجار (أحد العلويين المؤسسين للجمعية الجعفرية في اللاذقية سنة ١٩٥٠، وأحد موقعي بيان ١٩٧٣)، مقابلة أجراها معه موقع الشيرازي. نت بتاريخ ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، انظر المقابلة على الرصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat/legha.htm> >.

ومن الطبيعي أنَّ الأفكار التي عاد بها هؤلاء كانت شيعية صرفة أو شيعية ملفقة بالنصيرية، وكان الشيخ فضل غزال، كما الكثيرون من شيوخ تيار عودة الفرع إلى أصله - وحسب أحد تلامذته^(٧٧) - يلقن مريديه أو أتباعه «العقائد الشيعية ذاتها فيما يتعلق بالأئمة الإثني عشرية»، لكنَّه يحاول أحياناً الجمع بينها (باعتبارها أصل الفكر العلوي النصيري)، وبين العقائد الشيعية الجعفرية؛ ومن هذا المنطلق فإنَّه يحافظ - على ما يبدو - على ما يمكن من شعائر الطائفة العلوية ومعتقداتها^(٧٨).

لقد انتقل التشيُّع العلوي في السبعينيات من مجرد ظاهرة ليتحول إلى «تيار» واضح، وسواء أكان ذلك ناجماً عن دعم الأسد نفسه في تلك الفترة، أي لأسباب سياسية داخلية تتعلق بدمج الطائفة وإخراجها من عقائدها السرية لإكساب «نوع من الاحترام لهذه الطائفة المشنَّع عليها في التاريخ الإسلامي منذ القرن الأول لنشأتها»^(٧٩)، والسيطرة عليها؛ فضلاً عن أنها تتوافق مع المحور الشيعي^(٨٠)، أم كان بدعم الملالي والشيوخ الإيرانيين والعراقيين واللبنانيين^(٨١)، فإنَّ النتيجة هي أنَّه تأسَّس تيارٌ شيعي واضح في أوساط الطائفة العلوية.

(٧٧) مصدر طلبَ عدم ذكر اسمه.

(٧٨) على سبيل المثال: كان الشيخ فضل غزال يظهرُ دوماً بلباس شيعي، ولكنَّه ظهر - في التلفزيون السوري أثناء محاولته لإمامة صلاة الميت أثناء التحضير لمراسم دفن باسل حافظ الأسد عام ١٩٩٤ - حالقاً رأسه ومطلقاً لحيته الطويلة على طريقة شيوخ العلويين التقليديين، ولعله كان يريد بهذا المظهر تأدية رسالة للطائفتين العلوية والسنيَّة على السواء.

(٧٩) سورا، سورية، م.س، ص ٨٨.

(٨٠) انظر: المصدر نفسه.

(٨١) كان يأتي - وأحياناً يُستدعى - شيوخ من إيران ولبنان وبعض دول الخليج فضلاً =

ولا يزال إرسال العلويين إلى الحوزات الدينية في حواضر الشيعة التاريخية (إيران والعراق) دارجاً إلى اليوم وإن كان افتتاح الحوزات العلمية في سورية قلل من ذلك. في المقابل، فإن عشرات الطلبة العلويين تخرجوا في جامعة الأزهر^(٨٢)، وفي كلية الشريعة بجامعة دمشق^(٨٣) بدءاً من الستينيات المنصرمة، ولا يزالون إلى الآن يتخرجون في كلية الشريعة بجامعة دمشق، معظمهم يؤمن بالعقائد الشيعية، أو على الأقل هو قريب من التيار الشيعي في الطائفة العلوية. وفي جو سني صارم مثل كلية الشريعة كان من الطبيعي أن يخفي هؤلاء عقائدهم. ولعل السبب في دخول كلية الشريعة لكثيرين منهم هو حظهم «العاثر» الذي لم يتح لهم دراسة جامعية، فدخلوا كلية الشريعة اعتماداً على قانون «الإيفاد الحزبي» الخاص بكلية الشريعة - والذي صدر عقب أحداث العنف مطلع الثمانينيات - (خلفاً لكل كليات الجامعة الأخرى)، من أجل إيجاد فرص للالتحاق بوظائف الدولة^(٨٤).

= عن العراق لإلقاء الدروس والمحاضرات والمنتديات والاحتفالات الدينية، مثل الشيخ اللبناني الشيعي هاني فحص، وبعض الشيوخ العراقيين الفارّين من النظام العراقي البعثي، مثل الشيخ العراقي علي البدري، والمستشارين الثقافيين الإيرانيين، مثل محمد شريعتي. (٨٢) من بين الذين تخرجوا في الأزهر أحد موقعي بيان ١٩٧٣، وهو الشيخ مصطفى السيد من قرية بعمره صافيتا، كان مدرّساً دينياً في قرية سمت قبله قضاء جبلة.

(٨٣) من بين الذين تخرجوا اثنان من موقعي بيان ١٩٧٣، هما: الشيخ محمود مرهج من قرية بحنين قضاء مدينة طرطوس، كان مدرّساً في قرية دريكيش، وهو مجاز من النجف الأشرف وكلية الشريعة بدمشق، والشيخ يوسف حلوم من قرية شبيلية مجاز من كلية الشريعة بدمشق. ومن بين الدارسين في كلية الشريعة الشيخ ذو الفقار غزال نجل الشيخ فضل غزال.

(٨٤) حول الإيفاد الحزبي للجامعات وخلفيته السياسية، انظر: سورا، سورية،

م.س، ص ١٨١.

من جهة أخرى في فترة الثمانينيات (أي في الفترة التي أصبح الأسد يتوجس فيها من تصدير ملالي الثورة الإسلامية الإيرانية لثورتهم) عندما يذكر التشيع والتشيع في الطائفة العلوية فإن اسم طبيب الأسنان المهلب حسن - الذي ينتمي إلى أسرة دينية علوية عريقة في ريف محافظة طرطوس - يبرز إلى الواجهة. كان الرجل على صلة مع رجال الدين الشيعة، وكان يبذل جهده لإقناع رجال الدين العلويين بالتشيع باعتباره ضرورة لإعادة تنظيم الطائفة العلوية، وتقوية وضعها، وإعادة تنظيم مؤسساتها الدينية وفق نسق هرمي يؤسس لمرجعية دينية قوية على غرار المرجعية الشيعية، وإنشاء مجلسٍ ملّي أعلى للطائفة يمنحها القدرة على الاستقلال عن قرار السياسيين، بل والتأثير فيهم، ويحرمهم من استغلالها. ولم يمض وقت طويل على نشاطه التبشيري هذا حتى قامت المخابرات العسكرية باعتقاله ومصادرة ما بحوزته من المنشورات الشيعية التي جلبها من إيران، ثم تصفيته جسدياً في مكان اعتقاله في اللاذقية^(٨٥).

وإذا كان هذا شأن المتدينين في خيارهم الديني فإن الأفندية والمتعلمين كانوا يبحثون عن كسر للطوق الديني الطائفي، الذي وجدوه في الفكر القومي الماركسي (والذي كان منظره زكي الأرسوزي، وتأثر به حافظ الأسد)^(٨٦).

(٨٥) هذه على الأقل هي الرواية التي تتعلق باختفائه لدى فرع المخابرات العسكرية، والتي تنسب إلى أسرة المهلب حتى الآن، وإن كان المهلب يُعد من الناحية الحقوقية والقانونية «مفقوداً»، شأنه شأن ما يزيد على سبعة عشر ألف معتقل سياسي من الإخوان المسلمين في السجون السورية في عهد حافظ الأسد.

(٨٦) «لجأ الأسد إلى خصم علق القديم الفيلسوف زكي الأرسوزي، الذي ألهم الأسد خطاه السياسية الأولى عن طريق الدكتور [الطبيب] وهيب الغانم. وكان الأرسوزي =

وبالنسبة إلى المجتمع العلوي الذي لم يعهد الكثير من التكاليف الدينية، والذي يتمتع بكثير من الحرية الاجتماعية، لم تغره حركة الإصلاح الديني، فقد كانت تعني بالنسبة إليه مزيداً من الأحكام والقيود الدينية، وهو المجتمع الريفي القصي الذي بهرته أضواء المدن وسحرته حياتها، فبقي التيار الديني الإصلاحي (الشيوعي) والتيار التقليدي (النصيري) يتصارعان^(٨٧) في حدود القلة القليلة المتدينة في الطائفة.

= حينذاك متقاعداً منذ فترة طويلة، إلّا أنّ الأسد أخرجه من عزلته وراح يصحبه معه في جولاته على معسكرات الجيش، وجعله يحاضر في الجنود ويلتقي بالضباط. وقد ابتهج الأرسوزي العجوز باهتمام الأسد، فراح يكتب مقالات افتتاحية في صحافة الحزب والجيش، كما أنّه أعطى الأسد نفسه لمحات عقائدية كان لها أهميتها في تطوره في ذلك الوقت. وعمل الأسد فيما بعد على تأمين معاش تقاعدي للأرسوزي ظلّ يتقاضاه حتى وفاته بدمشق في ٢ تموز/يوليو ١٩٦٨. انظر: سيل، الأسد، م.س، ص ١٥٠ - ١٥٤.

(٨٧) يلخص الشيخ الخير في كتابه يقظة المسلمين العلويين هذا الصراع بالقول: «قامت شبه حركة عداء بين المتجديين (ونعني بهم النابيين من طلاب المدارس الثانوية والعالية ومن بعض المتعلمين على الشيوخ المسلمين العلويين)، وبين المحافظين (ونعني بهم جمهور المشايخ من المتشبعين بالتقليد)، وبعض من الشباب الدارسين على الأساتذة العلويين، رجال اليقظة الأولى؛ فقد أنكر المحافظون على المتجديين أموراً ترتبها بحسب أهميتها، كما يلي:

- ١ - تقديم دراسة العلوم العصرية على دراسة العلوم الدينية، واشتغال بعضهم من أبناء المشايخ بالأدب والسياسة بدلاً من التخصص للتعبّد ودراسة الآداب الدينية.
 - ٢ - انتقاد بعض رجال الدين ومحاولة هدم بعض العادات المألوفة.
 - ٣ - خروج البعض على الأخلاق وارتكابهم بعض المكروهات العرفية.
 - ٤ - نظم الشعر العاطفي بدلاً من الشعر الديني.
 - ٥ - تقليد الأجانب في الأزياء والعادات.
- وأنكر المجددون على المحافظين أموراً منها:
- ١ - إغفالهم دراسة العلوم اكتفاءً بالفقه المذهبي، ورغبتهم عن كل الأعمال الاجتماعية والسياسية توكلاً على القدر الإلهي.

ختم الشيخ عبد الرحمن الخَيْرُ مقالاته عن «يقظة المسلمين العلويين» سنة ١٩٣٨ بالقول: «إنَّ البصير المخلص يمكنه أن يتفاهل بأنَّ المستقبل [مستقبل العلويين] يبشِّر بتحسن الأحوال المعاشية والاجتماعية والفكرية، وأن يتشائم بتأخر الأحوال (العقائدية) بسبب عدم إعارتها الاهتمام اللازم لتحسُّنها». وبقي ما يقوله الخَيْرُ صحيحاً ربما إلى اليوم، فتبار عودة الفرع إلى أصله الشيعي في الطائفة العلوية النصيرية لم يستقطب إلا نوعية معينة من شباب العلويين المتدينين، وشريحة المتدينين في الطائفة - كما أسلفنا - محدودة جداً بالأساس. وبشكل عام لا تنجح حركات الإصلاح الديني في قلب المجتمع إذا لم تُقدِّم من انغلاق المجتمع وقيوده وأساطيره إلى رحابة العقل والحرية، فهي لا يمكن أن تتحول إلى حركة شعبية ممتدة، إذ تبقى تياراً داخل الطائفة قد يتحول - إذا لم يستطع جرّ الطائفة وراءه - مع الأيام إلى انشقاق جديد وطائفة داخل طائفة، في نوع من التشظي المستمر الذي اعتادت عليه الطوائف الدينية المغلقة.

٢ - عدم تنظيم الأعمال الدينية بالضرب على يد كل منتمٍ إلى المشيخة وهو لا يفهم منها شيئاً أو لا يتقن عمله فيها.

٣ - مبالغتهم في التقليد لكل مأثور سواء قلّ حسنه أو بان عدم ملاءمته للزمان والمكان.

٤ - تسرعهم في الحكم على الظواهر والفئات، وتعميم التهمة إذا عرض من البعض ما يدعو إليها.

٥ - تعمّد العزلة والتشفي بشكل يجعل مظهرهم مستهجنًا.

وتطرّف بعض الشيوخ المحافظين في التحمس، فرمى كثيراً من المجددين بالمروق من الدين، وقابله بمثل تطرفه بعض المتجددين فأعلن عدم صلاح نفر عديد من المحافظين، ورمى هذا النفر بسوء النية والتآكل في الدين والانطواء على غير ما يتظاهر به من تدين وتقوى. انظر: الخَيْرُ، يقظة المسلمين العلويين، م.س.

وغالب الظن أن ما يقوله الشيخ عن حالة المجددين في أكثره ينطبق على تيار عودة الفرع إلى أصله الشيعي اليوم، على أنه يأتي في صلب هذا الخلاف - وهو الأمر الجديد والأهم - قبول العقائد الشيعية وإحلالها محل العقائد النصيرية التقليدية.

الفصل الثالث

ظاهرة العمائم السود

البحث (١٩٩١ - ٢٠٠٠)

«إنَّ أحدًا لم يكن يعرف بأنَّ مقام السيدة زينب سيجذب هذه الأعداد الهائلة من السكان، و(...) إنَّ الجولانيين عندما نزحوا إلى هنا بعد حرب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧ كانت المنطقة كلها مزارع وبساتين مزدهرة، وكانت الأرض رخيصة الثمن جداً، والأمر بقي كذلك حتى منتصف الثمانينيات؛ عندما التفّت الإيرانيون إلى أهمية المنطقة الدينية وبدأوا زيارتها بأعداد كبيرة جداً».

أحد التازحين من الجولان

أدَّت الأحداث بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١ إلى انعطاف مهم في علاقة الأسد بملالي إيران وتابعيهم الخمينيين في لبنان وسورية، وجعلته يسمح بمزيد من النشاط وحرية الحركة والتبشير في المدن السورية لدعاة الشيع، ولكن الأسد - الذي خذله الإيرانيون لتوّه في محنته عام ١٩٨٦ - ١٩٨٧ (قضية طائرة إل العال)، إذ كان مهدداً بالعقوبات الاقتصادية الدولية^(١) - أصبح على يقين أنَّ علاقته بإيران

(١) «في أعقاب محاكمة الهنداوي [الشخص المتهم بالضلوع في تخطيط وتنفيذ عملية طائرة «إل عال» الإسرائيلية] مباشرة (في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦) عندما كان الضغط =

علاقة تحدّها المصالح السياسية المؤقتة وليست علاقة استراتيجية، وعليه أن يلعب اللعبة على هذا الأساس.

انتهت حرب الخليج الأولى (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، وفي عام ١٩٨٩ توفي الإمام الخميني، وكان هذا الحدث أكبر حدث في تاريخ «الجمهورية الإسلامية الإيرانية» بعد الحرب العراقية الإيرانية التي لم يمضِ على انتهائها عام واحد. وقد انتخب «مجلس الخبراء» الرئيس علي خامنئي مرشداً للثورة خلفاً للخميني، فيما انتخب رئيس مكتب حركات التحرر الإسلامية في الحرس الثوري هاشمي رفسنجاني رئيساً للبلاد. وكان الخميني قد قُبِلَ عام ١٩٨٨ على مضض شديد اتفاق وقف إطلاق النار مع العراقيين لينتهي الحرب العراقية الإيرانية ويوقف «تصدير الثورة»، وكان هذا من أكثر الأشياء إيلاماً له، فقد كان بالنسبة إليه بمنزلة «شرب كأس السم»! (٢).

= على الأسد في أوج قوّته، كان الأسد حريصاً على تأمين إطلاق رهينة واحدة على الأقل [من الرهائن الأمريكيين المحتجزين في لبنان على أيدي جماعات موالية لإيران]، وعلى أن يُريَ العالم أنه أمّن ذلك، كي يبعد عنه التهديد بفرض عقوبات ضده، إن لم يكن شن هجوم مسلح على سورية بالفعل. ولذلك كانت صفقة أن يتم بعد يومين إطلاق سراح ديفيد جاكوبسين من قِبَل مختطفيه المؤيدين لإيران، مع عدم تركه في أيدي القوات السورية، بل أمام السفارة الأمريكية، حيث نُقل بسرعة إلى بيروت الشرقية المسيحية ومنها إلى أماكن أخرى في لبنان. غضب الأسد، ولم يكن لديه شك في أن إطلاق سراح هذه الرهينة كان نتيجة صفقة مبادلة السلاح بالرهائن. وهكذا، ففي ٣ تشرين الثاني/نوفمبر (أي في اليوم التالي مباشرة)، وفي زجرة تستهدف توبيخ أمريكا وإيران معاً، سرّيت سورية خبر زيارة ماكفرلين ل طهران والاتصالات الأمريكية - الإيرانية السرية إلى مجلة «الشراع» في بيروت، وأدّى ذلك إلى ما عُرف بفضيحة «إيران - كونترا». انظر: سيل، الأسد، م.س، ص ٧٩١ - ٧٩٢. وانظر الهامش رقم ٤٨ من هذا الكتاب.

(٢) نُقِلَ عن الخميني في وصف هذا الاتفاق: «من جام زهر نوشيدم»؛ أي بالعربية: «أنا شربت كأس السم».

وفي لبنان (الخاصرة السورية الرخوة)، حيث بدأت معالم اتفاق ينهي الحرب الأهلية بهيمنة سورية ومباركة أمريكية - سارع الإيرانيون في إبرام اتفاق شفهي مع الأسد يضع أتباعهم اللبنانيين (حزب الله) في إطار السياستين السورية والإيرانية معاً في لبنان، لينتهي خلافاً حاداً وصامتاً لدمشق مع إيران وحزبها يعود لخمس سنوات خلت على الأقل من هذا التاريخ؛ ففي أواخر كانون الثاني/يناير من عام ١٩٨٩، وبعد مفاوضات طويلة حضرها الطرفان اللبنانيان المتنازحان^(٣) على الهيمنة الشيعية «حركة أمل» و«حزب الله» و«ولياهما» (سورية وإيران) حُصرت حركة أمل في العمل السياسي، واحتكرت «المقاومة» المسلحة لحزب الله في شريط البقاع اللبناني الجنوبي، حيث الاحتلال الإسرائيلي، والعمل مع السوريين على استقرار لبنان وفق الشروط أو «الرؤية» السياسية السورية (والرؤية الإيرانية بدرجة ثانية)، التي ترى في لبنان نقطة ضعف عسكرية وسياسية^(٤).

(٣) دارت بين المنظمين (أمل وحزب الله) معارك طاحنة بين عامي ١٩٨٨ - ١٩٩٠ أقرب ما تكون إلى «حروب تطهير»، أوقعت هذه المعارك في شهر أيار/مايو من عام ١٩٨٨ في الضاحية وحدها خمسمئة قتيل (حسب تقارير قوى الأمن الداخلي) انظر: وضاح شرارة، دولة حزب الله: لبنان مجتمعاً إسلامياً، ط ٤ (بيروت: دار النهار، ٢٠٠٦)، ص ٣٦٦.

وأصل التنافس بين المنظمين الشيعيتين هو تنافس فكري - سياسي للسيطرة على الطائفة الشيعية في لبنان، وفيما يعتبر حزب الله نفسه (ويعتبره الإيرانيون الرسميون وملابهم كذلك) امتداداً للثورة الإيرانية، فإنّ أمل تعتبر نفسها خياراً محلياً وطنياً وتستند إلى دعم السوريين في مواجهة حزب الله.

(٤) حول هذا الاتفاق انظر: المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

وأساس الاتفاق أو الدافع له هو تسوية انطلاقة من أنّ إيران لها اليد العليا معنى ومورداً، وسورية لها اليد العليا سياسة ووجوداً مادياً على الأرض في لبنان، ولا يمكن لإيران أن تعمل على الأرض اللبنانية خارج الإرادة السورية (م.ن، ص ٣٦٢).

وعلى الرغم من أن الأسد تصادم مع حزب الله^(٥)، وكان حزب الله يتذمر من الهيمنة السورية في لبنان ويقاومها^(٦)، إلا أن الأسد كان مدركاً أن يده الطولى في لبنان ستمنحه فرصة لتحويل حزب الله إلى أداة سياسية سورية فعّالة في السيطرة على لبنان ومواجهة إسرائيل^(٧)، بحيث يؤمن الخاصرة السورية الرخوة هنالك، ويعزّز موقفه التفاوضي عبر سياسة «توحيد المسارين» السوري واللبناني في مفاوضات السلام مع الدولة العبرية.

جاء اتفاق الطائف بمباركة أمريكية عربية فرنسية لينهي الاقتتال الطائفي في لبنان، والذي اندلع سنة ١٩٧٦^(٨)، وقد أصبحت سورية فعلياً وقبل الاتفاق صاحبة اليد الطولى في لبنان. عزّز هذا الاتفاق وضع سورية ومنحها الشرعية للتواجد بقواتها هناك، ولا شك أن ذلك منح الأسد وقتاً لأخذ النفس، وقوى وضعه إقليمياً في وقت كان يواجه فيه حصاراً اقتصادياً وعقوبات دولية. وجاءت حرب

(٥) في شباط/فبراير من عام ١٩٨٧، وفيما كان بعض الجنود السوريين يعضدون دورية «للقوة النظامية» من الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي والمنظمات (المليشيات) في بيروت، وقع اشتباك بين الدورية وحراس مكتب «حزب الله» بمنطقة البسطة، فقتل أحد حراس المكتب، واحتجز زملاؤه الدورية (٢١ جندياً وشرطياً ومقاتلاً، بينهم ١١ سورياً)، وأحرقت خمس آليات، ولم يمض أسبوعان على الحادثة (أي في ٢٢ شباط/فبراير) حتى توجهت القوات السورية - التي عادت لتوها إلى بيروت - إلى ثكنة عسكرية وأمنية وسياسية لحزب الله في المنطقة نفسها، فدخلت مصلى الثكنة وقتلت بـ«السلاح الأبيض» اثنين وعشرين مقاتلاً من حزب الله. انظر تفاصيل الحادثة، في: المصدر نفسه، ص ٢٦٠ - ٣٦١.

(٦) سيل، الأسد، م.س، ص ٧٩١.

(٧) كان على حزب الله أن ينهض بدور استمرار الأعمال العسكرية المقاومة ضد إسرائيل، والتي توقع خسائر يُتوقع ألا تدفع الدولة العبرية إلى عملية عسكرية كبيرة (كتلك التي حصلت فيما بعد في تموز/يوليو ٢٠٠٦)، ولا تركها في الوقت نفسه آمنة.

(٨) أقر اتفاق الطائف، وانتُخب إلياس الهراوي رئيساً، وأُخرج ميشال عون من مقرى الرئاسة وقيادة الجيش، ووُحِّد الأراضي اللبنانية على يد القوات السورية.

الخليج الثانية (عملية «عاصفة الصحراء» للتحالف الدولي لإخراج جيش صدام من الكويت) لتمنح الأسد فرصة جديدة للانخراط في المجتمع الدولي؛ فقد كان وقوفه في صف التحالف الدولي، واشتراك جيشه في العمليات العسكرية ضد الجيش العراقي الفرصة الوحيدة ربما للخروج بسرعة من أزمة الحصار الدولي الذي كان يعانيه منذ ١٩٨٧. وبانتهاء حرب الخليج الثانية ازدادت قوة الأسد الإقليمية.

كان على إيران أن تدرك هذا الوضع الجديد الذي جعل نظام الأسد ممسكاً بخيوط اللعبة في لبنان ومضعفاً حاجته للدور الإيراني فيما يتعلق بالسياسة الإقليمية بعد حرب الخليج، لقد أصبحت إيران بالنسبة إلى الأسد مجرد طرف دولي فاعل في إحدى طوائف لبنان، فاستثمر الأسد ذلك بدهاء، إذ حصر علاقته بها في لبنان بهذا الدور - وهو دور يرتبط بشكل أو بآخر بمواقفها «المناهضة» لإسرائيل والولايات المتحدة - ودفع بفكرته للاستفادة من التشدد الديني الشيعي للملاي إلى الحدود القصوى عندما جعل حزب الله وحده يقاتل إسرائيل في «خدمة السيدين»^(٩) (سورية وإيران)، بدلاً من أن يتكبد الجيش السوري الخسائر المادية والمعنوية، وينصرف عن ضبط اللعبة السياسية في لبنان وفق إيقاع الأسد الساعي لبناء سلطته المطلقة في سورية.

أولاً: الملاي المستأنسون (١٩٩٠ - ١٩٩٣)

انعكست العلاقات مع حزب الله على حركة الشيعة والإيرانيين

(٩) انظر: شرارة، دولة حزب الله، م.س، الفصل الثالث «وجها الخمينية اللبنانية أو: خدمة السيدين»، ص ٣٣٥ - ٣٨٨، وبشكل خاص انظر: ص ٣٦٢.

وملايهم في سورية، وبمجرد حصول الاتفاق انعطف حزب الله إلى موجه الإرادة السورية، وسعى إلى تمتين العلاقة بالقيادة السورية وكسب ثقتها عبر الميل إلى دور سياسي وخطاب سياسي أقل تشدداً.

وخلال هذه الفترة كانت قيادات حزب الله تتردد إلى دمشق لتحديد مواقفها والتنسيق مع القيادة السورية، وما بلغوا عام ١٩٩٢ حتى سافروا جميعهم للقاء وزير الخارجية السوري فاروق الشرع ونائب الرئيس (في ذلك الوقت) عبد الحليم خدام مرتين في غضون بضعة أسابيع!

وبجوار هذه الحركة السياسية، بدأ يُسمح لأنصار حزب الله بالحركة في سورية، وبدأت القيود على النشاط التبشيري بالانخفاض، فالأسد ما زال يريد إخراج الطائفة العلوية من عزلتها العُقدية، التي كانت قد استجاب جزء منها بشكل واضح لحركة التشيع بوصفها حركة دينية إصلاحية في الطائفة، وبالرغم من أنه كان يجد في الفكر الشيعي حلاً للطائفة وإكسابها الاحترام اللازم لدعم سلطته، إلا أنه كان يرى فيه أيضاً تهديداً له في الوقت نفسه! ولم يكن الأسد يبدو مجتهداً للفكر الديني أساساً.

وكانت علاقة الأسد بالزعامات الدينية الشيعية (العلوية الأصل، مثل الشيخ عبد الرحمن الخيّر، فضلاً عن الملالي الإيرانيين والعراقيين واللبنانيين) ممتازة للغاية، حتى كان للشيوخ العلويين الإصلاحيين (الشيعية) دالة على الأسد، وكان بإمكانهم الوصول إليه بسهولة، وهو أمر كان يسهّل وصول ملالي الشيعة إليه أيضاً^(١٠). ولكن ما أن قامت الثورة الإيرانية حتى بدأت علاقاته

(١٠) كان لقاء الأسد بالشيخ حسن الشيرازي عن طريق أحد الشيوخ العلويين (انظر: =

تسوء شيئاً فشيئاً مع الملالي الشيعة، ولم يعد الأسد يستقبلهم كما كان من قبل، ولم يبلغ عقد الثمانينيات منتصفه حتى لم يعد الأسد يستقبل أحداً منهم، وبدلاً من ذلك كان نائبه خدام يتولى المهمة^(١١) عند الحاجة، وهو أمر يعكس توجهه من نظام الخميني.

الاستئناف

بعد تحقّظ شديد على حركتهم في الثمانينيات بدأ ملالي الشيعة يقدون إلى دمشق ويلقون دروسهم ومحاضراتهم وينشطون في تبشيرهم؛ فاستبغاً للعلاقة مع حزب الله أصبح بإمكان السيّد محمد حسين فضل الله^(١٢) القدوم إلى ضاحية السيدة زينب والقاء دروس

= سيل، الأسد، م.س، ص ٥٧٢)، وتوثقت علاقة الأسد به حتى أصبح بإمكان الشيرازي أن يكون على اتصال مباشر مع الأسد كلما أراد، وهذه القصة التي يرويها أحد موظفيه المقربين في الحوزة الزينية شهادة على عمق وخصوصية علاقة الأسد بالشيوخ العلويين المتشيعين والملالي:

«في أحد الأعوام اقترح السيد [الشيرازي] علينا بأن نذهب إلى الحج، وكان برفقتنا المرحوم الشيخ أبو الفضل أحمد الخير [علوي]، والمرحوم إسماعيل الأسد [علوي، شقيق حافظ الأسد (مواليد ١٩١٣)]، والسيد محسن الخاتمي [إيراني]، وبعد حصولنا على الفيزا رنّ جرس التلفون من القصر الجمهوري، وذلك من قبل السيد الرئيس الراحل حافظ الأسد، الذي يقول فيه: «قمنا بإرسال برقية إلى الملك السعودي لكي تكونوا في ضيافته، وسوف تسافرون عبر الطائرة»؛ فاعتذر سماحة السيد وقال: «أنا لا أستطيع أن أتجول في السيارات الخاصة السعودية، وإنّما أريد أن أتجول وأزور البعثات بنفسي، ولا أريد أن أتقيّد بالبروتوكولات»، ولذلك قرّر السيد - وبرفقته إسماعيل الأسد والشيخ أحمد الخير - أن يذهبوا جواً وعلى نفقتهم الخاصة، وأنا والسيد محسن الخاتمي نغادر براً». انظر مقابلة موقع الشيرازي نت مع تلميذه محمّد شريف (هندي الجنسية)، على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat/legha/shahid/027.htm> >.

(١١) انظر: حسن صبرا (برلين)، مقابلة مع عبد الحليم خدام، ج ٢، مجلة الشراع (بيروت) (١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧).

(١٢) محمد حسين فضل الله (٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥ - ٤ تموز/يوليو ٢٠١٠) =

أسبوعية في حوزاتها، وفضل الله (الأب الروحي لحزب الله) كان ولا يزال طامحاً بحيازة مرجعية دينية شيعية. ومنذ ذلك التاريخ وبشكل منتظم^(١٣) كان فضل الله يلقي دروسه العامة والخاصة في الحوزة الزينية والحيدرية، وهي دروس كانت في معظمها تستهدف ترسيخ المرجعية الدينية لفضل الله خارج لبنان، خصوصاً في شيعه دول الخليج، وما لبث أن أسس في ضاحية السيدة زينب مكتباً له مخصصاً للفتوى والخمس على عادة المراجع الشيعية التي لدى كل منها مكتبه الخاص. وكان فضل الله - شأن المرجعيات الشيعية في إيران والعراق التي لفت انتباهها تيار التشيع في الطائفة العلوية - مهتماً بتعميق صلته بالتيار الشيعي (العلوي)، فكتب في سنة ١٩٩٢ مقدمة لكتاب «العلويون والتشيع»^(١٤) يدافع فيها عن مظلومية الطائفة العلوية، وضرورة تصحيح التصور «المغلوط» الشائع عنها، والانتباه إلى أنها كانت ومازالت شيعية إمامية!

بعد «انتفاضة الجنوب» الشيعي في العراق عام ١٩٩١، قدم عدد كبير من المهاجرين العراقيين معظمهم من النشطاء الحركيين الشيعة وقياداتهم، واستوطنوا «حي الأمين» و«السيدة زينب». أسهم هذا في بعث النشاط الشيعي على نحو غير مسبوق، فقد خصّص التلفزيون السوري الرسمي في عام ١٩٩٢ حلقة أسبوعية (يوم

= مرجع دين شيعي لبناني من بلدة عيناتا الجنوبية، ومن أشهر مفكري الشيعة في لبنان. كان حتى منتصف العقد الأول من القرن الحالي أباً روحياً لحزب الله، إلا أن خلافه مع المرجعيات الشيعية في العراق وإيران أثرت في علاقته بحزب الله التابع لإيران.

(١٣) يوم في الأسبوع، هو يوم السبت.

(١٤) تأليف الشيخ علي عزيز الإبراهيم، أحد النشطاء البارزين في تيار التشيع العلوي في طرابلس لبنان، وأحد الموقعين على البيان الشهير. انظر: المسلمون العلويون... شيعة أهل البيت (ع) (طرابلس، لبنان: دار الصادق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م).

الجمعة) للواعظ الشيعي العراقي عبد الحميد المهاجر، الذي كان ناشطاً من قبل في العمل التبشيري بشكل شبه علني^(١٥)، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر في التلفزيون السوري، ولم يكن السوريون السُنَّة يخفون حنقهم من هذا الدرس، فقد شعروا أنَّ الفضاء الديني السُنِّي انتهك بقوة عندما سُمح لشيخ شيعي بوعظ جموع الأكثرية السُنِّيَّة!^(١٦) وما أن أصبح المهاجر وجهاً معروفاً لدى السوريين حتى ذهب يطوف أرجاء سورية بحرية مبشراً بالشيعة.

في هذا الوقت أيضاً كان المبشر العراقي الشيعي علي البدري^(١٧) (الذي توفي ١٩٩٨) ناشطاً في المدن والقرى السورية (على وجه الخصوص: حلب وحمص والحسكة والقامشلي والرقعة واللاذقية ودير الزور، وأريافها)، يفتتح الحسينيات والمكتبات

(١٥) يذكر محمّد يوسف قمجي - مواليد الضمير (ريف دمشق) ١٩٥٢، والذي اعتنق التشيع على يديه عام ١٩٨٦ - قصة تأثره بالشيخ المهاجر عندما كان (القمجي) مقيماً في قرية عدرا (شمال دمشق)، التي دُفن فيها الصحابي الجليل حجر بن عدي الكندي، حيث استمع إلى درس ألقاه عند المقام عن مقتل حجر بن عدي الكندي. ويروي القمجي كيف أرسل عبد الحميد المهاجر الحاج أبو ميثم (صاحب مكتبة «دار الحسين») والشيخ عباس النوري (من الحوزة الزينية) والحاج حسين الركابي لتلبية حاجته للمعرفة الشيعية. انظر:

هشام آل قطيط، المتحولون: حقائق ووثائق (بيروت: دار المحجّة البيضاء، بالاشتراك مع دار الرسول الأكرم، ٢٠٠٢)، السيد محمّد يوسف قمجي، على الرابط:

<<http://www.l4mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm>>.

(١٦) أوقف بثّ الحلقة الأسبوعية بضغط الشيوخ عام ١٩٩٣م؛ أي بعد قرابة عام من بدئها.

(١٧) الشيخ علي البدري هو أحد أبرز المبشرين الشيعية. امتد تبشيريه إلى العديد من الدول العربية والأوروبية والأفريقية، مثل: اليمن والمغرب والجزائر ومصر والسودان وتنزانيا وغيينيا وسيراليون وهولندا وألمانيا وبريطانيا والسويد والدانمارك، وأسّس فيها مكاتب ومراكز لتدريس العقائد الشيعية.

الشيعة فيها (مثل: الحسينية التي أُقيمت قرب جامع عمر الفاروق في دمشق!).

بدأت حركة تشييع واضحة تنمو وتتجه إلى القرى والأرياف، وإلى طلاب العلوم الدينية بشكل خاص؛ فالعروض بالدراسة في قم أصبحت تنهال على كل من يقترب من المؤسسات الشيعية، بدءاً من المستشارية الإيرانية^(١٨)، وصولاً إلى أصحاب المكتبات الشيعية في السيدة زينب، يشاركون في هذه العروض الدراسية لكل سوري يهتم بالفكر الشيعي؛ ولكن قليلون أولئك الذين استجابوا لإغراءات هذه العروض، فقد كانت شبه محصورة في الأوساط المهمة بالثقافة الدينية وبشكل خاص طلبة العلوم الدينية.

تشيع العمّال

بعد اتفاق الطائف بدأت العمالة السورية بالتدفق إلى لبنان بشكل غير مسبوق، وجزء كبير من هذه العمالة - التي كانت تحمل الكفاءة المهنية بدرجات متدنية، وتعاني من بطالة مزمنة في بلدها - عمل في الجنوب اللبناني. كان بين هؤلاء الآلاف من الأكراد، وبينهم مئات من الأكراد «البدون» الذين حُرِّموا الجنسية السورية في إحصاء الحسكة الاستثنائي عام ١٩٦٢. وقد سمحت الإقامة الطويلة

(١٨) كان محمد شريعتي هو المستشار الثقافي لإيران في ذلك الوقت، وشريعتي رجل دين إيراني انضم إلى الحركة السياسية الإصلاحية في إيران منتصف التسعينيات، وأصبح مستشاراً للرئيس خاتمي، وقد أرسل عدداً من الشباب السوريين للدراسة الدينية في إيران بغرض التشييع، وهناك عدد من طلبة العلوم الدينية أكدوا لنا أنهم تلقوا هذا العرض من المستشار شريعتي؛ وشريعتي أسهم أيضاً في حملة التبشير هذه - بحكم منصبه على الأقل - في عدد من المدن والقرى السورية، خصوصاً في الشمال السوري ومنطقة الجزيرة.

واللقاء اليومي بين العمالة السورية والمجتمع الشيعي اللبناني
باحتكاك غير مسبوق مع السوريين.

أدّى هذا الاحتكاك إلى تشيّع عدد كبير من العمال
السوريين^(١٩)، خصوصاً من الأكراد «البدون» الذين كانوا يأملون
ربما بالجنسية اللبنانية عبر اعتناق التشيّع ودعم حزب الله لهم، لكنّ
أحلامهم هذه - التي لم تتحقق على الغالب - كانت إحدى الشبّاك
التي يتم اصطيادهم بها من قبل المبشرين الشيعة. وعلى الرغم من
أنّ التراث الشيعي يتضمن عداءً فقهياً وعقدياً خاصاً للأكراد^(٢٠)،
إلا أنّ ذلك لم يحلّ دون اجتذاب العمال البسطاء وذوي الثقافة

(١٩) من بين العمال المتشيعين هشام آل قطيط (من قضاء منبج في ريف مدينة حلب،
كان يقطن مدينة رميلان في محافظة الحسكة)، مؤلف كتاب «المتحولون: حقائق ووثائق»؛
وهو كتاب غاية بالأهمية صدر منه ستة أجزاء حتى عام ٢٠٠٧، وهو يشبه معجم متخصص
بالمتشيعين السنيين، ويتضمن مقابلات تقدم معلومات غاية في الأهمية حول موضوع
المتشيعين في سورية ودوافعهم للتشيع. ومثله الشيخ أبو النور موقع (أحد النشاط البارزين
في التبشير الشيعي في مدينة حلب). والوجود الشيعي في كثير من المناطق يرجع إلى
العمالة السورية وحدها، كما في قرية التل (قرب دمشق). ويعد الشاعر سمعو عبد الكريم
درويش (مواليد ١٩٢٢، من قضاء الباب، قرية بزاعة) من أقدم من تشيعوا بسبب العمالة في
لبنان، منتصف الستينيات، وأعلن تشيعه في ١٩٦٨، وكان ممّن التقوا الزعيم الشيعي موسى
الصدر. حول سبب تشيع سمعو درويش، انظر: آل قطيط، المتحولون، م.س. ويمكن
قراءته على الوصلة:

<<http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm>>.

(٢٠) ثمة نصوص دينية في التراث الشيعي (على سبيل المثال لدى: الطوسي «شيخ
الطائفة»، والحلي «يحيى بن سعيد»، والكليني، والجوهري، والحلي «ابن إدريس»،
والطباطبائي «علي»، وغيرهم) تفيد بأنّ الأكراد هم «حبس من الجن كُشف عنهم الغطاء».
وهناك فتاوى فقهية أيضاً تقضي بعدم جواز مخالطتهم والزواج منهم. ولعل أصل هذه
العقائد والأحكام يعود في معظمه إلى انعكاسات الحقبة التي قضى فيها صلاح الدين
الأيوبي (الكردي) على الدولة الفاطمية ووحد مصر والشام.

المحدودة لعقائد الشيعة، من خلال حوارات سجالية تبشيرية تستفيد من ضعف المعرفة الدينية للعمال وقلة الدراية بالتاريخ الإسلامي والفكر السنّي وتراثه العقدي والفقهّي.

تشيع مئات العمال السوريين، وتأثر بالتشيع ربما أضعافهم، ونتيجة لهذه الحركة التبشيرية التي بدأت تدب في أرجاء سورية بدأ الشيعة السوريون (الأصليون) يقومون بنشاطات علنية ربما للمرة الأولى، في المدرسة المحسنية (في حي الأمين بدمشق)، مع حرص شديد لدعوة الشخصيات والرموز الدينية السنّية من أهالي البلد لحضورها^(٢١). ونشطت جمعياتهم أيضاً بالحركة، فبدأت جمعية «النجمة المحمّدية» بعقد «مجلس السيدة زينب» في الخامس عشر من رجب عام ١٩٩٣، وصار ينعقد هذا المجلس بشكل سنوي منذ ذلك التاريخ.

احتلال المقامات

باستثناء ضريح «السيدة زينب» وبعض مقامات آل البيت و«شهداء كربلاء» في باب الصغير و«مشهد النقطة»^(٢٢) في حلب،

(٢١) على سبيل المثال، كثيراً ما دُعي لهذه النشاطات الدكتور وهبة الزحيلي، والدكتور مصطفى البغا من كلية الشريعة، والدكتور محمود عكام (أحد شيوخ مدينة حلب والذي صار لاحقاً مفتي المدينة).

(٢٢) يروي المؤرخ ياقوت الحموي في معجم البلدان أنّه كان عند سفح جبل الجوشن المطل على حلب دير يسكنه النّسّاك والنّاسكات، ويوفّر النصارى أطلاله؛ حتى أقام المسلمون في نفس مكانه مزاراً إسلامياً زعموا أنّ الحسين بن علي رُوي وهو يصلي عنده!

و«مشهد النقطة» هو مقام أنشئ في عهد الدولة الحمدانية الشيعية الباطنية في القرن الرابع الهجري على أنقاض دير نصراني، كما هو مثبت في لوحة التعريف على جداره باللغتين العربية والفارسية: «هذا المشهد كان في الأصل ديراً نصرانياً يدعى «دير مارت =

لم يكن للشيعة أي مقام آخر يتبع لوصايتهم، فجميع المقامات تابعة لوزارة الأوقاف، حتى المقامات التي كانت تحت رعاية استثنائية من قبل مواطنين شيعة، كانت تابعة رسمياً لوزارة الأوقاف ومديرياتها.

بدأ الشيعة ينقبون عن مقامات مندثرة لآل البيت لإحيائها، وكان الملالي الإيرانيون قد «اكتشفوا» نهاية السبعينيات عدداً من المقامات «المهمة» و«المهملة»، مثل «مقام السيدة زينب»، ومقام السيدة رقية في حي العمارة الجوانية حارة الأشراف، ومقام الصحابي حجر بن عدي الكندي في قرية عدرا في ريف دمشق، التي تتبع للإشراف السنّي، فقرر ملاليهم السطو عليها واحتلالها! (٢٣) وظاهرة المقامات لدى الشيعة ليست ظاهرة عادية،

= مروثا»، ولما مرَّ حَمَلَةٌ رأس الحسين في طريقهم إلى دمشق من هذا الدير عام ٦١هـ أخذ راهب الدير الرأس فقطرت من دم الحسين قطرات، فصار الراهب يتبرك بأثرها. وفي سنة ٣٣٣هـ شاد سيف الدولة عليه بناء ضخماً وأصبح مزاراً منذ القرن الرابع معروفاً بـ«مشهد النقطة»، أو «مشهد الإمام الحسين». نقلاً عن: عبد الستار آل حسين، تحذير البرية من نشاط الشيعة في سورية (القاهرة: دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر، ٢٠٠٧)، ص ٢١ - ٢٢.

استعمل مشهد النقطة أواخر الدولة العثمانية كمستودع للأسلحة عام ١٣٢٣هـ، وقد انفجر المستودع في الحرب العالمية الأولى، ثم أعيد بناء هذا المقام ثانية عام ١٣٣٧هـ من قِبَل الجمعية الخيرية الجعفرية بحلب، وجرى التوسّع فيه بدعم من الجمهورية الإسلامية في إيران. انظر: أبو حيدر الشمري، «مهرجان خطابي في الرقة إحياءً لذكرى استشهاد الصحابي عمار بن ياسر»، الوكالة الشيعية للأنباء (سورية)، ٢٠٠١/٦/٤، انظر الرابط: <<http://www.ebaa.net/khaber/archev/khaber022/khaber22.htm>>.

(٢٣) يروي تلميذ الشيرازي الشيخ الأفغاني محمد بخش الحلبي جزءاً من قصة الاحتلال هذه، والتي كان قد ابتدأها حسن الشيرازي ولعب فيها دوراً حاسماً، إذ يقول: «في حرم السيدة رقية (...) كانت تقام صلاة الجماعة من قبل أهل السنّة، والسيد [حسن الشيرازي] استطاع أن يقيم صلاة الجماعة فيها، وترك أهل السنّة إقامة صلاة الجماعة في حرم السيدة رقية».

فالفكر الشيعي يعبد التاريخ، وأحزانه ونظرته السوداوية المستمرة للعالم تجعله مهتماً بالمآسي والأموات أكثر من اهتمامه بالأحياء. وعلى أية حال، ما أن انتهى عقد الثمانينيات حتى سطا الشيعة على الأوقاف السنيّة التي تضمنت «مقاماتهم» المتكشفة. وفي هذه المدة بنيت الأضرحة وتمّ اقتلاع ما يجاورها من أبنية؛ ففي حارة العمارة الجوانية - مثلاً - كانت البيوت الدمشقية العريقة في حارة الأشراف (سادة آل البيت السنّة) والمجاورة لمقام السيدة رقية تتعرض لإزالة ممنهجة من أجل إقامة مبنى ضخم لمقام السيدة رقية، يتضمن مدرسة ومسجداً كبيراً، وما انتهى إعمارهما حتى نهاية عام ١٩٩٠.

كان حافظ الأسد يراقب عبر أجهزته الأمنية هذه النشاطات عن قرب، وإذا كان الأسد لم يجد في هذه النشاطات ما يؤدي سلطته، فإنّه وجد في الوقت نفسه أنّه يمكنه الاستفادة منها لدعم سلطته؛ فالأسد بعد حرب الخليج الأولى أصبح «متفرغاً» لتهيئة خلافته والعمل لها بشكل جدّي، وإذا أصبحت حركة التشيع مستأنسة، لا تقوم على فكرة تصدير الثورة تلك التي انطلقت بقيام الجمهورية الإسلامية، فإنّ هذا لا يعني أنّ أهدافاً سياسية لم تكن

= كما يذكر الحليمي أنّ من أهم إنجازات الملا حسن الشيرازي «إقامة صلاة الجماعة في صحن مقام السيدة زينب عليها السلام»، ووضع التربة الحسينية أثناء الصلاة، حيث لم يكن يشاهد تربة في المقام قبل ذلك. وفي الليلة الأولى التي قمنا فيها بزيارة السيدة زينب عليها السلام كان صندوق التربة موجوداً أمام باب المقام، فجاء عدّة نساء وقامت إحداهنّ بشمّ التربة، وتذوّقت الأخرى التربة، والسيد كان جالساً فوق سجاده ونحن خلفه، وكان بيننا شخص من باكستان متعصب جداً، أراد أن يقوم ليمنع النسوة، ولكن السيد حسن منعه من التعرض لهن، وقال: «فليفعلا ما يريدون، حتى يتيقنوا بأنّه تراب، ويتعرفوا على التربة الحسينية»، علماً أنّ بعض النسوة أخذن التربة خفية، وقمن بكسرها لكي تشاهدنّ ما في داخلها. انظر: نص مقابلة الشيرازي نت معه على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat/legha/shahid/022.htm> >.

في خلد كل من الأسد وملالي إيران؛ فالأسد يريد استثمار هذه الحالة لتأمين الدعم الشيعي في الطائفة العلوية من جهة، وإيران من جهة أخرى. وفي الوقت الذي كان فيه ملالي إيران يفكرون بزيادة الوجود الشيعي في سورية لتقوية شيعة لبنان وتأمين علاقات اجتماعية تتيح نفوذاً مستقبلياً لهم في البلاد، فضلاً عن الدواعي العقدية والتاريخية، كان الأسد - في المقابل - يفكر بتأمين انتقال سلس لخلافة ابنه باسل له، عبر دعم حكومة الملالي في إيران له، ودعم «تيار عودة الفرع إلى أصله» الشيعي القوي في الطائفة العلوية.

انطلاقاً من ذلك، أمر الأسد ببناء مسجد كبير في قريته في محافظة اللاذقية «القرداحة»، الذي أطلق عليه اسم والدته ناعسة عبود (مسجد ناعسة)، وحينما أراد افتتاحه سنة ١٩٩١ عيّن الشيخ العلوي فضل غزال (أحد أبرز شيوخ تيار التشيع العلوي) إماماً له.

ثانياً: الملالي المبشرون (١٩٩٤ - ٢٠٠٠)

لا شك أنّ تأثير الثورة الإيرانية في المتدينين المسلمين كان كاسحاً في العالم العربي، فقد كان الإسلاميون «بجاهدون» في مصر وسورية والسودان وغيرها لإقامة «دولة إسلامية» طالما دغدغت أحلامهم، وكان القوميون واليساريون العرب قد أرهقوا أنفسهم بلفظ «الثورة» دون أن يستطيعوا إنجاز شيء ممّا أملوه، فوجدوا جميعهم انعكاس أحلامهم في الثورة الإيرانية. وبحسابات غير موفقة - ربما كانت مواتية لتلك الظروف التي كان يغرق فيها الفكر العربي والإسلامي بالأيديولوجيا الثورية - وجد بعضهم في قيام الثورة وإنجازها معادلاً لصحة الأفكار والعقائد، فانتقل إلى التشيع تحت هذه التأثير، وهو أمر يصدق على معظم المشيعين في

وسرعان ما تشكلت من هؤلاء شبكة للتبشير الشيعي، تم تحفيزها (فيما يتعلق بسورية) بالنشاط التبشيري للملاي الإيرانيين والعمال المتشيعين في لبنان، غير أنَّ عماد هذه الشبكة الفعلي كان العمال السوريين المتشيعين، الذين قام ملاي إيران بمساعدتهم وتمويلهم عبر جولات لآيات الله والمستشارين الثقافيين الإيرانيين تصل إلى أعماق صحراء الجزيرة والبادية وقراها الصغيرة النائية شمال شرق سورية. ضمت هذه الشبكة - إضافة إلى العمالة المتشيعية في لبنان - المتشيعين القدامى والجدد الذين تشيعوا لقناعات عقدية بحتة^(٢٥)، وأبناء الأقلية الشيعية السورية (بقايا العهد

(٢٤) على سبيل المثال: والد ياسر الحساني (متشيع تأثراً بأبيه)، (منبج - ريف حلب)، والشاعر المنبجي محمّد ملا غزير. وقد كان تأثر الشيخ الصوفي حسين الرجا في قرية زغير (ريف دير الزور) بالثورة الإيرانية سبباً في تحوله للتشيع، وتأثيره في أبناء القرية؛ فحسب رواية حمد الوكاك (ابن القرية الذي تشيع عام ١٩٩٦) فإنّه في: «بداية الثورة الإسلامية في إيران، تأثر الأخوة في المنطقة وبالأخص أسرتي، ومنهم العم السيد محمود الوكاك، ويومذاك كان تلميذاً في المدارس الصوفية التي كان يرأسها السيد حسين الرجا، وذهب إلى زيارة الإمام الكاظم (عليه السلام) في عام ٧٩ إلى العراق، والحضرة القادرية في بغداد، ورجع إلينا العلامة السيد حسين الرجا من العراق وهو يحمل فكر أهل البيت (عليه السلام)، فتأثر به العم محمود الوكاك، وتأثيره أثر على الأسرة كاملة». وكان تشيع الشيخ حسين الرجا عام ١٩٨٦ أوّل حالة تشيع في محافظة دير الزور حسب الوكاك. انظر: آل قطيط، المتحولون، م.س، مقابلة مع السيد حمد الوكاك، يمكن مشاهدتها على الوصلة:

< <http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm> >.

كما أنَّ الميول الشيعية للدكتور محمود عكام هي نتاج هذا التأثير بالثورة الإيرانية، الذي كان قد صلى عام ١٩٨٩ صلاة الغائب على الإمام الخميني في جامع التوحيد الكبير بحلب، وظنَّ الناس أنّه تشيع؛ واستطراداً فإنّه كثيراً ما يُستدل بهذه الحادثة على تشيع عكام، والأمر في الواقع لا يتجاوز الميول الشخصية الصوفية والمصالح ولا يتعداه إلى التشيع. حول اتهام عكام بالتشيع انظر: آل حسين، تحذير البرية، م.س، ص ٢٦.

(٢٥) انظر مثلاً الهامشين رقم ١٦ و ١٧ من الفصل الأول.

الفاطمي). ولم ينتهِ عقد التسعينيات حتى أصبحت الشبكة فاعلة وناشطة للغاية.

«قُم» الصغرى في سورية!

حتى عام ١٩٩٥ لم يكن في سورية سوى حوزتين، الأولى «الحوزة الزينية» أنشئت سنة ١٩٧٦، والثانية «حوزة الإمام الخميني» أنشئت عام ١٩٨١. وحتى عام ١٩٩١ لم تكن أيّ من الحوزتين تابعة للوزارة. ووفقاً لنص الخطاب الذي أرسله نائب رئيس الجمهورية لشؤون التربية والتعليم الدكتور زهير مشاركة في ٢ حزيران/يونيو ١٩٨٨ إلى وزير الأوقاف عبد المجيد الطرابلسي، فإنّ الحوزتين لا تتبعان لوزارة الأوقاف^(٢٦)، وإنّما ألحقنا بالأوقاف - وسائر المؤسسات الشيعية التعليمية والدينية - في كانون الثاني/يناير ١٩٩١ وفق ما يشته خطاب آخر من نائب الرئيس مشاركة إلى الوزير نفسه، ينصّ على «أنّ الحسينيات والحوزات تتبع وزارة الأوقاف إشرافاً عليها، شأنها شأن الهيئات الإسلامية الأخرى، وتمارس وزارة الأوقاف صلاحيتها كاملة على الحسينيات والحوزات»^(٢٧). ويعكس هذان الخطابان التحول الذي طرأ على سياسة الأسد فيما يتعلق بالشيعية بعد ١٩٨٩، كما تمّ توضيحه في الفصول السابقة ومطلع الفصل الحالي.

وبدأ من عام ١٩٩٥ شهدت منطقة السيدة زينب تشييد

(٢٦) الخطاب جاء في وثيقة صادرة عن مكتب نائب الرئيس تحت رقم ١٤، بتاريخ ١٧ شوال ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٦/٢ م، وموقع من قبل نائب رئيس الجمهورية الدكتور زهير مشاركة.

(٢٧) الخطاب جاء في وثيقة صادرة عن مكتب نائب الرئيس تحت رقم ١ بتاريخ ١٢/١/١٩٩١، من قبل نائب رئيس الجمهورية الدكتور زهير مشاركة.

وتأسيس عدد من الحوزات لتبدو كما لو أنها تسير لتصبح مدينة قم سورية! (٢٨) فما بين ١٩٩٥ - ١٩٩٦ تأسس ما يزيد على خمس حوزات علمية (٢٩). ولا يبدو واضحاً لِمَ سمح بتأسيس هذه الحوزات في هذه الفترة الوجيزة، التي رُخص في العام نفسه لجمعيات ثقافية شيعية، (٣٠) ثم جُمّد السماح بتأسيسها بعد ذلك، ولم يُستأنف حتى عام ٢٠٠١! فما السر الذي قد يكون خلف هذا

(٢٨) تعتبر مدينة قم المقدسة مدينة التعليم الديني في إيران، وهي المدينة الوحيدة للعلوم الدينية الشيعية التي تشبه بلدة السيدة زينب بنت علي قرب دمشق؛ فقد شيدت حوزتها ومدارسها بجوار مقام سيدة من آل البيت، هي ابنة موسى بن جعفر، أحد الأئمة الاثني عشر، تماماً كما شيدت الحوزات هنا.

(٢٩) أهمّها: «حوزة المرتضى» أسّسها السيد محمد حسين فضل الله (لبناني) عام ١٩٩٥، و«حوزة المصطفى للعلوم القرآنية»، أسّسها الشيخ جمال الوكيل (عراقي) الأمين العام لـ «حركة الوفاق الإسلامي» عام ١٩٩٥، و«حوزة الإمام القائم» أسّسها المرجع الديني محمد تقي المدرسي (عراقي) عام ١٩٩٦، و«حوزة أهل البيت» التي أسّسها السيد محمد الموسوي (إيراني) عام ١٩٩٦، و«حوزة الإمام السيستاني» أسّسها بالنيابة عن السيستاني الشيخ حليم الهبباني (وكلاهما إيراني) عام ١٩٩٦؛ وقد يكون هناك حوزات أخرى لم يكن بالاستطاعة التوصل إلى تاريخ تأسيسها، وغالب الظن أن بعضها أسّس في الحقبة نفسها (أي في الفترة الممتدة بين ١٩٩٤ - ٢٠٠٠ محل الدراسة الآن).

وعلى أية حال، فإنّ هذه الحوزات جميعها غير مسجلة في وزارة الأوقاف طبقاً للأمر الصادر عن مكتب نائب الرئيس تحت رقم ١، بتاريخ ١٢/١/١٩٩١، من قِبَل نائب رئيس الجمهورية الدكتور زهير مشاركة (انظر الهامش رقم ٢٧ من الصفحة السابقة).

(٣٠) وقد تمّ تدشين جمعية «بيت النجمة المحمّدية» يوم الثلاثاء ١١/٤/١٩٩٥ الموافق ١١ ذي القعدة ١٤١٥ هـ (يوم ولادة الإمام علي بن موسى الرضا) أحد الأئمة المعصومين في عقائد الشيعة (مدفون في مدينة مشهد في إيران)، وأقيمت نشاطات «النجمة المحمّدية» خلال الأعوام الماضية مثل «ندوة الإمام الحسن العسكري» السنوية التي تنعقد منذ عام ١٩٩٦ (في العاشر من ربيع الثاني من كل عام)، ونشاطات ثقافية واجتماعية متعدّدة؛ وكان التدشين قد حضره عدد من رجال الدين الأفاضل ووجهاء من المجتمع السوري والعراقي. انظر موقع النجمة المحمّدية على الإنترنت:

< <http://www.al-najma.org> >.

القرار الذي اتخذ بمنع الترخيص^(٣١) للحوزات بعد ذلك؟

بعد توقيع منظمة التحرير الفلسطينية اتفاق أوسلو (١٩٩٣) بأشهر؛ وفي كانون الثاني/يناير عام ١٩٩٤، توفي نجل الرئيس حافظ الأسد الأعز باسل (مواليد ١٩٦٢) الذي كان يعدّه لخلافته بحادث سير^(٣٢)، وكان هذا يعني بالنسبة إلى الأسد الأب ما يشبه انهيار مشروع الاحتفاظ المؤبد بالسلطة بتوريثها.

أصبح الأسد بحاجة إلى الأكثرية السنية مع معرفته البيقينية بالشماتة في عيونهم، وكان أوّل ما فعله هو جعل الشيخ البوطي (السني الكردي) إماماً في صلاة الجنازة. كانت إمامته دالّة على حاجة الأسد الماسّة للدعم السنيّ، وذلك على الرغم من أنّ هذه الإمامة شهدت تدافعاً واعتراضاً من قبل إمام مسجد ناعسة الشيخ فضل غزال أمام مرأى السوريين الذين تابعوا باهتمام استثنائي هذا الحدث عبر البث المباشر على شاشة القناة الأولى للتلفزيون السوري الرسمي. وحاجته لدعم سنيّ كانت تعني - في المقابل -

(٣١) لم تُمنح أيّ من الحوزات ترخيصاً قانونياً، واكتفت بالترخيص الأمني وغيض النظر عن نشاطها. والفرق بين الترخيص الأمني والترخيص القانوني هو أنّ الترخيص الأمني يعني عدم وجود مانع من قبل الأجهزة الأمنية بقيام هذه الحوزات، أمّا الترخيص القانوني فيعني انطباق قوانين وزارتي التربية والتعليم ووزارة الأوقاف، أو وزارة التعليم العالي عليها وتبعتها لها، وهو أمر لم يحدث لأسباب عديدة، منها رغبة الأسد ببقائها في وضع مؤقت وتحت عصا القانون، ومنها أيضاً عدم وجود قانون سوري يسمح بإنشاء المعاهد الدينية الأهلية أو مؤسسات التعليم العالي (الديني وغير الديني) الخاصة، هذا فضلاً عن أنّ نزعة الملالي التبشيرية نفسها وطبيعة التعليم الحوزوي لا تقبل الانصياع لمثل هذه القوانين.

(٣٢) في طريق مطار دمشق الدولي مسرعاً، ويقال بأنّ باسل كان في طريقه لزيارة أخيه مجد المختل عقلياً في مصحة نفسية في ألمانيا. انظر: ليفريت، وراثة سورية، م.س، ص ١٤١ وص ١٨٨ هامش رقم (١٢).

رغبته في الحيلولة دون استغلال الحدث لتأجيج طائفي يستهدف العلويين الذين انتشرت بينهم إشاعات تتهم السنة بالحادثة!

في هذا الطرف، بدأ الأسد يفكر جدياً في دفع المفاوضات مع الإسرائيليين لأسباب عديدة، أهمها أنه ليس بإمكانه توريث ابنه الطبيب بشار (مواليد ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٦٥) - الذي أقل ما يتصف به قلة الحنكة والدهاء وضعف الخبرة - وتركه عرضة لهزات سياسية محتملة في المستقبل بسبب هذا الملف. قرّر الأسد المضي قدماً لحل هذا الملف إذا كان ممكناً، فهو الملف الأكثر تأثيراً في الحياة السياسية السورية منذ الاستقلال. جرت ثلاث جولات من المفاوضات المكثفة والمباشرة مع الإسرائيليين في مركز المؤتمرات في معهد إسبن في واي ريفر (Aspen institute Wye River Conference Centers) تحت رعاية أمريكية (في ١٩٩٤، و ١٩٩٥، وفي أواخر ١٩٩٥ وأوائل ١٩٩٦)، وكان الأسد جاداً إلى الحد الذي أبدى رغبته للمفاوضين السوريين بالتعامل مع قضايا الأمن والتطبيع مع الإسرائيليين «بشكل بناء»^(٣٣).

كان الترتيب للملفات الداخلية والخارجية الخطرة في هذه الأجواء على قدم وساق، فالأسد كان معنياً بتهيئة كل الظروف من أجل توريث

(٣٣) وكان الأسد قد انطلق في مفاوضاته اعتماداً على ما صرّح به رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين أنه يوافق على مفاوضات تؤدي للانسحاب من مرتفعات الجولان إذا تمّ تحقيق المطالب الإسرائيلية في الأمن والتطبيع. ورايين كان يعتقد أن إنجاز «اتفاقية السلام مع سورية هي وسيلة الوقاية الفضلى من التهديدات التي تأتي من إيران والعراق؛ فتنحية إسرائيل عن هذين البلدين، وبناء ائتلاف إقليمي مشترك ضدهما، وعزلهما في المنطقة، يتوقّف كله على إيجاد قضية مشتركة مع سورية. ولعلّ رابين طرح عرضه مستغلاً الإحباط الذي أصاب الأسد نتيجة اتفاق أوسلو. انظر: دينيس روس، السلام المفقود: خفايا الصراع حول سلام الشرق الأوسط (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤)، ص ٦٤٥. وليفريت، وراثة سورية، م.س، ص ٩٨.

الجمهورية لنجله، وبدا أنَّ الأسد يميل إلى دعم إيراني في هذه الظروف، لكن الإيرانيين امتنعوا من الأسد؛ فقد كانت فكرة سلام سوري إسرائيلي تصيهم في مقتل وتطيح بنفوذهم في الشرق الأوسط، ولبنان على وجه الخصوص؛ فالاتفاق المعروض على الأسد سيحتوي بالضرورة ضمان أمن شمال إسرائيل على الحدود السورية واللبنانية^(٣٤).

كان الأسد في الوقت نفسه يفاوض جماعة الإخوان المسلمين، فهم المعارضة التي يجب أن يخشاها على مشروع التوريث؛ فالإرث الدموي الذي خلفته أحداث الثمانينيات، والمجازر المروعة التي ارتكبتها، ودماء آلاف الأبرياء جديرة بأن تثير قلقه من الانتقام. لكن الأسد أوقف مفاوضاته فجأة بعد أن وصلت إلى صيغة اتفاق واضحة مقبولة من الطرفين المفاوضين!^(٣٥). ومازال تفسير هذا

(٣٤) وقد أكّد دينيس روس المبعوث الأمريكي للسلام في الشرق الأوسط ذلك حين ذكر في كتابه أنَّ الأسد كان قد اتفق مع إيهود باراك بشكل غير مباشر وأولي (عن طريق رجل الأعمال الأمريكي رونالد لاودر القناة السرية لبنيامين نتياهو من خلال وليد المعلم) على عشر نقاط لتوقيع اتفاق السلام، كانت النقطة الرابعة حسب لاودر تنصّ على أن «يبدّل السوريون أقصى الجهود لضمان عدم القيام بمزيد من الأنشطة شبه العسكرية أو العدائية ضد إسرائيل انطلاقاً من لبنان». انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٦٤٨.

وبالفعل، فإنَّ الأسد عمل على كبح حزب الله والضغط عليه أثناء مفاوضاته مع الإسرائيليين كبادرة حسن نية لتشجيع الإسرائيليين على المضي قدماً فيها، في حين كان الإيرانيون يضغطون على حزب الله باتجاه معاكس. انظر:

Agha and Khalidi, *Syria and Iran*, Ibid., pp. 77-82.

(٣٥) توقفت المفاوضات مع الإخوان عام ١٩٩٦، والبدء بالمفاوضات مع الإخوان كان في منتصف الثمانينيات تمهيداً لتوريث الابن باسل. كانت المفاوضات تدور بشكل متقطع، لكنّها استؤنفت بشكل واضح وقوي بعد وفاة باسل عام ١٩٩٤. انظر:

سامي كليب، «علي البيانوني: مفاوضات الإخوان والسلطة، ج ٢»، الجزيرة نت، برنامج «زيارة خاصة» (القناة الفضائية)، بتاريخ ٣ كانون الأول/ديسمبر. يمكن مشاهدتها على الوصلة:

التوقف محط تكهّنات الإخوان أنفسهم إلى اليوم، إنّما ما يعيننا هو أنّ الملف كان مرتبطاً بجملة ملفات أخرى كانت بالنسبة إلى الأسد تؤدي إلى المشروع المصيري توريث الجمهورية. ويبدو أنّ تراجع الأسد عن الماضي قدماً في حلّ الملفين الداخلي (الإخواني)، والخارجي (السلام الإسرائيلي) يرجع إلى شعوره بعدم حاجته للسرعة بهذين الملفين، وربما بإمكانية استغنائه عنهما، فتكلفتها قد تطيح بالتوريث نفسه.

ذهب الأسد أبعد من ذلك لامتصاص النعمة السنيّة وإضعاف الإخوان المسلمين للتفكير بإيجاد حزب سنيّ منافس ليس له تاريخ مأسوي مماثل للإخوان، وذلك عندما استهوته فكرة إنشاء «حزب إسلامي معتدل»^(٣٦) بعد اتفاق مدريد، والسير نحو أوصلو الذي كان يخيف الأسد ويضيق عليه الخناق في «لعبة» السلام مع الإسرائيليين، لكنه سرعان ما تخلّى عنها عندما لم يجد لها صدى؛ إذ بدت فكرة المفاوضات مع الإخوان أكثر جدوى وضرورة لا بد منها^(٣٧).

< http://www.aljazeera.net/NR/exeres/5E34C6DF-C34E-4E6A-B01E-2005_6725A2774A0.htm?wbc_pur=pose=basic_current_current_Current_Current_Current >.

(٣٦) ذكر الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي (الشيخ السنيّ المقرّب من الأسد الأب والمعروف بعدائه للإخوان) أنّه عرض عليه إقامة حزب إسلامي، فرفض لقناعته أنّه سيكون حزباً يحتكر الإسلام لوحده، وينفيه عن الآخرين، وهو أمر لا يتفق معه. انظر: محمّد سعيد رمضان البوطي، «الجهاد كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟»، ط ٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩) (الطبعة الأولى كانت عام ١٩٩٣)، ص ٦٥ - ٦٦: «قبل لي ذات يوم: ألا ترى أنّ من الخير إضافة كرسي آخر إلى كراسي الجبهة الوطنية التقدمية في سورية اليوم؟ وكانت الإشارة إلى كرسي يمثلهم أن أكون أنا الممثل لهذه القوى الإسلامية».

(٣٧) يفسر الباحث الأمريكي فلاينت ليفريت عدول الأسد عن فكرة حزب إسلامي معتدل بخشيته من «أن يتحلل [هذه الحزب فيما بعد] شعار الإسلام المُقنّع الفعّال ويجعل =

وفي هذا السياق يبدو أنَّ السماح بحرية نسبية للشيعية في هذه الفترة والترخيص الأمني لمكاتب المراجع والحوارات العلمية الذي جرى بين عامي ١٩٩٤ - ١٩٩٦ كان - في جزء منه على الأقل - بمنزلة رشوة لم يجد الأسد لها صدى لدى الملالي في إيران، الذين يملكون مفاتيح حزب الله ومصادر قوته، والذين يطمحون للحصول على حرية مطلقة للتبشير الشيعي في كامل البلاد لإيجاد قاعدة اجتماعية موالية لهم. وعلى العكس كان الموقف الإيراني المتشدد تجاه السلام السوري مع إسرائيل يعني ضرورة الحد من نشاطهم وأتباعهم على الأراضي السورية قدر الإمكان، وفي الوقت نفسه الاستفادة من حزب الله كأداة ضاغطة على الإسرائيليين. وقَّع الأسد - في الحقيقة - في معادلة صعبة، جعلته يخفّف من وجود مؤسسات الملالي ونشاطها في سورية، وفي الوقت نفسه يدعم حزب الله ويمرّر السلاح له لاستثماره في المفاوضات التي لم تنتهِ بمقتل رابين إذ استمرت إلى عهد إيهود باراك، الذي - بدوره - لم يكن أقلّ حماساً من رابين لإنجاح مفاوضات سلام مع سورية وفق الشروط الرابينية. وبقي الأمر كذلك حتى مفاوضات جنيف

= حزب البعث يبدو لا إسلامياً، ويصبح بالتالي قناة لمعارضة حقيقية! ومع تقديرنا لهذا التفسير، فإنّه تفسير ساذج يفتقر لمعرفة عميقة بالحالة السياسية التي كانت قد انتهت إليها البلاد في مطلع التسعينيات، في ظل المفاعيل الأدبية لأهوال وفظائع النظام في معتقلي أحداث الثمانينيات، في ذلك الوقت يصعب تصديق أنَّ الأسد كان يشعر بالخوف من تحوّل الحزب إلى قوة منافسة تنازع حزب البعث أو تضعفه، فالحزب كان سيبقى تحت السيطرة بسهولة والرقابة الأمنية الاستثنائية، وبإمكان الأسد أن يحلّه في أي لحظة عندما يشعر بخطرهِ، ويجر أعضاء بسهولة إلى ظلام السجون، خصوصاً أنَّ أياً من بقايا المعتقلين بأحداث الثمانينيات لم يكن قادراً على التفكير (مجرد التفكير) بأي عمل سياسي إسلامي. انظر: ليفريت، وراثة سورية، م.س، ص ١٢٠. ويعزو ليفريت أيضاً إلى: ريمون هينبوش، سورية: سياسة السلام وبقاء النظام، سياسة الشرق الأوسط، ٣ (رقم ٤، ١٩٩٥)، ص ٨٣.

عام ٢٠٠٠؛ أي قبيل وفاة حافظ الأسد بأشهر قليلة في ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

طلائع الغزو الشيعي

مدّت الحوزاتُ الشبكةَ التبشيريةَ النشطة - التي تشكّلت لتوّها بأموال المرجعيات و«المحسنين» الخليجيين (الكويتيين بشكل خاص) ودعمهم المعنوي - بالسند الفكري والكادر التبشيري المؤسسي؛ فوجود الحوزات على الأراضي السورية يتطلب أساتذة ومدرسين منتدبين من قبل المرجعيات. وإنّه لأمر ذو دلالة أن تكون جميع إدارات الحوزات وكوادرها التدريسية والتعليمية - التي أسست في ذلك التاريخ (وحتى اليوم) - من جنسيات غير سورية (معظمها عراقية وإيرانية وبعضها لبناني)، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على هيمنة المرجعية الدينية الإيرانية والعراقية على الفكر الشيعي، وأنّ الأقلية الشيعية السورية الصغيرة جداً ليس لديها مرجعيات دينية ولا حتى مدرسين؛ ولهذا السبب كانوا دائماً محتاجين بالخارج.

وشهد عام ١٩٩٥ - بموازة المد الحوزوي - زيارات متكررة من قبل المرجعيات الدينية (الإيرانية والعراقية) والمستشارين الثقافيين الإيرانيين والوعاظ الشيعة الأجانب إلى أماكن التواجد الشيعي الضعيف، بغرض دعمه وتوسيعه في أنحاء مختلفة في سورية، خصوصاً في مناطق الجزيرة وحمص ودرا. وفي كل هذه الجولات حظي مقاماً حجير بن عدي الكندي (عدرا) وعمار بن ياسر (الرقّة) باهتمام استثنائي، فقد كان ملالي إيران يسعون لاحتلالهما على غرار ما فعلوا بمقام السيدة زينب والسيدة رقية من قبل.

وعلى سبيل المثال، في نهاية ١٩٩٥ كان الواعظ الشيعي العراقي عبد الحميد المهاجر. يجوب المحافظات ويهتم بشكل خاص بالمقامين المذكورين^(٣٨)، وفي زيارته هذه إلى مقام عمار بن ياسر أمرت السلطات آنذاك أئمة المساجد والخطباء والطلاب بحضور حفل خطابي يلقي فيه المهاجر كلمة عن الصحابي الجليل عمار؛ ولأن مقتل عمار يمثل علامة على الانحياز للحق مع علي بن أبي طالب وفق العقائد الشيعية، فإن الحديث عنه يعني بالضرورة حديثاً طائفاً. استفز حديثه هذا الشيوخ، ودار لغط كثير في الأوساط الدينية والشعبية ربما وصل صدهاء إلى المدن المجاورة، وكان تصاعد الحديث ينذر بتشكّل احتجاجات ليس مستعداً لها الأسد على الإطلاق، الأمر الذي دعاه إلى منع المهاجر من زيارته للمقامات وضبط حركته التبشيرية؛ فالأسد ليس مستعداً الآن لأي تأجيج للمشاعر الدينية، وهو بطبيعة الحال كان حذراً جداً من استفزاز الأكثرية السنية - تلك التي كان قد خبرها وأذاقها الأمرين - في الوقت الذي يمهد فيه لتوريث الجمهورية.

وافق حافظ الأسد عام ١٩٨٨ على طلب الحكومة الإيرانية بالسماح لها بالاعتناء بمقام الصحابي عمار بن ياسر^(٣٩)، والذي يضم فضلاً عن ضريح عمار بن ياسر ضريح كل من الصحابي أبي بن قيس النخعي والتابعي أويس القرني^(٤٠) في الرقة،

(٣٨) حول اهتمام المهاجر بمقام حجر بن عدي خصوصاً انظر: الهامش رقم (١٥) سابقاً في هذا الفصل.

(٣٩) انظر: إسماعيل الحججي، «مقام عمار بن ياسر: معلّم هام من معالم السياحة الدينية في الرقة»، موقع الرقة (الرسمي)، انظر الوصلة:

< http://www.craqqa.sy/_print.php?filename=2007051516510310 >.

(٤٠) وعلى الرغم من وجود قبر الصحابي الجليل وابصة بن معبد الأسدي - الذي روى عن النبي ﷺ ١١ حديثاً - في المقبرة نفسها، إلا أنه «مهمّل في الجامع القديم»، ولم يدخل في مشروع التجديد وإعادة الإعمار إياه!

و«الإشراف» على ترميمه وتوسعته وبناء جامع كبير عليه كأحد المقامات المقدسة للشيعة، وذلك بالتعاون بين الدولتين، حيث ينجز الجانب الإيراني لوحات الفسيفساء والقيشاني، وينفذ السوريون الحجر المفروز والبلاط^(٤١).

«والمقام في أصله جزء من مقبرة الرقة، وفيها مجموعة من القبور التي يُعتقد أنها لقتلى حرب صفين بين معاوية وعلي بن أبي طالب، وقد درست أغلبها باستثناء قبر عادي يحمل شهادة تفيد بأنه قبر الصحابي عمار بن ياسر، وقبر أهم لأويس القرني، إذ بنيت عليه غرفة صغيرة وقبة يزورها الناس، وعليها كتابة بالعربية تفيد أنه قام بتجديد هذا المقام «مسلم الرقي بن علي آغا بن المرحوم إسماعيل آغا» سنة/١١٥٢ هجرية.. وهذا يعادل/١٧٣٧ م، جرى ذلك في زمن «رضوان باشا» والي الرقة والرّها المقيم في أورفا. ثم جرى تجديد آخر للقبة في زمن السلطان العثماني «عبد المجيد خان». كما أشار الرحالة الألمانى أرنست هرتزفيلد أثناء زيارته للرقة عام ١٩٠٧، أما بقية القبور فلم يُعتن بها وتركّت كما هي، والبعض يشك في صحة الرواية.

وفي سنة/١٩٨٣ م بدأت المحافظة بإزالة القبور القديمة والحديثة لتشييد على أنقاضها حديقة ومنتزهاً عاماً، ثم وافقت الحكومة السورية على طلب إيران عام ١٩٨٨، السماح لها بالاعتناء بمقام الصحابي عمار بن ياسر، وضريح كل من الصحابي أبي بن قيس النخعي والتابعي أويس القرني في الرقة، والإشراف على ترميمه وتوسعته وبناء جامع كبير عليه كأحد المقامات المقدسة الشيعية المقام بشكله الحالي يضمُّ ثلاثة أبنية منفصلة، واحد

(٤١) الحجبي، «مقام عمار بن ياسر»، المصدر السابق نفسه.

للسحابي عمار بن ياسر، والآخرون للتابعين أويس القرني وأبي بن قيس النخعي رضي الله عنه جميعاً، كما يحوي الطابق العلوي للمقام غرفاً وصالات ومطابخ لاستقبال الزوار واستضافتهم طول فترة الزيارة»^(٤٢).

ولكن الأضرحة كانت في مقبرة سنّية ومدينة سنّية لم يسبق أن عرف أهلها التشيع، ولما كان من مقتضيات التوسعة^(٤٣) تجريف القبور - كما جرى من قبل في مقبرة آل البيت في باب الصغير^(٤٤) في دمشق - فقد رفض الأهالي نقل موتاهم، «عندما رفض الناس رفع جثث موتاهم أصدر المحافظ أمراً تنفيذياً بإلزام المواطنين بنقل الجثث وإخلاء المقبرة تحت طائلة دثرها. وقد بني على أطلال المقبرة مركز شيعي وجامع كبير»^(٤٥). وبدأ العمل في المقام بشكل بطيء خلال الفترة ١٩٨٨ - ٢٠٠٠، وكانت حركة الإعمار ووتيرتها الباردة خلال هذه الفترة تعكس في الواقع السياسة التي انتهجها حافظ الأسد تجاه الإيرانيين.

(٤٢) أنور بدر، «مقام الصحابي عمار بن ياسر في الرقة: في صراع الطوائف والطائفية»، القدس العربي، ١٢ آب/أغسطس ٢٠١٣.

(٤٣) كان المطلوب مساحة ٥٠ ألف متر مربع للضريح والأبنية الملحقة له والصحن، يشكل البناء وحده (عدا الصحن) مساحة ١٧ ألف متر مربع منها ٧٣٠ متراً مربعاً لمقام عمار بن ياسر والذي يبلغ ارتفاع القبة فيه ١٢ متراً، وكذلك هي مساحة مقام أويس القرني، أما مقام أبي بن قيس النخعي فتبلغ مساحته ٣٢٥ متراً مربعاً وارتفاع القبة ٩ أمتار فقط. انظر: المصدر نفسه.

(٤٤) معظم كتب التاريخ تشير إلى أن ما تبقى من أسرة الحسين وبعد القدوم إلى دمشق بعد معركة كربلاء لم تستقر في دمشق بل رجعت إلى المدينة المنورة.

(٤٥) المحامي عبد الله الخليل (ناشط حقوقي من أهالي مدينة الرقة)، انظر: «استراتيجية إيران لنشر التشيع في سورية»، صحيفة الوطن العربي، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٦.

والطريف أنَّ للصحابي عمار بن ياسر مقاماً آخر في سورية في قرية عريقة (محافظة السويداء)، على تلٍّ مسمّى باسمه شمالي القرية! ^(٤٦) ولا يستبعد أن يفكر الإيرانيون لاحقاً في احتلاله ليصبح له مقامان، فقد اعتاد الملالي على احتلال المقامات وتعدّدها ^(٤٧).

ويبدو احتلال المقامات السنّة المتعلقة بالصحابة والتابعين وآل البيت أمراً مستفزّاً وطائفيّاً، فالموجة الكبيرة من الاحتقان ضد الشيعة في سورية، والتي أثارها تدشين مقام عمار بن ياسر (عام ٢٠٠٤) لم تهدأ حتى اليوم، ومع ذلك يبدو احتلال مقامات موجودة والاستيلاء عليها أمراً مفهوماً في بنية الوعي الشيعي الغارق في التاريخ المأسوي لموتاه المظلومين، واحتكار «أهل البيت» له، و«نفي» أيّ شرعية لعلاقة الآخرين (لاسيما السنّة) بهم، كلّ ذلك - على الرغم من عدم أخلاقيته - يبدو مفهوماً إلى حدّ ما، إلا أنّه من غير المفهوم اختلاق مقامات لا أساس تاريخياً لها، كما في مقام السيدة سكينة بنت علي بن أبي طالب في مدينة داريا، ومقام محسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ^(٤٨) قرب مشهد النقطة في حلب.

(٤٦) وعريقة هي قرية صغيرة تقع في جنوب سورية وتتبع لريف محافظة السويداء، سكانها قرابة ٧ آلاف نسمة وتقع في منطقة اللجاة المنخفضة عن سفح الجبل. تبعد عن مركز مدينة السويداء حوالي ٣٠ كيلومتراً.

انظر: عريقة (قرية)، ويكيبيديا (الموسوعة الحرة)،

< https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9_%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A9 >.

(٤٧) على سبيل المثال: للحسين مقام في دمشق (حيث دُفن رأسه)، وآخر في كربلاء (حيث قُتل)، وثالث في القاهرة! وللسيدة زينب مقام في ريف دمشق، وآخر في القاهرة! والسيدة سكينة بنت الحسين لها مقام في دمشق (مقبرة باب الصغير)، وآخر في القاهرة.

(٤٨) ومقام «مُحسين بن الحسين» الذي بدأ يتردّد على ألسنة الشيعة مؤخراً في الحقيقة =

ففي أحد أيام عام ١٩٩٩ استيقظ أهالي مدينة داريا - المدينة السنية المعروفة بتمسكها بسنيّتها، والواقعة في الغوطة الغربية لمدينة دمشق - على لافتات (عند تحويلة أوتوستراد المزة لمدخل المدينة، وفي مركز المدينة عند الجامعة «المقبرة») تشير إلى مقام صغير شُيّد حديثاً في منطقة قريبة من مبنى البلدية باسم «مقام السيدة سكيّنة بنت علي (ع)»، وقد بني على عقار يتبع للملكية العامة، والأهالي على يقين إلى اليوم بأنّ مقاماً كهذا لم يكن موجوداً في داريا من

= هو ما يُعرف لدى أهالي حلب بـ«مقام الشيخ محسن». ويعتقد أهل حلب أنّ الشيخ محسناً هذا أحد الأولياء الصالحين.

يقع المقام داخل مسجد سنيّ تاريخي عريق مسمّى باسمه (مسجد الشيخ محسن)، يبعد بضع مئات من الأمتار عن مشهد النقطة الشيعي، ولم يُذكر هذا المقام حتى في دولة الحمدانيين، ولا توجد فيه آية إشارة تدلّ على علاقته بأهل البيت، لكن الماللي حاولوا ربطه بمشهد النقطة - الذي يقال إنّ السبايا مررن به مع رأس الحسين - تمهيداً لاحتلاله والاستيلاء عليه.

وبما أنّه لم يرد في أي من كتب التاريخ (بما فيها كتب الشيعة) اسم «محسن بن الحسين»؛ فقد ابتكروا نظرية مفادها أنّ «الشيخ محسن» ما هو إلا سقط لإحدى نساء الحسين اللائي أخذن كسبايا إلى يزيد بن معاوية عام ٦١هـ! وبالتأكيد استعاروا هذا الافتراض من اعتقاد سائد لدى الشيعة بوجود سقط باسم «محسن بن علي» شقيق للحسين الذي يعتقدون بأنّه كان جنيماً حين أراد أهل السقيفة الدخول عنوة إلى بيت علي وفاطمة لأخذ البيعة منهما رغماً، فقاوسوا عليه وابتكروا نظريتهم هذه. وثمة مساع متزايدة للاستيلاء عليه واحتلاله، وهي مساع كانت تشير قلق أهالي مدينة حلب وتبعث على التوتر الطائفي، خصوصاً وقد أصبح مزاراً يتكاثر زواره يوماً بعد يوم، مع تزايد انتشار نظرية السقط وشيوعها لدى الشيعة ومروّجي السياحة الدينية في إيران والعراق ولبنان.

حول هذا التفسير انظر ما ورد في تقرير الشمري، «مهرجان خطابي في الرقة لإحياء لذكرى استشهاد الصحابي عمار بن ياسر» (مصدر سابق). وحول اعتقاد الشيعة بالسقط «محسن بن علي» انظر: تقرير «السلطات الإيرانية تعتقل منظمي مجلس عزاء للمحسن السقط! (عليه الصلاة والسلام)»، مجلة المنبر (الكويت)، العدد ١٤ (ربيع الآخر ١٤٢٢هـ تموز/يوليو ٢٠٠١م). يمكن قراءته على الوصلة:

<<http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm>>.

قبل، وحتى كتب التاريخ الكثيرة التي اعتنت بتاريخ هذه المدينة^(٤٩) لا تذكره، على الرغم من اشتهار وجود عدد من الأضرحة فيها، كضريح التابعي الجليل «أبو مسلم الخولاني» (٥١هـ)^(٥٠). وفي حين ينفي الأهالي بشكل قاطع وجود أصل لهذا المقام يزعم الملالي أنَّ هذا المقام وُجد «ضمن عقار مستقل مسجل في السجلات العقارية منذ أيام الاحتلال الفرنسي والعثماني قديماً، وقد سُجِّل بفتحة سماوية تحوي بثر ماء وشجرة كينا وشجرة رمان، ومقاماً يدعى «سكينة بنت الإمام علي» كرم الله وجهه، وكان لغرفة

(٤٩) مثل كتاب تاريخ داريا لعبد الجبار بن محمد بن مهنا الخولاني، وهو أشهر وأهم الكتب التاريخية وأوثقها عند المؤرخين عن مدينة داريا، ولم يذكر أي من كتب التاريخ الأخرى وجود مقام في بلاد الشام لسكينة بنت علي بن أبي طالب. إنَّما ذكر بعض المؤرخين احتمال وجود مقام لسكينة بنت الحسين (وليس بنت علي) في ظاهر دمشق، ولكن رجَّح ابن عساكر ما ذهب إليه سائر المؤرخين أنَّ سكينة بنت الحسين دُفنت في المدينة المنورة، وعلى هذا الأساس يقول المؤرخ ابن عساكر: «والصحيح أنَّها ماتت بالمدينة وأمرهم الوالي ألا يدفنها حتى يحضرها، وركب إلى بعض أحواله بنواحي المدينة وكان اليوم حاراً، فتغيرت رائحتها، واشترى لها طيب كثير ليغلب الرائحة فلم يغلب، ثم بعث إليهم أن ادفنوها فإني مشغول، فدُفنت ولم يحضر». انظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس وآخرون (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٤) ج ١، ص ٣٠٥.

ولا بد من الإشارة إلى أنَّ للسيدة سكينة مقاماً في «مقبرة باب الصغير» ذكره ابن جبير في رحلته، وهو قائم إلى اليوم، وبالتأكيد هو الذي ذكره ابن الأكفاني، وقد شاهدناه أثناء زيارتنا للمقبرة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، وهو مقام يعرفه الشيعة جيداً، وخصوصاً شيعة دمشق؛ لأن مسؤولية العناية به رسمياً في عهدتهم، والمقام مجدَّد وعليه لوحة تذكر تاريخ التجديد، واسم الذي تكفل بتمويل تجديده.

(٥٠) يعقوب بن عوف، أو ابن عبد الله، واعتنق الإسلام في حياة النبي ﷺ، وقيل في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق، وقيل في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. أصله من اليمن، قدم المدينة المنورة في عهد «أبي بكر»، وسكن الشام في عهد معاوية؛ فنزل بداريا، وهو قارئ أهل الشام.

المقام زقاق ضيق بجانبها، ولها نافذة حجرية يضع الناس عليها بعض الشموع أو أشياء أخرى»^(٥١).

شُيّد المقام المُختَلَق - والذي لا تعترف به أي من كتب التاريخ ووقائعه - وأصبح الآن واقعاً شاء من شاء وأبى من أبى! وبذلك أوجد الملالي بؤرة تشييع جديدة تسمح لهم بالتمدد مادياً ومعنوياً؛ وليس لاختراع المقام - وهي عادة متأصلة للملالي أيضاً^(٥٢) - واحتلال المركز السنّي (داريا) سوى هذا المغزى، ومن غير المستبعد إطلاقاً أن تكون ثمة فكرة تداعب خيالهم في تحويلها إلى قُم ثالثة على غرار السيدة زينب.

الاستيطان

تنشأ المقامات ويتم بعثها أو اختلاقها، الأمر سيان؛ فهي تحتفظ بنفس التأثير وتؤدي نفس الدور الديني والسياسي، ويبدأ

(٥١) من كلام المهندس المشرف على إعمار المقام، انظر: أحمد عرابي، «إعادة بناء مقام السيدة سكينة: إحياء جديد لرمز ديني وتاريخي عريق»، تقرير في موقع عكس السير (٧ آب/أغسطس ٢٠٠٧)، على الصلة:

< http://www.aksalser.com/?page=view_articles&id=09d0ce08fe485cbce6c1ce2974dc6dac >.

(٥٢) يمثّل اختلاق «مشهد النقطة» بحلب مثلاً نموذجياً لذلك، فهو بحد ذاته مبني على فكرة أسطورية (نقطة دم سقطت من رأس الحسين!)، وقصة بنائه أيام الحمدانيين تدل بوضوح على ذلك كما تثبت الروايات التاريخية. وأيضاً مثله ما ذكره ابن جبير في رحلته، من «مسجد للشيعنة قرب دمشق، ينسب للصحابي الجليل علي بن أبي طالب، فيه حجر عظيم، قد شُقَّ بتصفين والتحم بينهما، ولم يبن النصف عن النصف بالكلية، يزعم الشيعة أنّه انشق لعلي إما بضربه بسيفه أو بأمر من الأمور الإلهية على يديه. ولم يذكر عن علي أنّه دخل قط هذا البلد، اللهم إلا أن زعموا أنّه كان في النوم، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لا تصح لهم جهة اليقظة. وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد!». كما يذكر ابن جبير، والذي يعقب بالقول: «وهذا من أغرب مختلقاتهم!» انظر: محمّد بن أحمد الكتاني بن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت: دار التراث، ١٩٦٨)، ص ٢٤٠ و ٢٥٢.

الزوار يتقاطرون من إيران والعراق ولبنان والخليج، وتروّج المرجعيات والمبشّرون ومكاتب السياحة الدينية لزيارتها، وتصبح الصور والمقتنيات التذكارية حاجة للزوّار المتكاثرين، سرعان ما يكتشفها الأهالي، فينشأ مع الأيام - وبسرعة كبيرة تواكب تزايد التدفق - سوق في المباني والمحال المجاورة، وشيئاً فشيئاً يصبح بقاء المقام جزءاً من معاش الأهالي!

يُعاد بناء المقام على هيئة مكان مهيب أو يتم توسعته ليزيد ذلك من اجتذاب الزوار المتبركين ومن كادره الخدمي، ويبدأ بالتحول إلى مركز تبشيري، ويبدأ سعي المتدينين والمرجعيات الدينية للإقامة بجوار المقام، ويتحول الأمر إلى وجود شيعي اجتماعي واقعي مع مرور الأيام. ومن الطبيعي أن تنتشر الفارسية (لغة الحجاج والزوّار) على الألسنة وواجهات المحال التجارية المجاورة للمقام، وسرعان ما تبدأ فكرة «الحسينيات» و«الحوزات» بجوار المقام «المقدس» تستحوذ على تفكير المراجع الدينية، الذين سيتنافسون على وجود مؤسساتهم بجواره تنافساً أساسه التنافس على الأتباع.

عقد من الزمن كفيل بأن يجعل أي مكان من الأماكن التي يشيدون فيها مقاماً يتحول إلى مركز تبشيري واجتماعي شيعي، لتبدو منطقة المقام كما لو أنها قطعة أرض هاربة من بلاد فارس، أو أبنية من أجواء قصص ألف ليلة وليلة! فشكل الأبنية والقباب على الأضرحة وملحقاتها يُبنى دوماً وفق النمط الفارسي حصراً، وبالتأكيد فإنّ هذا الأمر له دلالة الرمزية والنفسية للشيعية العرب، وعلاقتهم الاعتقادية بإيران، الجمهورية الإسلامية الممهدة لظهور «المهدي المنتظر».

هذا التسلسل لقصة الاستيطان يصدق على كل المقامات المشيدة حتى الآن، بدءاً من مقام السيدة زينب^(٥٣) الذي بدأ احتلاله في السبعينيات، وصولاً إلى مقام السيدة رقية الذي احتل في تلك الفترة أيضاً، مروراً بمقام الصحابي الجليل عمار بن ياسر، الذي مثلت إزالته لاحقاً رمزاً للمواجهة مع إيران،^(٥٤) والقصة نفسها أيضاً تجري الآن في مدينة داريا حيث مقام السيدة سكيئة الجديد، وفي عدرا حيث ضريح الصحابي حجر بن عدي الذي جرى تهديمه ونبشه وتهديمه لاحقاً للسبب ذاته الذي أزيل فيه قبر عمار بن ياسر في الرقة^(٥٥).

(٥٣) «إنَّ أحداً لم يكن يعرف بأنَّ مقام السيدة زينب سيجذب هذه الأعداد الهائلة من السكان، و...» إنَّ الجولانيين عندما نزحوا إلى هنا بعد حرب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧ كانت المنطقة كلها مزارع وبساتين مزدهرة، وكانت الأرض رخيصة الثمن جداً، والأمر بقي كذلك حتى منتصف الثمانينيات، عندما التفت الإيرانيون إلى أهمية المنطقة الدينية وبدأوا زيارتها بأعداد كبيرة جداً. من كلام لأحد النازحين من الجولان. انظر: حول السيدة زينب وتحولها مدينة للسياحة الدينية - تقرير من دمشق: محمد خضر، «السيدة زينب... شو صاير؟ بلدة السيدة زينب التي يؤمها حوالي مليون زائر سنوياً... ضاحية دمشق المزدهرة رغم فقرها وعتبة الزوار العراقيين والإيرانيين»، «الحياة» (لندن)، ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦.

(٥٤) فجرت جبهة النصرة مقام الصحابي الجليل عمار بن ياسر في آذار/مارس ٢٠١٣، واتخذت باقي الأبنية مقراً لها، وفي آذار/مارس ٢٠١٤ فجر تنظيم الدولة ما تبقى من الأبنية بما فيها مقام التابعي الجليل أويس القرني.

(٥٥) نبشت مجموعة مسلحة مجهولة نسبت نفسها إلى الجيش الحر القبر وقامت بتهديم أجزاء منه في ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠١٣، أي بعد شهر من تفجير مقام عمار بن ياسر في الرقة، وبعد أن سيطرت قوات النظام على المنطقة التي يقع فيها القبر في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠١٤. ولا توجد جهة تبنت عملية النيش هذه حتى اليوم، وتوقفت نيش القبر يأتي بعد يوم واحد من إعلان زعيم ميليشيا حزب الله عن دخوله إلى سورية لحماية المقامات المستهدفة في سورية! مما يرجح فرضية أنها مدبرة من قبل النظام في إطار إيجاد الذرائع لتدخل ميليشيا حزب الله والميليشيات الإيرانية الشيعية الأخرى لدعم النظام. انظر: فارس =

شهدت الفترة هذه (١٩٩٠ - ٢٠٠٠) وفود أعداد كبيرة من المهاجرين العراقيين الشيعة كانعكاس لظروف الحصار الدولي المفروض على العراق، وانعكاس لبطش النظام العراقي إثر انتفاضة الجنوب الشيعي (١٩٩١)؛ لكن أعدادهم حتى نهاية التسعينيات لم تكن من الكثرة بحيث تضاهي الزوار الإيرانيين، إلا أن العراقيين كانوا مقيمين، في حين كان الإيرانيون زواراً لا يلبثون أن يرحلوا بعد وصولهم بأيام.

انخرط طلاب العلوم الدينية من العراقيين الشيعة وملايهم في الحوزات العلمية^(٥٦) القائمة في السيدة زينب، وساهموا في تأسيس حوزات وحسينيات جديدة، وأموا وأداروا حسينياتها، ووفقاً لشهادة مختار البغدادي مدير «حوزة المصطفى»، فإنه «بعد استقرار جمع كبير من الإخوة العراقيين في بلاد الشام، وبالذات في منطقة السيدة زينب (عليها السلام)، ومن مختلف الكفاءات والمحافظات العراقية، تبلورت جملة من التصورات في أذهان العلماء والمتصدين للقضية الدينية في ضرورة بناء المؤسسات الدينية التي تتبنى مسؤولية بناء شخصية الإنسان المؤمن بناءً تخصصياً»^(٥٧).

= الرفاعي، «ركبوا لحجر بن عدي رأساً بعد أكثر من ١٤٠٠ سنة على قطعه!»، صحيفة زمان الوصل، ٨ أيار/مايو ٢٠١٣. على الوصلة:

< <https://www.zamanalwsl.net/news/38205.html> >.

(٥٦) معظم مديري الحوزات هم من الشيعة العراقيين المهاجرين، مثل: جلال معاش (مدير الحوزة الزينية)، ومختار البغدادي (مدير حوزة المصطفى)، وقد سبقه في إدارتها بين ١٩٩٥ (تاريخ الإنشاء) و٢٠٠٠ كلٌّ من: الشيخ جعفر الحائري والشيخ صفاء الخطيب والسيد مصطفى السادة.

(٥٧) انظر: حيدر السلامي، «حوزة المصطفى للعلوم القرآنية في دمشق... صرح علمي شامخ: حوار مع مدير «حوزة المصطفى» مختار البغدادي، الوكالة الشيعية للأبناء (إباء)، ١٨ تموز/يوليو ٢٠٠٧، انظر الوصلة:

< <http://www.ebaa.net/khabar/013/013.htm> >.

وبدأت معالم السوق والمحال التجارية تتلَوّن بالصبغة العراقية منذ نهاية التسعينيات^(٥٨)؛ أي بعد الحظر الذي فُرض على العراق إثر عملية ثعلب الصحراء في عهد الرئيس كلينتون، والذي يقوم على مبدأ «النفط مقابل الغذاء» والدواء طبعاً، وبكل مقتضيات البيئة الاجتماعية والاقتصادية الشيعية العراقية صبغت الأزقة الرئيسية للسيدة زينب، وذلك بجوار الحضور الإيراني المحصور في إطار انتشار اللغة وتجارة السياحة الدينية، ولتلبية الاحتياجات المتزايدة لمركز ديني تعليمي بدأ عدد كبير من المكتبات ينشأ لتسويق الكتب الدينية التبشيرية والحوزوية التعليمية في الشارع الرئيسي للسيدة زينب، وسرعان ما ظهرت - بطبيعة الحال - بعض دور النشر الشيعية في سورية (مثل: مكتبة دار الحسين)^(٥٩).

(٥٨) خضر، «السيدة زينب»، الحياة، م.س.

(٥٩) المكتبات تقوم بطبيعة الحال بدور تبشيري، وصاحب دار الحسين أبو ميشم (محمد علي اليوسفي/ إيراني الجنسية) مبشّر نشيط، لعب دوراً في تشييع محمد يوسف قمجي (أوّل من تشييع من أهالي الضمير في ريف دمشق). وحسب شهادة عدد من الأشخاص الذين تمّت مقابلتهم فإنّ أبا ميشم كان ممّن يعرض على طلبة العلوم الدينية السُنّة والمثقفين المتدينين الذين يأتون إلى مكتبته الكبيرة في السيدة زينب الدراسة الحوزوية في قم. واليوسفي ولد في عام ١٩٥٥ في مدينة كربلاء العراقية، وغادر العراق عام ١٩٦٧م متوجّهاً إلى طهران، حيث عمل كمحاسب في أحد البنوك الإسلامية، إضافةً إلى عمله في مجال الطباعة والنشر، وانتقل في عام ١٩٨١ إلى سورية، حيث عمل في الكادر الإداري للحوزة العلمية الزينية. وأثناء إقامته في سورية قام في الثمانينيات بتأسيس «مؤسسة البلاغ» في بيروت، التي تعنى بطباعة ونشر الكتب الشيعية، حيث طبع مئات الكتب من أمّهات كتب الشيعة.

حول دوره في تشييع القمجي الذي أدخل التشيع إلى بلدة الضمير في ريف دمشق، انظر: آل قطيط، المتحولون، م.س، مقابلة مع السيد محمد يوسف قمجي، نص المقابلة في الكتاب على الموقع الإلكتروني:

< <http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm> > .

وحول السيرة الذاتية لمحمد علي اليوسفي، انظر مقابلة معه في موقع الشيرازي نت، بتاريخ ١٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥م، الموافق لـ ١٣ شعبان ١٤٢٦هـ، على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/legaat/legha/shahid/010.htm> > .



الفصل الرابع

احتلال المركز

الزحف (٢٠٠٠ - ٢٠٠٧)

«هذه الحوادث التبشيرية التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان، إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث - وهنا موضع استيائنا وعليه احتجاجنا - هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير وشراء ضمائر ضعيفة كما تُشترى السلع لتمرق من دين إلى دين آخر... ويا للأسف، حالتنا أن يصادف المرء بين قومه أناساً يتخذون أقدس العقائد بضاعة للاتجار بها في سوق التجارة السياسية».

من عريضة لبعض شيوخ وزعماء الطائفة العلوية إلى الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٣٦

لا شيء يفلت من قبضة التاريخ، ولا شيء من التاريخ يبقى على حاله، وثمة منعطفات في التاريخ ليست أكثر من نتائج تراكم تاريخ سبقه. على هذه القاعدة تسير قصة التشيع في سورية، فحركة التشيع التي مارسها ملالي إيران لاسترداد علويي الجبل النصيريين إلى أصلهم، مروراً بالتبعيث الشيعي الذي مارسه جمعية الإمام المرتضى لأغراض سياسية محلية، وصولاً إلى التمدد الشيعي وزراعة المقامات و«المراكز الدينية» في أواخر التسعينيات، أمرٌ كان له أن يسمح بانعطافة نوعية لهذه القضية في عهد وارث الجمهورية

عن أبيه، بلغت حداً جذبت فيه اهتمام المجتمع الدولي والقوى الفاعلة في الشرق الأوسط.

أولاً: وراثة الحلفاء (٢٠٠٠ - ٢٠٠٣)

توريث العلاقات السياسية جزء من توريث «المُلك». على هذا الأساس بدأ نجل الأسد (بشار) بمقابلة القادة الأجانب الذين يزورون دمشق منذ ١٩٩٩، ووجد الأب ضرورة بناء صلة لنجله مع جاره الملك الجديد عبد الله الثاني، بعد وفاة والده العاهل الأردني الملك حسين بن طلال في كانون الثاني/يناير ١٩٩٩، فأوفد بشار في شهر شباط/فبراير (الشهر التالي) معزياً الملك عبد الله، وكانت هذه الزيارة هي الزيارة الخارجية الأولى له للقاء القادة والزعماء السياسيين. تتالت بعدها الزيارات إلى الكويت، والسعودية، وقطر، وإيران، وعدد من الأقطار والبلدان الأخرى، على رأس وفد من كبار الصناعيين ورجال الأعمال وبعض من المسؤولين من الصفوف الثانية في وزارات الدولة^(١)، وكان الأمر واضحاً ومعلومًا لكل الذين زارهم أن زيارته ليست إلا تسويقاً للرئيس المقبل.

حظي الرجل بالترحيب من قبلهم، وبحفاوة خاصة من الإيرانيين، الذين قدم إليهم وقد أصبح ممسكاً بالملف اللبناني وحزب الله على وجه الخصوص^(٢)؛ إذ كان القادة الإيرانيون

(١) حظيت هذه الزيارات جميعها بتغطية غير مسبقة من قبل الإعلام المحلي المرئي والمسموع والمكتوب، وبما أن بشار الأسد لا يحمل أي صفة رسمية في هذه الزيارات فقد كان الإعلام ينعتة بلقب «الدكتور» بدون أي إضافة!

(٢) تسلّم بشار الأسد الملف اللبناني من عبد الحليم خدام نهاية عام ١٩٩٨، وكان خدام مسؤولاً عن الملف اللبناني خلال ما يزيد على عشرين عاماً: انظر: ليفريت، وراثة سورية، م.س، ص ٢٠٤.

مهتمين بمعرفة الرجل عن قرب، وبناء علاقة جيدة معه، فلديهم مصالحهم في لبنان وهو منذ الآن بات يملك مفاتيحها.

لكن هذا التسويق الخارجي جاء بعد تسويق داخلي، وتوريث للعلاقات مع أطراف المجتمع المحلي واللبناني (الذي كان يعامل كما لو أنه جزء من المجتمع المحلي)، وفي هذا السياق حاول الأسد كسب شعبية لابنه، عبر كسر الصورة النمطية (تلك التي أسسها بنفسه) للرئيس القابع في قصره وعلى مسافة من شعبه ومواطنيه، وعبر زيارات متكررة للمدن السورية الرئيسية، وحضور بعض المحاضرات العامة^(٣)، لكن الأهم في ذلك كله كانت علاقة الأسد الابن مع ملالي الشيعة، تلك العلاقة التي سعى لتوطيدها كل منهما للأسباب نفسها التي دعت حافظ الأسد ليمنحهم قدراً من الحرية لم يعهدوها من قبل.

يمثل التيار الشيعي (تيار عودة الفرع إلى أصله) القوي في الطائفة العلوية سنداً قوياً وداعماً للأسد، فلطالما كان الأسد الأب مؤيداً لهذا التيار لإخراج الطائفة من عزلتها الفكرية والاجتماعية، وكانت زعامات التيار تبادل التأييد والمؤازرة. وعلى الرغم من صغر حجم الأقلية الشيعية الأصلية في سورية، وكونها ليست مغنماً بالنسبة إلى بشار الأسد، إلا أن قوة التيار الشيعي في الطائفة العلوية تجعل التودد وإنشاء العلاقة الإيجابية معها ذا معنى بالنسبة إلى مستقبله السياسي في طائفته (العلوية) التي تملك نفوذاً استثنائياً في تركيبة السلطة والجيش والحزب وقوى الأمن^(٤)، فضلاً عن

(٣) مثل المحاضرات الأسبوعية لـ «منتدى الثلاثاء الاقتصادي» في «المركز الثقافي»

في منطقة المزة في دمشق، خصوصاً بين عامي ١٩٩٨ - ١٩٩٩.

(٤) بدءاً بعهد الرئيس أمين الحافظ (١٩٦٣ - ١٩٦٦) مروراً بعهد نور الدين =

علاقة ذلك بملائي إيران ولبنان، وكلهم يمتلكون أهمية غير عادية، فالملف الشيعي ملف يتعلق بالداخل والخارج على السواء، وعليه (أي الرئيس المقبل) أن يحسن معرفته ومواده.

من المؤكد أن باسل الأسد كان يلتقي شيخ بلاط والده ورجل الدين السنّي الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي^(٥)، إضافة إلى الشيخ مروان شيخو، ومفتي الجمهورية الشيخ أحمد كفتارو، ويتودّد إليهم بأسئلة واستفتاءات دينية فقهية! كان الأسد في ذلك الوقت مازال قريباً من أزمة الثمانينيات وتداعياتها، ويريد لجم الأحقاد السنّيّة، فالطريق إلى توريث آمن هو ضمان تسكين عواطف الأكثرية السنّيّة، وتأمين عدم ثورتها الانتقامية عبر شيوخ يكتسبون قدراً وافراً من الثقة الشعبية، وإن كان هذا لا ينفي أن الأسد كان مهتماً بالتّيار الشيعي العلوي وإن بقدر أقل، فقد كان يعتمد على توريث نجله القوي (باسل) على مفاصل الجيش ويمهد له الأمن. لكنّ نجله الوريث الضعيف جاء في غير ميعاد، إثر حادث مفاجئ أودى بحياة شقيقه باسل نهاية عام ١٩٩٤، الأمر الذي اضطر الأسد الأب لتغيير استراتيجيته للتوريث.

كان على الأسد أن يتبع استراتيجية تمكّنه من حرق المراحل لتحقيق هذا الغرض، فالمطلوب حلّ سريع للملفات المزمّنة

= الأتاسي (١٩٦٦ - ١٩٧٠)، كان هناك عمل مستمر لتطيف الجيش وحزب البعث وعلونتهما وفي عهد حافظ الأسد (١٩٧٠ - ٢٠٠٠) استمرت هذه العملية، ولكن أضيف إليها علوّنة السلطة والأجهزة الأمنية. حول عملية التطيف العلوي هذه، ونتائجها في تركيبة القوى السياسية والاجتماعية وأجهزة الأمن والجيش والحزب، وعلاقتها بأحداث الثمانينيات وما بعدها، انظر: سورا، سورية، م.س، ص ٣٤ - ٣٥

(٥) انظر: محمّد سعيد رمضان البوطي، هذا ما قلته أمام بعض الرؤساء والملوك (دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١)، ص ١٠١.

والخطرة أو سيطرة سريعة وقوية عليها، وبالتالي بدلاً من العلاقة مع الشيوخ لتسكين الجمهور الشنّي، وعليه التفاوض مباشرة مع الإخوان، وبدلاً من الاعتماد على السيطرة الأمنية والعسكرية في لبنان للتحكم بملف حزب الله لا بد له من علاقة مباشرة وشخصية مع زعامات حزب الله (وزعيمه حسن نصر الله على وجه التحديد) وبالملاي والزعامات السياسية الإيرانية، وبدلاً من إهمال الطائفة يجب أن يحظى بدعمها ودعم التيار القوي فيها في مواجهة مطامع شقيقه رفعت الأسد، الرجل القوي الذي يحظى بشعبية كبيرة في الطائفة العلوية؛ وفي الوقت نفسه، فإنّ هذه العلاقة مع التيار الديني الشيعي القوي في الطائفة ستدعم علاقته مع حزب الله والإيرانيين. تلك باختصار متطلبات اللعبة الدينية في معركة التوريث واستراتيجيتها الجديدة.

الملاي أولاً

بدأ بشار بعلاقة واهية مع شيوخ السنّة، ويبدو أنّه كان لا يبدى الحماس الديني الذي كان يبدىه شقيقه باسل، فمثلاً كان يتجنب اللقاء بعالم الدين السني محمد سعيد البوطي - مثلاً - ما أمكن، ذلك الشيخ الذي كان الأب يحتفظ بعلاقة خاصة معه. وبدأ واضحاً أنّ البوطي همّش بشكل نهائي وأبعد عن بشار الأسد في نهاية التسعينيات، وبقيت علاقته محصورة بالأسد الأب، الذي كان يوحي له بأنه أمانته أمام الله. وخلال فترة ولايته الأولى (٢٠٠٠ - ٢٠٠٧) طلب الشيخ البوطي لقاء الرئيس الشاب أكثر من عشر مرات، وقوبل طلبه بالرفض المؤدّب تارة، أو بالتأجيل غير المحدد الوقت تارة أخرى، وهو أيضاً في معنى الرفض، وذلك على الرغم من أنّ البوطي حاول منحه الشرعية المفقودة في توريثه السلطة عبر

تأييده بوضع ثقله الرمزي الديني في سبيل ذلك، لكنّه ما وجد آنذاك سبيلاً لهذا التأييد من عالم الدين السنّي الذائع الصيت سوى الشهادة لوالده بـ«الإيمان» العميق، والتنويه بالتفاف الجماهير بـ«الحب العفوي» حول القائد الشاب وارث الجمهورية (وارث الرجل الصالح)! التي منحتّه «بيعة لا تستطيع الديمقراطية المطبوخة المصطنعة أن تتسامى إليها، ولا تستطيع المزايدات المتكلفة أن تُغشي على شيء منها!»^(٦) بعد أن «آل هذا الأمر إليه بمشيئة من الله ﷻ أولاً، وبيعة صادقة صافية من هذا الشعب عن الشوائب ثانياً»^(٧).

بهذه المهمة التي أعدّها له الأسد الأب بدا كما لو أن صلاحية البوطي كشيخ للبلاط انتهت، ولسوء حظ البوطي - الذي قتله النظام لاحقاً^(٨) - ربما فإنّه لم يحظَ بمقابلة الرئيس منفرداً خلال سبع سنوات (فترة ولايته الأولى)^(٩)، وإن كان التقاء أكثر من

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٧ - ١٣٣.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) اتخذ الشيخ البوطي موقفاً منحازاً لنظام الأسد ضد الثورة التي اندلعت منتصف آذار/مارس عام ٢٠١١ منذ البداية، ومع ذلك قتله نظام الأسد في ٢١ آذار/مارس ٢٠١٣ ودُفن قرب قبر صلاح الدين بجانب الجامع الأموي بدمشق، ومن الواضح أن قتل البوطي يهدف لتحقيق أمرين: الأول إثارة المشاعر الطائفية لتوليد ردود فعل عنيفة تساعد على عسكرة الثورة، والأمر الثاني اتباع استراتيجية الأسد الأب بضرب الأكثرية السنية على رأسها ويعثرتها بإنهاء وجود أي رموز (دينية أو اجتماعية أو سياسية) يمكن أن تشكل ملاذاً لإعادة لم شملها. حول استراتيجية الأسد الأب هذه انظر: سورا، سورية، م.س، ص ٨٩. وحول مقتل البوطي وتفاصيل الجريمة انظر التقرير الصحفي الآتي على موقع العربية نت بعنوان «فيديو يظهر اغتيال البوطي بعد نجاته من انفجار قرب منبره»:

<http://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world/syria/2013/04/09/.html>.

فيديو يظهر لحظة مقتل الشيخ البوطي في - أحد مساجد دمشق.

(٩) حسب أكثر من مصدر مقرب جداً من الشيخ محمد سعيد البوطي.

مرة في مناسبات عامة وبشكل جماعي، وكان آخرها لقاءه مع جمع من شيوخ الشام في أزمة التعليم الشرعي المعروفة عام ٢٠٠٦، إثر البيان الذي أصدره علماء سورية والموجه للرئيس بخصوص قانون التعليم الشرعي الجديد، وكان للقاء الشيوخ هذا أثره في تجميد القانون.

ما ينطبق على البوطي ينطبق على كفتارو وغيره من شيوخ سورية. وكان الأسد الابن يفكر باستبدال مهمة الشيوخ، من مهمة رعايئة واستمداد الشرعية المفقدة، إلى مهمة إدارة الحالة الدينية وضبطها على إيقاع احتياجات بقاء النظام وسياساته الخارجية. في الواقع ما كان يريده بشار الأسد هو مزيد من إخضاع المؤسسة الدينية لمصالحه السياسية^(١٠)؛ أي علاقة هيمنة واستتباع وليس تبادل مصالح كما كان الأمر في عهد الأب، فهو يشعر أن أجهزته الأمنية وسطوتها الهائلة في المجتمع كفيلة بحمايته ومده بشريعة قوة الأمر الواقع.

وعلى الرغم من أننا لا ندري ما الذي لقَّنه الأب لابنه خلال ست سنوات ونصف (١٩٩٤ - ٢٠٠٠)، فإنَّه من المؤكد على الأقل بأنَّه ورَّثه نظرتَه الإيجابية للتيار الشيعي العلوي، بوصفه تياراً إصلاحياً يمكن أن يمنح الطائفة بعض الاحترام، وسعى لتأسيس علاقة متينة به تقوِّي العلاقة مع خمينيِّي إيران ولبنان (حزب الله). فحزب الله - من وجهة نظر الأب - يمثِّل أداة مزدوجة بالنسبة إلى سورية، فهو من جهة يلعب الدور العسكري في السياسة الدولية

(١٠) انظر: عبد الرحمن الحاج، الدولة والجماعة: التطلعات السياسية للجماعات الدينية في سورية (٢٠٠٠ - ٢٠١٠) (لندن: مركز التواصل والأبحاث الاستراتيجية، ٢٠١١)، ص ٥٩.

المتعلقة بأزمة الشرق الأوسط والسلام مع إسرائيل، ومن جهة أخرى يلعب دور أداة الهيمنة على لبنان، بجعل الحاجة مستمرة للحزب في الاعتماد على سورية التي تشكّل له الممر الوحيد للسلاح والعتاد الإيراني والروسي.

منذ بداية تجهيزه لورثة الجمهورية بدأ الأسد الابن يلتقي قيادات حزب الله وزعيمه حسن نصر الله^(١١)، كما لا يستبعد أن يكون قد التقى الشخصيات الشيعية التي تمثل المرجعية الدينية والفكرية للشيعية وحزب الله، مثل الشيخ حسين فضل الله ورئيس المجلس الشيعي الأعلى (في ذلك الوقت) الشيخ مهدي شمس الدين على اعتبار أن فضل الله له دور أساسي في حزب الله، والمجلس الشيعي الأعلى^(١٢) له أهمية خاصة بالنسبة إلى شيعة لبنان. وبالتأكيد فإن هذه اللقاءات جعلت الأسد الابن مسحوراً بشخصية السيد حسن نصر الله المتكلم الفذ^(١٣)، الأمر الذي شكّل

(١١) انظر: Benjamin Orbach and David Schenker, *The Rise of Bashar al-Asad, Policy* Analysis (Washington: Washington Institute for Near East Policy, no. 371, 5 March 1999).

نقلًا عن: ليفريت، ورثة سورية، م.س، ص ٢٠٤.

(١٢) تأسس عام ١٩٦٩ ليكون مسؤولاً عن القضاء الجعفري والتعليم الديني الشيعي في لبنان، أسسه الزعيم موسى الصدر، وبطبيعة الحال كان أول رئيس له، وبُعِد اختفائه عام ١٩٧٨ خلفه الشيخ مهدي شمس الدين الذي كان يشغل منصب نائب رئيس المجلس.

(١٣) لربما لعب تقارب السن دوراً مهماً، فنصر الله أسنٌ من بشار الأسد بخمس سنين فقط. ولا ندرى ما كان يجري من الأحاديث بينهما، لكن من الطبيعي أن نتوقع تعرّض كل منهما إلى شيعة الطائفة العلوية النصيرية؛ فهذا الحديث يمثل أحد المداخل الطبيعية لعلاقة وثيقة بين طرفين حيث الجانب العقدي والاجتماعي يؤازر العمل السياسي. الحديث عن دور الأسد في لبنان، ومساندة الحكومة الإسلامية الإيرانية، وعن شخصية الأسد الأب السياسية الفريدة، وعن دور حزب الله في المقاومة للاحتلال الإسرائيلي وإنجازاته في ذلك، ودور الأسد الأب في ذلك. ولربما أدّت هذه العلاقة الخاصة مع حزب الله وموالي سورية من سياسيي لبنان إلى التكبير بتسليم الملف اللبناني له =

علاقة خاصة حميمة وشخصية بين نصر الله والأسد، السياسي الغر.

وفي حزيران/يونيو عام ٢٠٠٠ استقبل الرئيس الجديد ضيفه اللبناني السيد حسن نصر الله القادم لتعزيتة ب وفاة والده، لكن لم يكن هذا الاستقبال تقليدياً؛ فقد رأى المواطنون السوريون مشهداً رمزياً يستدعي التأمل، فالسيد المذكور هو الأمين العام لحزب الله الذي خرج لتوه من «انتصار تاريخي»؛ حيث انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان تحت ضربات ميليشيا حزب الله. وهذا ما منح شخصيته زخماً استثنائياً؛ وقف نصر الله (المولع بالرمزية السياسية الفجة)^(١٤) معانقاً الرئيس الغر، ثم تنحى مستعرضاً أمامه رتلأ من خاصة مقاتلي حزب الله بلباسهم الأسود الرسمي؛ كان معنى هذه الرسالة الرمزية لنصر الله هي أن مقاتلي حزب الله هم جند الأسد وتحت الطلب!

تشير هذه الحادثة في الواقع إلى مدى العلاقة السياسية التي تربط حزب الله بالنظام السوري من جهة أولى، وإلى مدى العلاقة الشخصية التي أصبحت تربط نصر الله بالرئيس الجديد من جهة ثانية.

= من عهدة عبد الحليم خدام (١٩٩٨)، على الرغم من أنه لا يمتلك أي منصب رسمي في ذلك الوقت.

(١٤) عشية انسحاب الجيش السوري من لبنان عام ٢٠٠٥، عاد نصر الله ليستخدم هذه الرمزية مع أحد أسوأ رجال المخابرات السوريين الذين عرفهم لبنان، فقدّم إلى رستم غزالة في حفل صغير - تقصّد أن تنقله وسائل الإعلام - بندقية لأحد الجنود الإسرائيليين التي غنمها مقاتلو حزب الله، كهدية تعبر عن شكره للجيش السوري، وكانت هذه صدمة للبنانيين بشكل خاص، نظراً للسمعة السيئة التي يتمتع بها غزالة، فضلاً عما أشيع عن دوره في اغتيال الحريري (١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥)، ذلك الدور الذي أشار إليه عدد من تقارير المحققين الدوليين في قضية الاغتيال.

واستطراداً، فخلال السنوات الست التي أمضاها بشار الأسد في الاستعداد للتوريث، كانت علاقة حزب الله تقوى بشكل عام مع النظام السوري؛ ففي السّنة الأخيرة كان حزب الله يقيم المعارض في المكتبة الوطنية بدمشق، وفي عدد من المدن السورية لشرح عملياته العسكرية ضد الإسرائيليين، وتعزيز الدعاية له بالفيديو والمجسّمات.

في الداخل، كانت علاقة بشار الأسد بالشيعة في تزايد، وتحديدًا مع التيار العلوي الشيعي، ومنه مع الشيعة السوريين والعراقيين والإيرانيين (الذين يعملون على الأراضي السورية بالتبشير والتعليم الديني)، وقد زاره هؤلاء زيارات خاصّة في القصر الرئاسي وفي القرداحة مرات عديدة، بل إنّ هذه الزيارات كانت تتكرر في المناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية، وكانت تعني في عمومها تأييداً ودعماً له كرئيس مقبل^(١٥). وبالتأكيد فإنّ الأسد الابن كان يستمع إلى شكواهم، ويقدم لهم العون في مطالبهم التي غالباً ما تتعلق بالشعائر الدينية، وإقامة الحوزات، وتشديد المقامات، وما شابه؛ وبالتأكيد لم يكن قادراً على تلبية كل رغباتهم، فهو من جهة لا يستطيع تجاوز سياسة والده الذي لا يزال على رأس السلطة، وهو من جهة ثانية لا يملك رسمياً أيّ سلطة للأمر والنهي، إنّما كان يستعمل نفوذه السياسي الذي منحه إياه والده للتدخل في شؤون الدولة؛ ومن هذا الباب فحسب كان يلبي كثيراً من طلباتهم، باستثناء بناء الحوزات والحسينيات التزاماً بقرارات والده التي لا يملك تجاوزها.

(١٥) بحسب مصادر قريبة من الشيخ الشيعي الدمشقي عبد الله نظام، وهو أبرز شخصية دينية للشيعة السوريين الأصليين.

الامتيازات الاستثنائية للملاي

بالنسبة لإيران - الدولة الطامحة - فهي تنظر إلى سورية كجزء من محور يمثل شبكة سيطرة إقليمية، تحتل فيها إيران موقع «الأمير الأعلى» والممول والداعم الرئيسي للتشيع الذي يمثل التبشير الأداة الضرورية لتشغيل الشبكة^(١٦)، لهذا السبب فإن السعي إلى إطلاق التبشير في سورية يمثل هدفاً استراتيجياً.

فما أن توفي الأسد الأب حتى بدأ الملاي باستثمار العلاقة القوية التي تربطهم بنجله الرئيس الجديد، فتحصلوا على موافقات وتراخيص أمنية بتسهيلات غير اعتيادية^(١٧) لإقامة الحوزات العلمية

(١٦) انظر: سورا، سورية، م.س، ص ٦٢.

(١٧) على سبيل المثال، تقدّم الهندي «علي باقر تصور» بمعرض (مجرد طلب من ورقة واحدة من دون وثائق أخرى) إلى شعبة الأمن السياسي بدمشق لإقامة حوزة علمية في منطقة السيدة زينب، باسم «حوزة المهدي العلمية للدراسات الإسلامية»، وذلك بتاريخ ٢٧/٧/٢٠٠٢. وفي العادة، فإنّ الموافقة على معاهد تدريس اللغة الإنكليزية أو معاهد دورات تقوية للمناهج المدرسية تستغرق ستة أشهر إلى سنة ونصف، لكن الموافقة جاءت خلال أسبوع واحد في تاريخ ٦/٨/٢٠٠٢! تحت الرقم ٩٧٤٩٠/س.ح/١١٢٦٧٢/س) موقّعة من اللواء عدنان سليمان الحسن، رئيس شعبة الأمن السياسي.

والشيء المثير للاستغراب حقاً أن تحظى هذه الحوزة على موافقة لـ «تصنيع ختم دائري» خاص بمديرها «علي باقر تصور» قبل أن تتقدم بموافقة أمنية على إنشاء الحوزة، فضلاً عن الموافقة الأمنية عليها! فقد حصل المدير الهندي للحوزة على موافقة الأمن السياسي في ريف دمشق بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٤ رقم (٧٨٧/ص)؛ أي قبل أكثر من ثلاثة أسابيع من تاريخ تقديم طلب الموافقة على تأسيس الحوزة نفسها! وقبل أكثر من شهر من تاريخ الموافقة على طلب التأسيس! وبالتأكيد فإنّ هذا لا يمكن أن يحصل مع أي معهد شرعي أو مدرسة دينية خاصة تخصص علماء الدين السُنّة من أبناء البلد.

واستطراداً، فإنّ الشخص الهندي «مدير ومشرف حوزة الإمام المهدي العلمية للدراسات الإسلامية» (كما يصفه كتاب شعبة الأمن السياسي فرع ريف دمشق) تقدّم للحصول على موافقة بإضافة كلمة «الإمام» إلى اسم حوزته، وتمّت الموافقة طبعاً دون تردّد =

والحسينيات، إلى الحد الذي أصبحوا ينشئونها دون أي موافقة من أي جهة كانت ودون رقيب! وعندما يتعرضون للمساءلة (إذا ما تعرضوا لها أصلاً) فإنهم يبادرون للحصول على موافقة أمنية من شعبة الأمن السياسي وحدها^(١٨)، في وقت يحظر فيه كلياً الموافقة من أي نوع على إنشاء معهد أو مدرسة للتعليم الديني الشرعي منذ أكثر من ثلاثين عاماً إلا باستثناءات خاصّة ولأسباب سياسية وأمنية بأمر مباشر من الرئيس، وهي لم تتجاوز - بطبيعة الحال - خلال ثلاثة عقود ونصف أصابع اليد الواحدة.

ومنذ استؤنف إنشاء الحوزات الدينية عام ٢٠٠١ لم يتوقف إنشاؤها^(١٩). ولا شك أنّ تغاضياً أمنياً وإدارياً غير طبيعي عن

= في ١٧/٨/٢٠٠٤ تحت الرقم (٢٢١٨/س ص)، والجدير بالملاحظة هنا أنه وفقاً للقانون السوري والمراسيم التشريعية فإنه لا يمكن أن يكون مدير أي مؤسسة غير سوري.

(١٨) وفقاً للتعليمات الرسمية، فإنّ الموافقة على إنشاء معهد ديني (سنّي) غير واردة على الإطلاق. ومنذ مطلع السبعينيات لم يتأسس معهد شرعي تقريباً، وما أسس فإنه لأسباب سياسية وأمنية خاصة، ولا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. إضافة إلى ذلك، فإنّ المعاهد وتبرعاتها تخضع لمراقبة أمنية مشدّدة جداً، ومن المحظور الموافقة على مدارس نظامية للتعليم الشرعي.

أمّا المعاهد والمدارس الخاصة الأخرى، فحتى التي يحق لها المباشرة بوضع حجر الأساس لمشروعها على الواقع فإنّ عليها أن تنتظر الحصول على موافقة الأجهزة الأمنية (السياسي، العسكري، أمن الدولة)، فضلاً عن موافقة القيادة القطرية وعدد من الأجهزة الأمنية! وإن لم تمنح أي من هذه الجهات موافقتها فإنه من المستحيل الموافقة على طلب إنشاء المعهد أو أي مؤسسة تعليمية.

(١٩) كانت حوزة الإمام علي (بإشراف الشيخ عبد المنعم الحكيم/عراقي) أوّل حوزة تشيّد في عهد بشار الأسد، وآخر حوزة تمّ إنشاؤها - حتى أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦ - هي «حوزة فقه الأئمة الأطهار» (المرجع الديني آية الله محمّد الفاضل اللنكراني) عام ٢٠٠٦، وهي حوزة تضم مركزاً تبشيراً فريداً باسم «مركز فقه الأئمة الأطهار»، وحسب ما يذكره القائمون على المركز في موقعهم على الإنترنت فقد «أخذ المركز الفقهي - فرع سورية - =

التعليمات والقوانين كان يجري مع إنشاء وتأسيس هذه الحوزات.

وإذا كانت الحوزات تدلّ على تمرکز مرجعيات دينية شيعية في الأراضي السورية، فإنّ إنشاء الحسينيات يدلّ على انتشار المرجعيات وتمدّد تبشيرها. وقد توقّف بناء الحسينيات في عهد الأسد الأب بعد حلّ جمعية المرتضى، ولكن منذ نهاية عام ٢٠٠٠ سُمح للمبشرين الشيعة بالانطلاق في بناء حسينياتهم، فبدأت حركة جديدة وغير مسبوقة لبناء الحسينيات^(٢٠)؛ فبموازاة التمرکز والتأسيس المتواصل للحوزات الدينية للتعاليم الشيعية تمّ تأسيس عشرات الحسينيات في المدن والقرى السورية، من أقصى قرية جنوباً في درعا إلى أقصى قرية شمالاً في القامشلي، لتكون مكاناً لإحياء الشعائر الدينية الشيعية. ويتساهل مذهب تبنى الحسينيات

= على عاتقه في بداية تأسيسه تحريك الفعاليات الدينية، حوزوية كانت أو ثقافية، في منطقة السيدة زينب (ع) على وجه الخصوص، وفي سورية على وجه العموم، ومن أهم ما توجه إليه ملء الفراغ في مختلف المجالات التي لم يُتوجه إليها مسبقاً، وبعد دراسة متواصلة توجه إلى إنجاز المشاريع التالية:

المشروع الأول: إيجاد حركة علمية متميزة لطلاب الحوزة (...)، المشروع الثاني: إشاعة الدروس المنسيّة (...)، المشروع الثالث: الندوات العلمية (...)، المشروع الرابع: إنشاء مكتبة تخصصية (...)، المشروع الخامس: المكتبة الصوتية (...)، المشروع السادس: النشاط التبليغي [حيث] لم يهمل حوزة فقه الأئمة الأطهار الحركة التبليغية في المنطقة، فقد تحرك لأجل إيصال المعرفة إلى أكبر عدد ممكن. حول اللنكراني ومشاريعه ومركزه وحوزته في سورية بالتفصيل، انظر موقع مركز فقه الأئمة الأطهار:

< <http://www.markazfiqhi.com/ara/tre/report1.php> >.

(٢٠) على سبيل المثال، يذكر حسين الرجا - أحد أبرز شيوخ المتشيعين في قرية حطلة - بأنّه بدأ بناء الحسينيات والمساجد في القرية منذ ست سنوات، وأنّ هذه المؤسسات الشيعية كان لها الدور الأبرز في انتشار التشيع في دير الزور. أجرى الحوار: عادل الحبشي وعصام الموسوي، الشيخ الصوفي سابقاً يشرح له «المنبر» كيف اتّهم بالماسونية! حوار مع الشيخ حسين الرجا، مع مجلة المنبر (الكويت)، العدد التجريبي (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

أحياناً حتى من دون موافقة الأمن السياسي. وبما أنَّ الحسينيات هي دور عامّة للشعائر الدينية فالمفترض أنَّها تتبع وزارة الأوقاف، غير أنَّ الحسينيات لا تُسجّل لدى وزارة الأوقاف ولا تتبع لها، إنّما تتبع المرجعيات الدينية، الأمر الذي يمنحها حرية مطلقة في نشاطاتها بعيداً عن التعليمات المشدّدة التي تُخضع لها وزارة الأوقاف كلّ ما يتبع لها من دور العبادة والشعائر الدينية. وحتى الآن لا تملك وزارة الأوقاف السورية أيّة معلومات عن الحسينيات وملايلها بالمطلق. وبما أنَّ التبشير الشيعي - كما هو معتاد - يأتي على رأس أولويات الحسينيات، فإنّها بعدم تبعيتها للأوقاف تتمتع بالحرية الكاملة في الممارسة ونخر الجسم السنّي بلا حسيب ولا رقيب.

من جهة أخرى، فإنَّ الحسينيات تُبنى عادة بأموال المرجعيات^(٢١)، أو بأموال الحكومة الإيرانية^(٢٢)، أو بأموال المحسنين الخليجيين^(٢٣)، وعدم خضوعها للقانون والأوقاف يجعل

(٢١) على سبيل المثال حسينية زين العابدين في قرية حطلة (قرب مدينة دير الزور) مموّلة من مؤسسات المرجع الشيعي الخوئي.

(٢٢) على سبيل المثال حسينية الرسول الأعظم في قرية الصعوة (قرب مدينة دير الزور) مموّلة من مكتب السيد علي خامنئي (مرشد الثورة الإسلامية في إيران).

(٢٣) على سبيل المثال حسينية سيّد الشهداء في قرية بُئِل (شمال مدينة حلب) تمّ تشييدها بتمويل لجنة سيّد الشهداء (عليه السلام) الخيرية/الكويت، وكان من المزمع افتتاحها في الخامس عشر من شهر رمضان المبارك ١٤٢٤هـ الموافق ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، «تيمناً بميلاد الإمام أبي محمّد الحسن المجتبي ابن أمير المؤمنين علي المرتضى»، وبمساعي كل من الشيخ العراقي كمال معاش (تابع للمراجع الشيرازية) والسوري حمد الوكاك (اعتنق التشيع عام ١٩٩٦). انظر: خبر إنشاء الحسينية في تقرير بسام حسين، «لجنة سيّد الشهداء تشيد حسينية في محافظة حلب/ قضاء نبل»، «الوكالة الشيعية للأبناء (إباء):

< <http://www.ebaa.net/khabar2003/10/6/khabar007.htm> > .

هذه التبرعات للبناء لا تقتصر على البناء، بل تتجاوز لتكون رافداً للحسينية ونشاطها التبشيري؛ فرواتب إدارتها ومصاريف خدماتها ورواتب دعم «المؤمنين الجدد» يتطلب مالياً تبشيراً بعيداً عن رقابة الدولة ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ووزارة الأوقاف معاً، ويتساهل استثنائي من رقابة الأجهزة الأمنية.

أنشئت في العام (٢٠٠١) أيضاً أول مؤسسة تبشيرية نشطة بإشراف الشيخ عبد الحميد المهاجر (الذي سبق أن قام بنشاطات تبشيرية كثيرة على الأراضي السورية بدعم من المراجع الشيرازية) عام ٢٠٠١ باسم «هيئة خدمة أهل البيت»^(٢٤)، ومؤسسوها والناشطون فيها هم مجموعة من الشباب العراقيين الحركيين من أهالي مدينة كربلاء. وهذه المؤسسة في الواقع تلعب دوراً تكميلياً في التبشير للحوزة الزينية التابعة للمراجع الشيرازية. ويبدو أن الرابطة الخاصة بين الشيرازية والعلويين والنظام السوري منحت هذه الهيئة نشاطات شعائرية وتبشيرية علنية غير مسبقة في سورية.

جملة الوقائع هذه تشير إلى أن موسم الحصاد للعلاقة الخاصة ببشار الأسد قد بدأ؛ حصد ملالي الشيعة (العراقيون والإيرانيون واللبنانيون) «الانتظار» لوفاة الأسد الأب، عوضاً عن السوريين،

(٢٤) هذه الهيئة هي فرع عن «هيئة خدمة أهل البيت» التي أسسها المرجع الديني محمد الشيرازي في كربلاء العراق سنة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، وحسب ما جاء في موقعها على الإنترنت فقد «تأسست هيئة خدمة أهل البيت (عليه السلام) في دمشق في حي السيدة زينب (عليها السلام) بتشجيع من سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد الحسين الشيرازي (رضوان الله عليه) وذلك من قبل شباب هدفهم نشر فكر وثقافة أهل البيت (عليه السلام) في جميع أنحاء العالم، هذا إضافة إلى أنها تقوم بإحياء جميع المناسبات الإسلامية». انظر صفحة «مشاريع الخدمة» في موقع «هيئة خدمة أهل البيت»، على الوصلة:

< <http://khadama.net/indexold.htm> >.

الذين فقدوا أملهم ببشائر التغيير، ودخل الملاي سباقهم مع الزمن قبل أن تتغير الأحوال والظروف، فهم الآن في لحظة تاريخية غير مسبقة من الدعم والحرية والنشاط التبشيري.

الصّدع بالطقوس الشيعية

وقّع أهالي القرية السّنيّة الصغيرة السيدة زينب في عام ١٩٧٦ معروضاً لرئيس الجمهورية يشكون فيه من «البطالة التي تسبب بها قدوم الشيرازي وعشرات من تلامذته الأفغان والإيرانيين والهنود»، الذين «سيطروا على الأعمال»، ممّا جعلهم «عاطلين عن العمل». وفي قرية صغيرة لا تعرف الحرف ولا التجارة أو الصناعة، فإنّ عدداً لا يتجاوز كثيراً أصابع اليدين من الأيدي العاملة الجديدة يمكن أن يخلق مشكلة عمل لسكانها، الذين تضيق عليهم أراضيهم الزراعية يوماً بعد يوم مع تكاثر الأجيال والولادات.

صدر أمر للسلطات المختصة بـ«إبعاد هؤلاء [أي الأجانب] عن سورية»، ف«اعتُقل أربعة عشر طالباً من طلاب الحوزة العلمية الزينبية»^(٢٥). كان حافظ الأسد وقتها لا يريد أن يستفز أحداً ضد مشروعه في السلطة؛ فالشعب يحتقن طائفيّاً يوماً بعد يوم بعد أزمة الدستور الدائم عام ١٩٧٣، فكان لا بد له من تحرك يشير إلى اهتمامه واستنكاره.

لكن ذلك كان كارثة بالنسبة للملا حسن الشيرازي القادم إلى دمشق للتبشير وتأسيس مركز شيعي نشط يهدف لنشر الدعوة الشيعية

(٢٥) من جملتهم: عزيز الله المحقق، والشيخ التوسلي، وناظر الشرفي، والشيخ الفصيح، ومحمد صهر الشيخ الفرقاني، والسيد محسن الحسيني، وبخش الحلبي، وآخرون؛ وجميعهم من الجنسيات الأجنبية: الإيرانية والأفغانية والباكستانية والهندية!

الإثني عشرية في الشام، فلم يلبث أن توسّط رئيس المجلس النيابي اللبناني كامل الأسعد للإفراج عنهم، وهو ما جعل الأسد «يأمر بإصدار الإقامة للطلاب» ثانية.

كانت عينا الملا حسن الشيرازي ترنو - بعد تأسيس الحوزة - نحو صحن السيدة زينب، إذ المقام مشيّد داخل مسجد سنّي عريق أموي الطراز؛ فبدأ مع طلبته بإقامة الصلاة على المذهب الشيعي عند المقام، «ووضع التربة الحسينية أثناء الصلاة، حيث لم يكن يُشاهد تربة في المقام قبل ذلك» حتى «يتعرفوا على التربة الحسينية» على حدّ تعبيره!

لكن قصّة احتلال المقام لم تكن بالأمر السهل، فأهالي القرية لم يتقبلوا هذا الوجود الشيعي المزروع حديثاً عند المقام، ووصل الأمر بهم إلى حدّ شتم الملا الشيرازي وجماعته المصرة على احتلال الصحن على مكبرات الصوت، واستنكروا وجود الحوزة نفسها بجوار السيدة زينب، وقالوا: «إنّ أي مرجع لم يأذن للملّا ولهؤلاء بتأسيس حوزة هنا».

تصاعد الأمر واشتد احتقان الأهالي حتى حاول بعض الشيوخ منعه وتلامذته من «إقامة صلاة الجماعة في حرم السيدة زينب» بالقوة، بل لقد وصل الأمر إلى حدّ الهجوم على بيت الشيرازي نفسه في شارع الأمين وتهديده!

كان لهذا الرفض والمقاومة العنيفة للأهالي أن يؤثر في تلامذته، الذين أشاروا عليه بالمغادرة ما دام عاجزاً عن رد ضغط الأهالي^(٢٦)، لكن الأصولي عنيد ومتحدّ بطبعه، الأمر الذي مدّ

(٢٦) انظر قصة احتلال مقام السيدة زينب من رواية الشيخ محمّد بخش الحليمي، =

الشيرازي بالصبر والتحمل حتى تحقيق احتلال المقام في نهاية المطاف.

نسوق هذه الرواية - وهي بمنظور أحد تلامذة الملا الشيرازي الأفغان - للدلالة أولاً على مدى فظاظة المبشر الشيعي العراقي (من أصول إيرانية) مقارنة مع الشيخ الشيعي اللبناني الشيخ محسن الأمين محيي الطائفة^(٢٧)؛ وثانياً لكشف استمرار هذا النمط السلوكي الفظ للشيرازية الأجانب الذين مارسوه عبر أتباعهم (من الأجانب أيضاً) في دمشق، ودوره في تأليب السوريين واحتقانهم المتصاعد ضد التبشير والوجود الشيعي في سورية.

وللتذكير، فإنَّ الشيخ العراقي عبد الحميد المهاجر الذي قدم سورية مطلع التسعينيات هو أحد تلامذة المرجع الديني محمَّد الشيرازي، وكان ظهوره على شاشة التلفزيون^(٢٨) جرأة في تحدّي مشاعر الناس؛ فالشيخ المهاجر عراقي، والشيعية السوريون أقلية لا تتجاوز ٠,٤ ٪ من مجموع السكان، ويريد أن يفرض نفسه بقوة الأجهزة الأمنية عليهم دون أن يبالي بهذه الحقيقة التي كانت توغر صدر السوريين على النظام؛ إذ لم يكن ثمة مغنى ظهوره على شاشة التلفزيون بشكل أسبوعي إلا من حيث إنه تحدّي طائفي! لقد كانت تعليقات الناس الممتعة حول هذا الموضوع أصدق تعبير.

= وما بين قوسين مأخوذ حرفياً من كلامه، وبالإمكان الاطلاع على جزء من الرواية المتعلقة باحتلال الملا وتلامذته لمقام السيدة رقية في المقابلة نفسها. انظر المقابلة في موقع الشيرازي نت على الوصلة:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/legaat/legha/shahid/010.htm> > .

(٢٧) انظر مقدمة الطبعة الأولى في هذا الكتاب.

(٢٨) انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب.

مهما يكن من دواعي النظام للسماح له بالدروس الأسبوعية، فمن المؤكد أنَّ الغاية الرئيسية للمهاجر كانت التبشير. لقد قرَّر - وهو يدرك مدى فظاظة ما يقوم به - أن يستمر ويتحدَّى على عادة أساتذته معتمداً على دعم الأجهزة الأمنية.

واستطراداً، فإنَّ عبد الحميد المهاجر - المبلغ عن آل الشيرازي في بلاد الشام - لعب دوراً مهماً في احتلال مقام حجر بن عدي الكندي في عدرا، كما سبقت الإشارة إليه، وبطريقة لا تختلف في فظاظتها عن طريقة حسن الشيرازي في احتلال مقامَي السيدة زينب والسيدة رقية.

بعد الاحتجاجات الكثيرة على دروسه وممارساته في المقامات (مقامي حجر بن عدي، وعمار بن ياسر) انتهى ذكر المهاجر نهاية التسعينيات في الفضاء الديني للمجتمع السوري السني، غير أنَّه ما بدأ عام ٢٠٠١ حتى أشرف على تأسيس «هيئة خدمة أهل البيت» المتفرعة عن مؤسسة تحمل هذا الاسم نفسه في كربلاء العراق تابعة للمرجع محمد الشيرازي من أجل «نشر فكر وثقافة أهل البيت عليه السلام» إلى جميع أنحاء العالم (...). بإحياء جميع المناسبات الإسلامية^(٢٩) الشيعية. ولأن الفظاظة وتحدي مشاعر الأكثرية السنية تجري بدماء المبشرين الشيرازية ومن أهم خصائص نشرهم لعقائد الشيعة الإثني عشرية في الشام، فقد قامت هذه الهيئة بعدة مهرجانات ومسيرات لطم وتطبير^(٣٠) كبيرة صدمت بها المجتمع السني الشامل لأول مرة في الدولة السورية الحديثة.

(٢٩) من تعريف الهيئة لنفسها وبيان أهدافها ومشاريعها في موقعها على الإنترنت، انظر:

< <http://khadama.net/indexold.htm> > .

(٣٠) اللطم: شعيرة دينية شيعية، والتطبير: شج الرؤوس بالسيوف حتى إسالة

الدماء.

وفي فجر يوم السبت ١٤ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، الموافق ٤ آب/أغسطس ٢٠٠١م، وبمناسبة ذكرى «الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء»، سيّرت هيئة خدمة أهل البيت أوّل موكب عزاء شيعي «انطلق من أمام بناية الحوزة العلمية الزينية، وانتهى عند مقبرة باب الصغير بدمشق، حيث مقبرة الفواطم عند جادة أهل البيت (...). وقطع موكب المعزّين - الذي ضمّ ما يقرب ألفي شخص من الرجال والنساء - مسافة حوالي ١٠ كيلومترات سيراً على الأقدام، وهم يرددون الشعارات الجهادية وقصائد الرثاء والولاء والنصرة لآل بيت النبي محمّد (صلى الله عليه وآله)»^(٣١). مرّت المسيرة من شارع مدحت باشا داخلية إلى سوق الحميدية، وشاقّة طريقها إلى حيّ العمارة حيث مقام السيّد رقية، لتعود إلى مقبرة باب الصغير.

شاهد الأهالي بأعينهم ولأول مرة صباح ذلك اليوم مئات العراقيين وبعض اللبنانيين والمعتنقين الجدد للعقائد الشيعية من طلبة الحوزات السوريين يمشون بموكب لطم، تصحبه سيارات إسعاف، وتنتشر حوله عناصر الأجهزة الأمنية، وسمع الأمويون الشوام بأذانهم الشعارات المندّدة بظلم الأمويين لآل البيت، وصارت الحادثة حديث الهمس بين الناس، ولم يجرؤ أحد على الجهر بانتقاد علني لها.

تناقل الناس الحادثة التي أثارت حفيظتهم، فانتقلت عدواها إلى علماء الدين، الذين كانوا يبدون سخطهم أمام أتباعهم دون أن يجرؤوا بدورهم على الكلام العلني، ولكنهم أثاروا القضية مع المسؤولين في وزارة الأوقاف، إلا أنّه لا أحد هنالك يملك القرار.

(٣١) انظر: الوكالة الشيعية للأنباء (إباء)، أخبار ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م على الرابط:

<<http://www.ebaa.net>>.

أصبحت المسيرة عادة موسمية^(٣٢)؛ فمن وجهة نظر تبشيرية «يُعَدّ تنظيم هذه المواكب والمسيرات الولائية أحد أبرز وسائل الدعاية والترويج للمذهب الحق، فضلاً عن كونها شعيرة من الشعائر المراد منها تبيان مظلومية أهل البيت»^(٣٣). ومع الأيام تزداد حساسية الأهالي الذين يثسوا من تدخّل الجهات المسؤولة لإيقاف هذا الاستفزاز الشيعي من قبل الغرباء في العاصمة السنيّة الأموية العريقة.

وفي يوم الجمعة ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، انطلقت «مسيرة كربلائية (بمناسبة أربعينية الحسين بن علي عليه السلام)» في شارع مدحت باشا بدمشق، وسارت في شوارع دمشق القديمة، جَلَدَ فيها شبان إيرانيون ظهورهم بالسلاسل الحديدية وأنشدوا حسينيات وقصائد تهجو الأمويين (...). فقد طافوا في الشوارع التي يُفترض أنّها شهدت تعذيب بنات الحسين وقتلهن، وتوجهوا إلى ضريح السيدة رقية، حيث كانت هناك نهاية مسيرتهم التي صبوا فيها اللعنات على

(٣٢) على سبيل المثال في ٢٤ تموز/يوليو عام ٢٠٠٢، الموافق لـ ١٤ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، وحسب الرواية الشيعية، فقد «سَيَّرَت جماهير المؤمنين موكباً عزائياً طاف في حيّ السيدة زينب سلام الله عليها، إحياءً لذكرى استشهاد الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها. وانطلق الموكب الذي تعدّى المشاركون فيه الألفين من مبنى الحوزة العلمية الزينية فجر يوم الرابع عشر من شهر جمادى الأولى الجاري، وسار المشاركون قرابة عشرة كيلومترات مرّدين شعارات وهتافات الثار للزهراء وجنيها المحسن [السقط] (صلوات الله وسلامه عليهما)، فيما رفعت مجموعة في الصف الأول أعلاماً وألوية تضمّنت عبارات الولاء لأهل بيت النبوة عليهم الصلاة والسلام، وأنشدت قصائد ومراثٍ حول هذه الذكرى الأليمة. وأشرفت على تسيير الموكب الهيئة الزينية [هيئة خدمة أهل البيت]، حيث اختتمت مسيرته في مقبرة الفواطم عند جادة أهل البيت عليه السلام». انظر: مجلة المنبر (الكويت)، العدد ١٧ (جمادى الآخرة، ١٤٢٣هـ - آب/أغسطس ٢٠٠١).

(٣٣) المصدر نفسه.

«النواصب» الأمويين، قتلة آل بيت النبي ﷺ»^(٣٤).

«اعتبر أهالي دمشق هذه المظاهرة الحسينية استفزازاً لهم؛ لأنهم أرادوا أن يصوروا أهل دمشق وكأنهم قتلة الحسين ﷺ»^(٣٥)، فقد ساءهم من «الضيوف» العراقيين «أن يُشتم معاوية بن أبي سفيان ﷺ في مدينته، وأن يُهان الأمويون في عاصمتهم بهذا الشكل البعيد عن الدين والأخلاق ولياقة الضيف»^(٣٦)، فقرروا تنظيم «عريضة يعتمون رفعها إلى رئاسة الجمهورية، تتعلق بتزايد النشاط الشيوعي «المستفز» في دمشق القديمة، وتنظيم أنشطة شيعية إيرانية تستفز المشاعر في المناطق السُّنيَّة»^(٣٧).

نجاح هيئة خدمة أهل البيت في استعراضاتها الطقوسية المَهوَّلة في دمشق مستقوية بالأجهزة الأمنية دون أن يجرؤ أحد على التصدي لها مباشرة^(٣٨) شجعت المراجع الشيرازية على تأسيس هيئة

(٣٤) من نص شهادة أحد الأهالي الذين حضروا المسيرة، انظر: «مواطنون سوريون ينظمون عريضة إلى رئاسة الجمهورية احتجاجاً على نشاط شيعي مستفز في دمشق القديمة»، أخبار الشرق (دمشق)، ٢٧/٤/٢٠٠٥، انظر الرابط:

< <http://www.thisissyria.net/2005/04/27/levant1.html> >.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) قامت الهيئة بعشرات الاستعراضات، وهي على سبيل المثال كما تذكر بالتفاصيل على موقعها على الإنترنت، وتقول الهيئة فيه إنَّ برامجها على مدار العام تتضمن بشكل رئيسي إحياء جميع المناسبات الإسلامية من استشهاده الأئمَّة (ع) إلى الموالد والأعياد لإعلاء كلمة أهل البيت (وليس لمجرد ممارسة حق التعبد)، وهذا يقتضي «تكثيف برامجها الثقافية والإعلامية التي تهدف إلى إعلاء كلمة الحق؛ ألا وهي كلمة أهل البيت (ع)»، وذلك عن طريق: ١ - طبع عدَّة كتب وتوزيعها مجاناً (منها: الشعائر الحسينية، بقيق الغرق، كتيب يحوي برنامج أعمال شهر رمضان المبارك)، طبع عدَّة بوسترات وفي =

أخرى تمارس النشاطات التبشيرية والطقوسية نفسها، باسم «هيئة علي الأصغر لشباب كربلاء» في عام ٢٠٠٤، كما شجعت نشاطاتها الاستعراضية العديد من المؤسسات العراقية التبشيرية والطقوسية على الظهور مع تزايد التدفق للاجئين العراقيين بعد الغزو الأمريكي للعراق، والصدع بممارسة الطقوس الشيعية بالشكل الاستعراضي نفسه، مثل: «هيئة المختار الثقفي»^(٣٩)، و«هيئة شباب الإمام الصادق»، و«هيئة شباب البتول الطاهرة»، و«هيئة شباب جعفر الطيار»، و«هيئة خيام الإمام الحسين»، و«هيئة شباب أهل البيت»! وشأن التنافس على الحوزات تتنافس المرجعيات الآن على إنشاء مزيد من المؤسسات الشعائرية الطقوسية لتثبيت موطئ قدم في التبشير بالعقائد الإمامية في بلاد الشام.

وفي الوقت الذي تُمنح فيه التراخيص الأمنية (إذا ما كان هناك تراخيص أصلاً) للجمعيات الشيعية الغريبة من دون حساب ولا تدقيق في أموال التبرعات التي تأتيها، ما زال الترخيص للجمعيات

= مختلف المناسبات وتوزيعها (على سبيل المثال: طبع في هذا العام بوستر لعيد الغدير الأغر). ٢ - إنتاج برنامج كمبيوتر في المناسبات وتوزيعها مجاناً، فعلى سبيل المثال تم إنتاج البرامج: عشاق الزهراء (عليها السلام)، فاطميات، في أيام الفاطمية، مراثٍ علوية، الرثاء الحسيني. ٣ - طبع وتوزيع لواصق تحوي أحاديث الأئمة (عليهم السلام)، قامت الهيئة بطبع آية الكرسي ومقامات الأئمة (ع) ولصقتها على لوحات بلاستيكية تعلق في المحلات والسيارات».

(٣٩) قامت هيئة المختار الثقفي ضمن برنامج سنوي بأول احتفال لها (ربما) بمناسبة «مولد أمير المؤمنين الإمام علي» يوم الجمعة ١٢ رجب ١٤٢٣هـ، الموافق لـ ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢م، في مقام الصحابي الجليل حجر بن عدي الكندي الواقع في إحدى ضواحي العاصمة السورية، دمشق. انظر تقرير: أحمد حسن، «المهرجان السنوي لهيئة المختار الثقفي بمناسبة مولد أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)»، الوكالة الشيعية للأنباء (إبابة)، أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. انظر الوصلة:

< <http://www.ebaa.net/talreer-khaber/index.htm> >.

الدينية الإحيائية السنيّة أمراً مستحيلاً حتى اليوم، ومن يعرف سورية جيداً يدرك حجم المخاطر الأمنية التي يمكن أن تلحق بأعضائها لو أنشؤوا أيّ جمعية من دون ترخيص؛ إذ لن يتوقف الأمر عند حدود منع الجمعية من العمل بالتأكيد، بل إن أعضاءها سيُتهمون بالانتماء إلى تنظيم سري هدفه قلب النظام وتغيير الأوضاع في البلاد. ولسوء الحظ فإن مجموعة شبان في اللاذقية (بعضهم في سن الأحداث) شكلوا في مطلع عام ٢٠٠٥ ما يشبه الجمعية، إلا أنّها من دون ترخيص ولا مقر، وأطلقوا عليها عفوياً اسم «صُنّاع الحياة» تأثراً بالداعية المعروف عمرو خالد ومشروعه الاجتماعي التنموي «صُنّاع الحياة» الذي حظي بدعم منظمة الأمم المتحدة، فسارعت الأجهزة الأمنية إلى اعتقالهم بحجّة تأسيسهم لـ «تنظيم سري إسلامي» يهدف إلى تغيير أوضاع البلاد! (٤٠)، وهي الحجّة نفسها التي كانت قد ساققتها ضد معارضيهما في الفترة ٢٠٠١ - ٢٠٠٥ نشطاء «لجان إحياء المجتمع المدني»؛ إذ زعمت بأن «المجتمع المدني» هو «تنظيم سري» لتغيير النظام! وشرعت في محاكمة بعضهم على هذا الأساس أمام المحكمة العسكرية (٤١).

(٤٠) انظر تقرير: «قلق في سورية بعد اختفاء ناشط في مجال حقوق الإنسان»، هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، ٢ أيار/مايو ٢٠٠٥، على الوصلة:

<http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_4506000/4506897.stm>.

حيث يقول التقرير إنّ «السلطات السورية اعتقلت ثلاثين طالباً من كليتي الطب والحقوق في اللاذقية، شمال غرب سورية، منذ فبراير/شباط الماضي (...) السلطات تتهم هؤلاء الشباب بتشكيل مجموعة «صُنّاع الحياة»، وهي منظمة ذات خلفية إسلامية». وكانت المنظمة العربية لحقوق الإنسان في سورية قد أفادت في بيان أصدرته السبت الماضي أنّ «أجهزة الأمن في اللاذقية اعتقلت ستة طلاب خلال الشهر المنصرم، وهم معروفون بالانتماء إلى «صُنّاع الحياة».

(٤١) مثّل الدكتور عبد الرزاق عيد أمام المحكمة العسكرية في حلب بعدة اتهامات، كانت تهمة «تنظيم المجتمع المدني» إحداها.

ما الذي يمكن أن يؤدي إليه شعور الأكثرية السنيّة بالتمييز الطائفي العلني الذي يمارسه النظام ضدهم بهذه الطريقة الفجّة في بلد عانى الأمرين من الصراع بسبب الطائفية؟ ما الذي يمكن أن يشعر به المواطنون السوريون الذين لم يعودوا يشعرون بالتمييز بينهم وبين طائفة معينة في حقوق المواطنة فحسب، بل أصبح الأمر يتعداه إلى التمييز الحاد والجارح بينهم وبين الأجنبي القادم من وراء الحدود، من العراق وأفغانستان وإيران والهند؟!

ملخص ما حصل أنّ هيئة خدمة أهل البيت دشنت الإعلان الفظ للطقوس الشيعية وتحديّ المشاعر السنيّة بالهتافات الطائفية. وعلى الرغم من أنّ التواجد الشيعي في سورية يعود لمئات السنين على شكل أقلية شديدة الصّغر، إلا أنّه لم يفكر أهلها ولا حتى الوافدون الإيرانيون ولا اللبنانيون الشيعة المستوطنون بهذا النمط من الصّنع بالشعائر والطقوس الاستفزازية، لكن النمط العراقي الشيعي المُشبع بالصراع والتوتر الطائفي كان بطبيعته يميل إلى التحدي والاستفزاز. ومع تزايد أعداد العراقيين بعد الغزو الأمريكي للعراق تحولت منطقة السيدة زينب إلى مستعمرة شيعية عراقية، الأمر الذي ساعد على تصاعد هذا النمط من الممارسات.

لقد كان لهذه الممارسات من قبل الجالية الشيعية العراقية ومؤسساتها بشكل خاص، والممارسات الأمنية التمييزية الطائفية الموازية على الأكثرية السنيّة، أن تفجّر مشاعر الحق والنقمة على الطائفة الشيعية، وتخلق جواً من الاحتقان المتزايد تجاه عمليات التبشير الديني التي باتت تتم بلا رقيب ولا حسيب في مجمل الأراضي السورية.

ثانياً: السباق مع الزمن (٢٠٠٣ - ٢٠٠٧)

في الحين الذي أبرمت فيه طهران صفقتها السرية وغير المباشرة مع واشنطن - عبر رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية آية الله محمد باقر الحكيم - للتخلص من عدوها النظام العراقي، كانت دمشق تحاول بقوة منع حدوث احتلال سهل للعراق. تحمّس البعثيون الأشقاء في دمشق، وكاد التناقض في قضية احتلال العراق بين طهران ودمشق^(٤٢) يؤدي بتراث من المصالح والعلاقات السياسية المتبادلة منذ ثورة الخميني عام ١٩٧٩؛ فدمشق باتت تخشى على نفسها من التغيرات في المعادلات السياسية الإقليمية في مرحلة ما بعد الاحتلال، كما أنها لم تستبعد أن لا يتوقف الاحتلال بعد إزالة نظام «دولة مارقة» بالقوة عند الحدود العراقية؛ فما الذي يمنع الأمريكيين من فعل ذلك مع النظام في سورية إذا تهيأ لهم الظرف المناسب واستقروا في العراق، وشرعيته وممارساته لا تختلف كثيراً عن شرعية وممارسات النظام العراقي!

وقع الاحتلال وبدأت تسوء علاقة إيران مع الولايات المتحدة والمجتمع الدولي ظاهرياً بسبب مفاعلاتها النووية ومساعدتها لامتلاك السلاح النووي؛ وفعلياً لضبط دورها في العراق؛ إذ سرعان ما اتجه الأمريكيون إلى استثمار قضية المفاعلات النووية، وتنازلت تصريحات المسؤولين الأمريكيين المتشددة إزاء إيران، ومعها تهديدات مبطنة تارة وظاهرة تارة أخرى بإمكانية القيام بعمل

(٤٢) حول التوتر الحاصل من تناقض الموقفين بين طهران ودمشق، انظر: مزاحم، هيثم، وسترنديج، أنريس. سورية وإيران: علاقات متوترة في محيط متغير، مراجعة استخبارات جين، تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٣. نقلاً عن: ليفريت، وراثة سورية، م.س، صص ٢٤٥ - ٢٤٦ وص ٢٧٦.

عسكري ضد إيران إن اقتضى الأمر. وفي موازاة ذلك بدأت الاتهامات الأمريكية - صبيحة اليوم التالي لاحتلال بغداد - الموجهة لسورية بإيواء القيادة العراقية، وتهريب الأسلحة العراقية وأموال المسؤولين، وإرسال المقاتلين الأجانب لمواجهة «قوات التحالف لتحرير العراق»، فضلاً عن تورطها السابق في «نقل المعدات العسكرية والمواد الثنائية الاستخدام» عن طريق الشحن البري، و«انتهاك نظام العقوبات» الذي فرضته الأمم المتحدة بعد حرب الخليج الثانية^(٤٣) والذي كانت إدارة بوش حتى بداية الحرب تطلب سورية بالالتزام به^(٤٤).

كان الهدف الأول والمباشر لهذه التصريحات هو كف يد هذين النظامين الجارين عن التدخل بالشأن الأمريكي في العراق،

(٤٣) انظر: زئيف شيف، «سورية تشتري الأسلحة للعراق في أوروبا الشرقية»، هآرتس، ٢٠٠٢/٧/١٥.

Gary C. Gambill, "Syria Rearms Iraq," *Middle East Intelligence Bulletin*, vol. 4, no. 9 (September 2002), and Daniel Williams and Nicholas Wood, "E. Europe Armaments Find Way to Iraq," *Washington Post*, 20/11/2002.

تقلاً عن: ليفريت، ورائة سورية، م.س، ص٢٤٦، ص٢٧٧.

أصبحت علاقة بشار مع إدارة بوش حول العراق علاقة شائكة قبل أن تبدأ الولايات المتحدة بالتحضير لعملية تحرير العراق. وخلال السنة والربع الأولى من رئاسته تشابكت مصالحه وحاشيته الاقتصادية المتزايدة مع النظام العراقي مع المطلب المبدئي لإدارة بوش في الأشهر التسعة الأولى من توليه الحكم بإعادة سنّ العقوبات الدولية على نظام صدام. ومع توسع العلاقات الاقتصادية السورية - العراقية سرعان ما ظهر الأسد على أنه المنتهك الأكبر لعقوبات الأمم المتحدة المفروضة على العراق نوعاً وكماً، وربما كان أكثر ما في هذا الأمر إشكالية من منظور أمريكي هو تورط الأسد بنقل معدات عسكرية ومواد ثنائية الاستخدام إلى العراق عن طريق الشحن البري، وأصبحت الانتهاكات السورية لنظام العقوبات الدولية محل نزاع دبلوماسي مع الولايات المتحدة في شباط/فبراير ٢٠٠١ منذ اجتماع وزير الخارجية الأمريكي كولن باول بشار الأسد ومسألة خط النفط العراقي.

(٤٤) ليفريت، المصدر نفسه، ص٢٤٨.

وبالتأكيد فإنه مع تزايد التدهور في العراق تزايد حنق الأمريكيين على كل من النظامين، الأمر الذي جعل العداء المشترك للأمريكان الفاطرة التي جمعتهم معاً لاستئناف علاقات دبلوماسية أكثر قوة من قبل.

رسم الهلال الشيعي

خلال ما يزيد على أربع سنين من تاريخ احتلال العراق، كان نظام الأسد مُنتقداً دوماً بأنه مصدرٌ للمقاتلين الأجانب القادمين من خارج الحدود إلى العراق لمقاتلة قوات الاحتلال، والانضمام إلى الفصائل المسلحة للمقاومة العراقية، إضافة إلى مساعدة القيادات البعثية في تفعيل دور المقاومة وتسهيل تدفق الأموال للمقاتلين البعثيين والإسلاميين، والإسهام بالتالي في عدم استقرار العراق^(٤٥). كانت ملفات مثل إيواء قيادات الفصائل الفلسطينية (حماس والجهاد) في سورية، والدور السوري في لبنان، ودعم حزب الله أمنياً ولوجستياً (تأمين مرور العتاد والأسلحة عبر الحدود السورية إلى لبنان) الذي كان يردده المسؤولون الأمريكيون في تصريحاتهم في الواقع أمراً ثانوياً قياساً بالاهتمام الأمريكي بالدور السوري في العراق.

لم يكن بشار الأسد والدائرة الضيقة حوله قد استوعبوا بعد التغييرات السياسية الإقليمية التي وضعهم فيها انسحاب الجيش الإسرائيلي من الشريط الجنوبي المحتل في لبنان إلى ما وراء الحدود: لقد انتهى دور ما سمي بـ«المقاومة»، وصار على الجيش أن ينتشر في الجنوب لفرض سيادة الدولة، لكن حزب الله -

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

ولمصالح إيرانية بالدرجة الأولى، وسورية بالدرجة الثانية - كان يرفض ذلك بشدة، بحجة أنَّ حماية لبنان من هجوم إسرائيلي محتمل لا تتم إلا عبر بقاء حزب الله مسيطراً على الجنوب، وبقاء الجيش بعيداً «لحمايته» أيضاً! فهو لا يقدر أن يدافع عن نفسه ضد السلاح الإسرائيلي. وجد كلٌّ من نظام الأسد والإيرانيين فرصة نادرةً للتشبث ببقاء حزب الله وتبرير عملياته حسب الضغوط التي تريدها سورية وإيران بوجود مزارع شبعاء.

كان رفيق الحريري رجل الدولة اللبناني خلال عقد ونصف قد نقل لبنان من دولة مدّمرة بالكامل إلى دولة حديثة عامرة بالمال والبناء والتجارة. وقد أدرك الحريري - الذي طالما دافع عن حزب الله في أوروبا وأمريكا وقام بحمايته من أن يوضع في قوائم منظمات الإرهاب الدولية - أنَّ لبنان الحر والمستقل عن هيمنة أمنية وعسكرية سورية عابثة يقتضي تحجيم دور حزب الله عن أن يكون دولة داخل دولة، وهذا يعني بالضرورة بسط سيادة الجيش اللبناني وإخراج القوات السورية من لبنان، والاكتفاء بعلاقات طيبة ومتوازنة بين لبنان وسورية.

لكن لبنان المستباح بماله وأهله من قبل المخابرات العسكرية السورية أصبح مصدر مصالح كبرى لرأس النظام السوري والدائرة الضيقة المحيطة به - والتي تحكم معه (صهره آصف شوكت، وشقيقه ماهر الأسد) - وما يتبعها من زبائنية عشائرية تقتات على مصالح لبنان وأموال أهله.

عندما قرّر الأسد الابن فرض إميل لحود مرة أخرى على رئاسة لبنان وإجبار رفيق الحريري على التصويت له، أدخل بذلك لبنان في استقطاب سياسي وانقسام طائفي غير مسبوق (بين موالاة

معظمها شيعي، ومعارضة معظمها سني وماروني) على الرغم من المعارضة الدولية للتمديد. ولكن الشيء اللافت للانتباه أنَّ أحد أسباب كره بشار الأسد للحريري كانت - كما يروي نائب الرئيس (آنذاك) عبد الحليم خدام على لسان الأسد - إنَّ «رفيق الحريري رجل يكتل طائفته [السَّنيَّة] حوله وضد [نظام] سورية، وهذا أمر غير مسموح [به من قبلنا]؛ هذا الرجل عدو لسورية»^(٤٦).

قُتل الحريري في عملية اغتيال معقدة التخطيط، تُعد أخطر وأعقد عملية اغتيال في فاتحة القرن الحادي والعشرين، كل الملابس السياسية والأمنية كانت تشير إلى تورط سوري حقيقي، وفقاً لما تثبته تقارير «لجنة تقصي الحقائق» وتقارير المحققين الدوليين (ديتلف ميلس، وسيرج براميرتز)، وعلى هذا الأساس تمَّت الموافقة على تأسيس المحكمة الدولية مطلع عام ٢٠٠٧، مع تمام العلم والثقة بأنَّ القادة الأوروبيين والأمريكيين يعتقدون ومن دون شك بأن النظام السوري كان وراء الاغتيال.

وسواء صح ذلك أم لا، فإن النظام السوري دخل في تداعيات سياسية بالغة الخطورة والحدة، وأدخل معه - في سياق إدارته للأزمة - المنطقة في انقسام طائفي لم يسبق له مثيل ربما منذ القرون الوسطى، خصوصاً مع تصاعد الاقتتال الطائفي السني الشيعي في عراق ما بعد صدام.

(٤٦) انظر: حسن صبرا «مقابلة مع عبد الحليم خدام»، ج ٢، مجلة الشراع (بيروت: ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧). وهذه المقابلة - مثل معظم مقابلات نائب الرئيس السابق عبد الحليم خدام بعد انشقاقه - تشرح ملابس توتر العلاقة بين الأسد والحريري والحوار الدائر حوله في رأس السلطة في سورية، وعلاقته بتورط النظام السوري في اغتيال الحريري حسب رؤية خدام وروايته.

فور مقتل الحريري في الرابع عشر من شباط/فبراير ٢٠٠٥ اندلعت المظاهرات في لبنان، وانقسم الشارع اللبناني بين «عدو» للنظام السوري يتهمه بالجريمة المروعة وحليف له بلا حدود؛ فقد حصل الاغتيال في ظل ظروف انقسام كان حاداً أساساً بين القوى السياسية اللبنانية بما تمثله من انتماءات طائفية. أصبح متظاهرو الشارع قوة سياسية طائفية كبرى أطلق عليها اسم «قوى ١٤ آذار»، وأصبح الانقسام السياسي انقساماً اجتماعياً حقيقياً بين طائفة سنيّة، ويلحق بها أكثرية الطائفتين المارونية والدرزية، وطائفة شيعية، ويلحق بها أقليات من الطائفة المارونية والدرزية.

أصبح الاستقطاب الطائفي المبني على الموقف من اغتيال الحريري (الزعيم والرمز السني) أساس هذا الاستقطاب والتحشيد؛ فحزب الله وطائفته يدافعون عن مصالحهم والمصالح الإيرانية والسورية، ومن ثمّ هم تلقائياً ينفون وبشدة علاقة النظام السوري بالجريمة؛ وتيار المستقبل الممثل للطائفة السنيّة يتهم بشكل مباشر وقاطع سورية لإخراجها من لبنان واسترجاع سيادته وإضعاف حزب الله والنفوذين السوري والإيراني، فضلاً عن رغبته الحقيقية في معاقبة المجرمين.

ما هي انعكاسات القضية في الشارع السوري؟ والأحداث التي شغلت الناس: مَنْ المستفيد من استهداف السنّة وإضعافهم في لبنان؟ السنّة اللبنانيون ينظرون إلى الحريري كرمز سياسي لهم، ومن ثمّ فإنّ المستفيد هو الطائفة التي برزت بقوة أخيراً في لبنان (الشيعية)، فالموارنة قد ضعفوا خلال حقبة الهيمنة السورية على لبنان، أمّا السوريون فقد حاول الإعلام الرسمي إقناعهم بأنّ إسرائيل والمعارضين للوجود السوري في لبنان هم المستفيدون من

إخراج الحريري من الساحة السياسية، وأنّ النظام لا يمكن أن يرتكب خطأ كبيراً مثل هذا.

ومع تزايد الهجوم على سورية وتزايد ظاهرة الاعتداء على العمال السوريين (حوالي ٥٠٠ ألف عامل سوري في لبنان آنذاك) بدأ المزاج العام في سورية ينقلب ضد آل الحريري؛ ولأن الناس في العالم العربي تؤمن بالعموم بنظرية المؤامرة الكبرى، فقد كان للضخ الإعلامي والتهميش الشعبي - الذي مارسته أبواق النظام والقوميون العرب المتطرفون - لانتهاام تقرير «لجنة تقصي الحقائق» وتقارير المحقق الدولي ديتلف ميلس بالتسييس، أن تفعل فعلها بالتأثير على الوعي الجماعي، الذي بات يسأل دون التفات إلى ما أوردته التقارير «المسيّسة»: لِمَ سورية وليست إسرائيل؟ والجواب الجاهز: «المؤامرة الأمريكية الصهيونية»!

نجح النظام في اللعب على الوعي الجماعي، وأصبح هو وحزب الله وأنصاره هم الذين يحوزون شرف «المانعة» و«الصفود والتصدي» ضد المؤامرة الأمريكية الإسرائيلية على سورية والعرب. لكن النظام كان يدرك حقيقة أنّه بات في مأزق، وأيّ مأزق؛ فاحتمال مطالبته بالمثول أمام محكمة دولية بتهمة الاغتيال أوقع النظام في عزلة دولية، وشيئاً فشيئاً بدأ يخسر علاقاته الدولية والسند الإقليمي العربي القوي ممثلاً بمصر والسعودية.

كان هذا يدفعه إلى مزيد من التشبث بالعلاقة مع طهران وتقوية المحور السياسي الإيراني؛ كإلا النظامين بحاجة للآخر، ويوماً بعد يوم أصبحت حاجتهما لبعضهما البعض حاجة أكثر من ممارسة دور سياسي ونفوذ إقليمي، بل للحفاظ على المصالح الحيوية لإيران في العراق ولبنان، وللحفاظ على وجود النظام نفسه بالنسبة إلى سورية.

لقد انقلبت المعادلة التي كانت في عهد الأسد الأب، وأصبح النظام السوري هو الطرف الأضعف في هذه العلاقة، خصوصاً بعد خروج سورية من لبنان تحت الضغط الدولي، وتجنباً للقرارات التي أصبحت تصدر كمتوالية هندسية من مجلس الأمن ضد النظام السوري لتجبره على تنفيذ القرار ١٥٥٩، القاضي بجلء القوات الأجنبية عن لبنان، ثم تجبره على خضوع رأسه للتحقيق الدولي. أصبح النظام السوري مهدداً بوجوده من أساسه؛ فقد قُصّت مخالفه في لبنان، وصار محتاجاً لحزب الله أكثر من حاجة حزب الله له، إضافة إلى أنه في واقع الحال لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمام أي هجوم عسكري إسرائيلي أو أمريكي محتمل؛ فقدراته العسكرية الرادعة ضعيفة للغاية. إن حرص النظام على العلاقات مع طهران أصبح قائماً على حسّ بدائي بالمصالح، ولم يستطع بشار الأسد وجماعته مقاومة الهزيمة باتجاه إيران ومنحها كل ما يريها من المصالح الاقتصادية والسياسية داخل البلاد. باختصار: فتح البلاد لها لتحقق مصالحها على أعلى درجة وأوسع نطاق، وكان بإمكان الأسد أن يقف بصلابه أكثر اعتماداً على الأوراق التي لاتزال بحوزته في المنطقة، لكن النظام الذي لا يحسن الإدارة ويفكر بعقل أمني وبهاجس الخوف واختصار الطريق لم يكن باستطاعته سوى المضي وراء هذا الخيار البائس.

بالنسبة إلى إيران، كان الفراغ السياسي الذي خلفته الحرب الأمريكية على العراق، وأزمة نظام الأسد المتزايدة في لبنان، وعزلتها الدولية، مطمعاً لملء الفراغ بمد نفوذها وبسط سلطتها إلى أكثر الأماكن حساسية وسخونة في العالم (الشرق الأوسط المجاور لإسرائيل، والمحاذي الشمالي لينبوع النفط الخليجي العالمي) والوصول إلى البحر المتوسط؛ فقد أصبحت سورية - وفقاً لبعض

التقارير الغربية، وهي محقّة - «تجد نفسها محشورة بين مطرقة الضغوط الدولية وسندان الإنقاذ الإيراني»^(٤٧).

لم يتلکأ الساسة الإيرانيون الخبثاء في استثمار الوضع الجديد بمد نفوذهم السياسي إلى العمق الاجتماعي السوري، بموازاة مدّ اقتصادي يستحوذ على صفقات القطاع الحكومي. وعلى الرغم من أنّ التعاون والتبادل الاقتصادي تصاعد بوتيرة غير مسبوقة منذ تولي بشار الأسد مقاليد الحكم في البلاد (عام ٢٠٠٠) إلا أنّ الوضع الجديد شرع أبواب التبادل الاقتصادي إلى أقصاه لصالح الكفة الإيرانية^(٤٨)، وصار الإيرانيون يتحدثون عن سورية بوصفها «بلداً هاماً جداً للاستثمار نظراً لموقعها الجغرافي»^(٤٩).

فهمت إيران جيداً الحاجة السورية إليها، ولهذا فقد قبلت بتوقيع اتفاقية عسكرية للتعاون والدفاع المشترك في منتصف

(٤٧) انظر: «استراتيجية إيران لنشر التشيع في سورية»، تقرير صحيفة الوطن العربي، ٢٠٠٦/٦/١٢.

(٤٨) التبادل الاقتصادي بين البلدين يبدو غالباً في اتجاه واحد، السوريون يستوردون الصناعة الإيرانية، ولا يوجد لدى السوريين الكثير ممّا يمكن أن يورّدوه للإيرانيين. وعلى سبيل المثال، أول ما يلفت انتباه الزائر لسورية هو أنّ الأكثرية الساحقة من سيارات الأجرة (التاكسي) هي من ماركة «سابا» الإيرانية الصنع، وقد أنشئ أول مصنع للسيارات في تاريخ سورية ماركة «شام» بالشراكة مع شركة «إيران خودرو» الإيرانية، وافتتح في نيسان/أبريل ٢٠٠٧. ولا شك أنّ هناك صفقات كثيرة تمّ الاتفاق عليها، مثل صفقة لشراء آلاف الباصات الإيرانية للنقل الداخلي، وشراء بعض أنواع الأسلحة الإيرانية للدفاع.

(٤٩) من نص الكلمة التي ألقاها السفير الإيراني في سورية حسن أختري، كما وردت في وكالة الأنباء السورية (سانا) (٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٧)، خلال مراسم أقامتها شركة إيران خودرو بمناسبة افتتاح «لجنة الصداقة السورية الإيرانية» في طهران. انظر التقرير على موقع سيريا نيوز الإخباري على الوصلة:

< http://www.syria-news.com/newstoprint.php?sy_seq=59539 >.

حزيران/يونيو ٢٠٠٦ بلا فائدة ولا معنى. ومن منظور النظام السوري فإنَّ صيغة هذه الاتفاقية - التي تتضمن النص على هدف «تعزيز التعاون وضرورة الحفاظ على السلم والاستقرار في المنطقة»^(٥٠) - يمكن أن تكون دعاية مفيدة في إثارة الرعب من التحالف السوري الإيراني، الأمر الذي يمكن أن يصبح ورقة ضغط جديدة بيد النظام السوري. وفور الإعلان عن توقيع الاتفاقية صرَّح وزير الدفاع السوري حسن توركماني أثناء زيارته لإيران بعد التوقيع بالقول: «إيران تعتبر أمن سورية أمنها»^(٥١)، وأنَّ تعاون سورية وإيران «ضد تهديدات إسرائيل ليس سراً»^(٥٢). وفي واقع الأمر، النظام السوري كان على يقين بأنَّ أمن سورية يهم إيران بقدر مصالحها، ومصالحها في سورية في ذلك الوقت ليست وجودية، ولا بأهمية مصالحها في العراق، وأنَّ هذا الاتفاق لن يقدِّم لها شيئاً ملموساً.

إنَّ التخوُّف الذي تحقَّق من هذا الفتح الكامل للأراضي السورية والاقتصاد السوري والمجتمع السوري للإيرانيين شكَّل حقاً هاجساً للعرب، لكن الأسد يقول إنَّه «إن كانت إيران تلعب دوراً أساسياً وكبيراً فهذا لمصلحة المنطقة... نحن ليس لنا مصلحة بأن نكون دولاً ضعيفة... الدول القوية إن كانت تلعب دوراً عادلاً أو دوراً أساسياً إيجابياً فهذا يحقِّق استقرار المنطقة. التخوُّف من ماذا؟»^(٥٣)، وهو يعرف بالضبط «التخوف من ماذا»!

(٥٠) «اتفاق عسكري سوري - إيراني ولجنة للدفاع»، النهار، ١٦/٦/٢٠٠٦.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) من حديث بشار الأسد الشامل لقناة دبي الفضائية، بتاريخ ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠٦.

وفي نهاية المطاف أصبحت إيران في ظرف لم تكن تحلم به فيما يتعلق بسورية، وهي بحكم التطورات التي تعصف في المنطقة، والمفتوحة ربما على المجهول، عليها أن تنتهز الفرصة وتسابق الزمن لتجني أكبر قدر من المكاسب قبل أن يحصل ما تكرهه وتضطر أن تعود إلى جحرها.

«حزب الله»

إيران وحزب الله وجهان لعملة واحدة، فالخمينيون اللبنانيون يعملون - كما هو معروف - بزعامة «الوكيل الشرعي لمرشد الثورة الإسلامية في لبنان» حسن نصر الله^(٥٤)، على أساس أنهم امتداد «الثورة الإسلامية الإيرانية» في لبنان^(٥٥). معظم السوريين لا يعرفون

(٥٤) عَيَّنَ مرشدُ الثورة الإسلامية في إيران السيّد علي خامنئي آيةَ الله العظمى ومرجع التقليد الرسمي في لبنان الشيخ محمد يزبك (عضو شوري «حزب الله»، والمدرّس بحوزة الإمام المنتظر في بعلبك)، والسيد حسن نصر الله (أمين عام «حزب الله») «وكيلين شرعيين» عنه في لبنان، «في الأمور الحسبية، والوجوه الشرعية»، فيستلزمان عنه «الحقوق»، ويصرفانها في «مصالح المسلمين»، ويردان «المظالم»، ويجريان «المصالحات الشرعية» لأهل الخمس، ويعينان «الوكلاء» من قبلهما. انظر: صحيفة السفير، ١٨/٥/١٩٩٥، نقلاً عن: شرارة، دولة حزب الله، م.س، ص ٣٧٦، هامش ١٢.

(٥٥) كانت ولادة «حزب الله» ناجمة عن انشقاق قيادات من «حركة أمل» الشيعية عندما قيل نبيه بري (نائب موسى الصدر زعيم الحركة) الانضمام إلى «هيئة الإنقاذ» اللبنانية الوطنية التي تضم مختلف القوى السياسية اللبنانية، وكانت حكومة «الثورة الإسلامية» في طهران ترفضها، والتزاماً بقرارات «الثورة الإسلامية» قرّر خميني حركة أمل الانفصال، وكما جاء على لسان حسين الموسوي أحد أبرز المنشقين: «لأنّ الذي يقرر ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي هو الثورة الإسلامية التي أعلنّا جميعاً في حركة (أمل)، في المؤتمر الرابع للحركة في آذار/مارس ١٩٨٢، (أننا) جزء لا يتجزأ من الثورة الإسلامية (...) وقد تبلغنا جميعاً موقفاً من الثورة الإسلامية يرفض المشاركة في هيئة الإنقاذ». انظر: «الحركات الإسلامية في لبنان (ملف)»، مجلة الشراع (١٩٨٤)، ص ٢٢٢ - ٢٢٣. نقلاً عن: شرارة، دولة حزب الله، م.س، ص ١١٩ و ١٢٧.

هذه الحقيقة، خصوصاً أنَّ حزب الله نفسه أصبح ينفي ذلك بشدة بعد أن كانت تصريحات قاداته تصب في التبعية لإيران لسنوات عديدة. وبما أنَّ السوريين تتملكهم المشاعر القومية بشدة، ويميلون بطبيعتهم للتسامح الطائفي^(٥٦) والمسالمة، فقد تجاوزوا الانتماء الشيعي لحزب الله، وباتت أعينهم مشدودة للعمليات النوعية التي بدأ يقوم بها ضد الإسرائيليين منذ منتصف التسعينيات، وبدأ حزب الله يدخل بصدق إلى قلوب السوريين بإنجازاته في إلحاق الأذى بالمحتلين الإسرائيليين في الجنوب، وبما أنَّ إحساس السوريين العروبي يتجاوز في قوته الإحساس الوطني فقد كانت «الانتصارات» الصغيرة لحزب الله بمنزلة انتصارات للأمة وليس للثورة الإسلامية ولا لنظام الأسد، لكنها كانت أيضاً تمنح الأسد - الذي لم يكن يخفي دعمه لحزب الله تحت شعار «دعم المقاومة اللبنانية» - شيئاً من البريق لصورته التي كساها المقت بنهر الدماء المسفوكة طوال عقد الثمانينيات.

بدءاً من ١٩٩٧ سُمح لحزب الله - ربما بوساطة من بشار الأسد (المسحور بشخصية نصر الله، والذي أصبحت تربطه علاقة شخصية به) لدى أبيه - أن يجوب المدن السورية لعرض إنجازاته

= واستطراداً، فإنَّ قيادة حزب الله (الشورى) تتألف من سبعة لبنانيين وإيرانيين اثنين لا يُعرف عنهما أي شيء سوى وجودهما! انظر: زين حمود، «حزب الله من الداخل: أسرار وخفايا»، مجلة الشراع (١٤ آب/أغسطس ١٩٩٥)، نقلاً عن: شرارة، دولة حزب الله، م.س، ص ٣٣٧، ص ٣٧٥ هامش رقم ٧.

(٥٦) كانت أحداث الثمانينيات استثناء، ذلك أنَّها لم تنشأ بسبب طبيعة طائفية في الشعب السوري، بل لاستفزاز سياسي قائم على أسس طائفية قام به حافظ الأسد من عملية تطييف واسعة للسلطة والحزب والجيش والأمن، استكمالاً لما بدأت به حكومة البعث واللجنة الخماسية في «تطييف الجيش والحزب» منذ آذار/مارس ١٩٦٣، والتاريخ يشهد أنَّ الفتن الطائفية في سورية محدودة للغاية قياساً إلى جوارها في العراق ولبنان مثلاً.

على معارض في المكتبة الوطنية العامة (مكتبة الأسد)، وفي الجامعات السورية، عبر عرض أشرطة فيديو مثيرة لعملياته العسكرية ضد الإسرائيليين، ومجسمات تمثل أهم العمليات وكيفية تنفيذها، وبعض القطع الصغيرة والعتاد المستولى عليه من الإسرائيليين، ويوزع بكثافة البروشورات، وربما ينسخ أشرطة الفيديو ويوزعها على زواره.

وخمينيو لبنان - كما أسلفنا - يرون أنفسهم سفراء «الثورة الإسلامية» الإيرانية، والواقع أنَّ «سفراء الثورة الإسلامية عليّ مثال حرس الثورة الإسلامية، من العسير تمييز مهماتهم الديبلوماسية والتمثيلية من مهماتهم «الثقافية» على ما كان يقول رئيس مجلس الشورى علي أكبر هاشمي رفسنجاني^(٥٧)! وهكذا ما أن توفي الأسد في ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠ حتى بدأ الخمينيون ممارسة «مهمتهم» الثقافية (التبشيرية)، بعد أن تحقق تحريرهم لجنوب لبنان فيما عُدَّ «انتصاراً تاريخياً».

ففي مناسبة «المولد النبوي الشريف» والمصادف لمولد الإمام «جعفر بن محمد»، وبمناسبة «أسبوع الوحدة الإسلامية» الإيراني، شارك حزب الله في ٣٠/٥/٢٠٠٢ في مدينة حلب (مشهد النقطة)، ولأول مرة في نشاطات دينية داخل الأراضي السورية، ممثلاً بأعلى قيادة له بعد الأمين العام، الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله، وذلك في احتفال كبير. وليس خافياً أنَّ مشاركة حزب الله داخل سورية، وفي مدينة تعتبر بعيدة، وفي احتفال ديني، وبتمثيل أعلى قياداته، أمر يثير علامات الاستفهام؛ فالمفترض أن

(٥٧) شرارة، دولة حزب الله، ص ٣٣٧: «سفراء الثورة الإسلامية» في كلام رفسنجاني يقصد به السفراء الرسميين للحكومة الإيرانية.

تكون مشاركته في السيدة زينب كبرى التجمعات الشيعية، أو في العاصمة دمشق، لكن اختيار حلب أمر له دلالة التبشيرية، خصوصاً إذا علمنا أن هذا الحفل تضمن احتفاءً بإعلان ٦٠ عروساً (شيعياً) في زواج جماعي هو الأول من نوعه في مدينة حلب، التي لم تشهد قبل هذا التاريخ زواجاً جماعياً قط! واللافت للانتباه أن هذا الزواج ممول من قبل الحكومة الإيرانية على حدّ تصريح الخطباء في المهرجان! لا شك أن هذا الاحتفال في ظروف بائسة وصعبة للغاية في صفوف الشباب الفقراء، وارتفاع معدلات البطالة وسن الزواج في مدينة تعتبر الأكثر تشدداً في الزواج - أمر لا يخلو أبداً من دعوة تبشيرية.

لم تتوقف مشاركات حزب الله الدينية التبشيرية، لكنها كانت على كل حال محدودة قياساً إلى المبشرين العراقيين، وذلك يعود لأسباب تتعلق بانشغال حزب الله بالمعارك السياسية في لبنان. من هذه الأسباب التمديد للرئيس اللبناني (والحليف السوري بلا حدود) إميل لحود بدءاً من عام ٢٠٠٣، وظروف التحضير الأمريكي لاحتلال العراق، وغيان الشارع الشيعي وتلهفه للعمليات العسكرية لإسقاط النظام البعثي، وإحلال نظام آخر مكانه يكون للطائفة الشيعية اليد الطولى فيه، والصراع على لبنانية «مزارع شيعا» التي كانت تعني له صراعاً على شرعية بقائه كمقاومة، وأخيراً انخراطه في التحزب السياسي والاصطفاف الحاد مع موالى الوجود السوري في لبنان (الموالاة - جماعة عين التينة)، وأنصار خروج السوريين من لبنان واستعادة السيادة (المعارضة - جماعة قرنة شهوان)، ومن ثم مقتل الحريري وتداعياته، كل ذلك لم يسمح لحزب الله بممارسة نشاطه التبشيري في سورية بسبب التحديات السياسية التي تواجهه.

وعلى الرغم من مشاركته المحدودة في النشاطات التبشيرية -

فيما إذا استثنينا نشاط منظّره الروحي السيد حسين فضل الله، الذي كان يمارسه في دمشق والساحل ودرعا^(٥٨) - إلا أنّ هذه المشاركة المحدودة كان في مقابلها استثمار غير محدود لنجاحه العسكري في جنوب لبنان ضد الإسرائيليين من قبل المبشرين الشيعة في سورية (وفي معظم البلدان الأخرى التي ينشطون فيها). غير أنّ هذا الاستثمار برز بقوة وظهر إلى العلن أثناء الحرب الإسرائيلية على حزب الله التي ابتدأت في ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦، عندما اختطف مقاتلو حزب الله جنديين إسرائيليين، ورّد الطيران الإسرائيلي بالقصف وبعمليات برّيّة لتصفية عناصر حزب الله وإبعادهم عن الحدود الإسرائيلية إلى ما وراء نهر الليطاني.

لأول مرة تنقسم النخبة العربية السياسية والثقافية^(٥٩) تجاه حزب الله، بين من يحمله اللوم على تحريض الإسرائيليين بالرد، ويريد أن يتخلص من الحزب الذي أرقق لبنان واستعمره لصالح إيران على شكل «دولة داخل دولة»، خصوصاً بعد أن صرح - في اليوم التالي - «مصدر مسؤول في الخارجية السعودية» تصريحاً

(٥٨) إضافة لدرسه الأسبوعي الذي ابتدأه منذ مطلع التسعينيات في الحوزة الزينية، كان فضل الله يجوب بعض المناطق في درعا بدروسه، ومحاضراته، وخطبه في المهرجانات والحفلات في المناسبات الشيعية، وافتتاح المساجد والحسينيات، وعلى سبيل المثال افتتح - بحضور مسؤولين حكوميين - أوّل مسجد شيعي في مدينة درعا «مسجد الرسول الأعظم»، وأوّل حسينية أيضاً «حسينية الرسول الأعظم» في حي المطار. انظر تقرير: «التشيع في سورية: محافظة درعا»، على موقع الشيخ محمّد سرور زين العابدين، ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٦،

< <http://www.surour.net/index.php?catid=000003&id=000168> >.

(٥٩) كمثال على الانقسام الثقافي في النخبة السورية، انظر: أكرم البني، «لبنان المنكوب وخيار الدولة» صحيفة الغد، ٢٠/٧/٢٠٠٦ ورأفت نديم شهاب، «ما بعد حيفا وإلى ما بعد ما بعد حيفا... توجد دمشق!»، صحيفة الغد، ٢٠/٧/٢٠٠٦.

يحمل فيه حزب الله مسؤولية العدوان وجرّ المنطقة إلى الحرب لصالح دول أخرى (المقصود طبعاً إيران).

جُيِّشَ الإعلام السوري لصالح حزب الله، وأخذت القناة السورية تنقل الأخبار والأحداث عن «قناة المنار» التابعة للحزب بشكل مباشر، وفي إطار حملات التخوين للنخبة السياسية المتقدمة لحزب الله في حربه ضد الإسرائيليين، ومن وراءهم من عملائهم «الأمريكيين» في لبنان (المقصود بشكل رئيسي: تيار المستقبل والجنبلاطيون)، عُيِّنَ الشعب السوري وشُحن لمناصرة حزب الله، فالمسألة هي «إحباط مؤامرة» ضد سورية ولبنان، ضد «المقاومة الإسلامية» التي تشكل «حاجز الممانعة» ضد الإسرائيليين، وآخر خط له «الشرف العربي» هنالك، بحسب التعبيرات التي أصبحت تتردد على ألسنة العامة.

رفع السوريون أعلام حزب الله في بيوتهم، تلك التي وُزعت عليهم في الشوارع العامة من قِبل أفراد أجهزة الأمن (العسكري والسياسي غالباً)، وألصقوا الصور - التي وزعت عليهم أيضاً - على سياراتهم وفي الحافلات العامة وهي تتضمن دعاءً بالنصر للشيخ نصر الله، وأخرى تقرن بين صورة الرئيس بشار الأسد وصورة الأمين العام لحزب الله، ووراءهما علما سورية وحزب الله (وليس علم لبنان!). لم يجد السوريون غضاضة في ذلك؛ كان الأمر حماساً لانتصارات عسكرية والدفاع عن شرف الأمة المتبقي، وهي تبقى بنظرهم مسألة سياسية وقومية عليا لا شأن للاختلاف الديني الطائفي فيها؛ بل إنَّ السوريين - ربما شأن معظم إخوانهم العرب - أثبتوا أنَّهم غير طائفين، فعلى الرغم من الحرب الطائفية الدائرة في العراق، والتحالف الخفي بين الحكومة الشيعية وميليشيات «جيش المهدي»، و«قوات بدر» مقابل «تنظيم القاعدة»، والذين يتم على

أيديهم الترحيل المنظم والمجازر الفظيعة ضد إخوانهم السُّنة العراقيين، إلا أنَّهم كانوا أعلى من الأحقاد الطائفية، وتحمسوا لنصرة حزب الله في معركته مع الإسرائيليين كل الحماس.

انتهت الحرب ووضعت أوزارها منذ ١١ آب/أغسطس ٢٠٠٦ (تاريخ قرار مجلس الأمن ١٧٠١). وخلال الحرب بقدر ما لقي حزب الله حماساً لـ«بطولاته» الميدانية المشرفة، لقي نقداً حاداً لجرّهُ المنطقة إلى حرب غير محسوبة العواقب. خسر حزب الله المعركة حسابياً (بعدد القتلى الذي تجاوز الألفين، وتدمير هائل للبنى التحتية)، لكنه ربح معنوياً؛ وقليلة هي المرات التي ينفصل فيها الربح المعنوي عن الربح الحسابي (شأن حرب تشرين ١٩٧٣). وما أن خرج الحزب من معركته مع الإسرائيليين حتى راح يحصد انتصاره تبشيراً شيعياً، وفي الوقت نفسه ذهب ليعمل بجذ لأرب الصدع الذي نال صورته جرّاء انتقاد النخب السياسية والثقافية العربية، والتي وصل صداها بشكل أو آخر إلى «إخوانه» من أبناء الشعب السوري الذي كان صديقاً؛ فبعد أقل من أسبوعين، جابت قيادات حزب الله المدن السورية وأريافها، للتحديث عن الانتصار الذي حققته المقاومة المؤمنة (بآل البيت) في «أشرف مواجهة ومعركة عرفها العصر الحديث، بل عرفها التاريخ»!^(٦٠)، «فهو أوّل انتصار عربي تاريخي في الصراع مع العدو الإسرائيلي، بالرغم من عدم تكافؤ القوى أساساً، وبالرغم من تخلي غالبية الأشقاء العرب وغالبية الإخوة المسلمين والعالم كله (...) معجزة الانتصار التي أذهلت العالم وأذلت الصهاينة»^(٦١).

(٦٠) من كلام حسن نصر الله المذاع على قناة المنار في ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

(٦١) المصدر نفسه.

في دمشق وحلب وحمص ودرعا ومنطقة الجزيرة، وربما معظم المدن والأرياف السورية، بدأ النقاش حول حزب الله، وبدأ تأثير الحرب الطائفية في العراق بالظهور؛ إذ نبّه منتقدو حزب الله إلى أنَّ الحزب كان ولا يزال يصمت صمتاً مطبقاً حول ما يجري من مجازر ضد السُنَّة في العراق^(٦٢)، وذلك على الرغم من أنَّه لا يترك حادثة طائفية ضد شيعة العراق إلا ويصدر بياناً بالغ الشدَّة في انتقادها^(٦٣)، فإذا لم يكن «حزب الله» طائفيّاً فما معنى ذلك غير الطائفية؟

وبدأ السؤال الذي يتعدّى حزب الله ليصل إلى إيران يأخذ

(٦٢) تنبّه الحزب إلى ذلك مع بداية ظهور الانشقاق حول الموقف منه، فأصدر حزب الله لأوّل مرّة في ١٧ جمادى الثانية ١٤٢٧هـ/الموافق لـ ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦م نداءً مهذباً ينتقد فيه العنف الدائر في العراق ويدعو لوحدة الصف، وذلك على شكل بيان صادر عن مكتب آية الله محمّد حسين فضل الله الزعيم الروحي للحزب، يريد به تطويق الصدع ما أمكن في صورة حزب الله في العالم العربي والإسلامي.

(٦٣) يمكن للبيان التالي لحزب الله - والصادر في ١٨ تموز/يوليو ٢٠٠٥؛ أي قبل عام على حربه - أن يعطي مثلاً نموذجياً لصيغ الإدانة التي يستعملها حزب الله في إدانة مرتكبي الجرائم، والتدقيق البسيط يكشف عن صيغة طائفية في بناء البيان.

فقد استنكر حزب الله بشدّة المجزرة المروعة التي راح ضحيتها عشرات الشهداء والجرحى قرب مسجد المسيب، واعتبر - في بيانه - أن «هذا العمل الإجرامي الوحشي الذي ارتكبه متعشّشون لسفك دماء الأبرياء ينم عن حقد دفين، أعمى بصائر أولئك القتلة الذين باتوا لا يتورعون عن قتل المدنيين حتى ولو كانوا في دور العبادة». وأضاف بيان حزب الله «إنّ هذه الجرائم من حلقات القتل الجماعي تستدعي أعلى درجات الإدانة والاستنكار من العالم كافة، وخصوصاً الدول العربية والإسلامية، وعلماء المسلمين المدعويين للعمل على رص الصفوف ونبذ الفتنة»، واختتم بيان حزب الله بالتقدّم بالعزاء لأهالي الشهداء والدعاء للجرحى أملاً بأن يكون العراقيون في مستوى المرحلة في الحفاظ على وحدتهم الداخلية، وأن لا يقعوا ضحية المخططات التي لا يستفيد منها إلا أعداء الأُمّة وفي مقدّمتهم الاحتلال الأمريكي». انظر البيان على موقع قناة المنار:

< <http://www.manartv.com.lb/Story.aspx?language=ar&DSNO=635205> >.

صداه في الشارع السوري: لماذا تدعم إيران المقاومة في لبنان وفلسطين وتقف ضدها في العراق والعدو في الحالين واحد؟ وخلال شهر رمضان ١٤٢٧هـ (٢٤ أيلول/سبتمبر - ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦م) كان الحديث الشاغل للناس هو حملات التشيع والأموال المتدفقة لتغذيتها، وبدأ الامتعاض من إيران وملايها في العراق يأخذ بالانتشار والتصاعد.

استطاع منتقدو حزب الله أن يقللوا من مكانة حزب الله الرفيعة في عيون الجماهير، فالحماس له بدأ يأخذ بالفتور، بجوار حديث متصاعد ومتوتر عن حملات تشيع في سورية^(٦٤). وقد أثبتت التقارير أنَّ أداء حزب الله استثمر بقوة في التشيع، وأنَّه أصبح العبور للخط الفاصل بين الطائفتين، ليس له علاقة بالدين بقدر ما يتعلق بدور حزب الله في حالة الاستقطاب السياسي في الشرق الأوسط بعد حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦^(٦٥)، وصار ملاي الشيعة في السيدة زينب يتحدثون عن استقبال عشرات السُّنة السوريين الراغبين باعتناق التشيع^(٦٦)، وهي في الغالب مبالغة دعائية لحزب الله الذي

(٦٤) انظر: أكرم النبي، «لماذا انحسرت شعبية حزب الله؟»، صحيفة الغد، ٢٥/١/٢٠٠٧.

As example, see: Ellen Kinichmeyer, "Syrian Sunnis Joining Shiites," *Washington Post*, 6/10/2006, and Stuart Reigeluth and Abdel Rahman, "La "ChiizaciYn" de Siria," *Foreign Policy* (EdiciYn Espanola) (2007).

انظر أيضاً تقرير: محمد أبو رمان، «التشيع في الأردن: ظاهرة يغذيها حزب الله»، صحيفة الغد، ٤/١٠/٢٠٠٦.

(٦٦) يقول مصطفى السادة (رجل دين ومبشر شيعي عراقي ناشط مقيم في السيدة زينب) إنه يعرف أنَّ ٧٥ سنياً من دمشق اعتنقوا المذهب الشيعي منذ بداية المعارك في لبنان في منتصف شهر تموز/يوليو، وقد صعدت الحرب ما وصفه بأنَّه اتجاه متزايد نحو اعتناق المذهب الشيعي في السنوات الأخيرة؛ وقال: «يمكننا الإحساس به، لدينا اتصالات من دول أخرى، يطلبون منّا فتح المجالس وإرسال رجال دين». انظر:

Kinichmeyer, "Syrian Sunnis", Ibid.

بدأت صورته بالتآكل مع تصدّع الصف العربي والإسلامي خلفه.

في صبيحة يوم السبت اليوم الأول لعيد الأضحى ١٤٢٧هـ الموافق لـ ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦م أُعلن عن إعدام صدام حسين، وبثت قناة «العربية» مقاطع من عملية الإعدام. استيقظ السوريون يوم العيد على وقع خبر كان صدمة عامة حوّلت عيدهم إلى كآبة، والعابر في شوارع المدن السورية كان يشعر بالوجوم الذي يكسو وجوه الناس صبيحة ذلك اليوم. لقد كان الديكتاتور الدموي صدام حسين قد تحوّل إلى رمز عربي لمقاومة الاحتلال الأمريكي، وشعر الناس أنّ إعدامه كان يستهدف إيذاء مشاعرهم، فالتضحية به قرباناً للاحتلال في يوم «فرحة المسلمين» كان يعني من دون أي لبس أن تكون هدية الاحتلال الأمريكي. شعر الناس أنّهم كونهم مسلمين سنّة مستهدفون في ذلك. ومع تكشف معلومات ومقاطع أخرى لحادثة الإعدام، ومعلومات عن حيثيات الإعدام والشخصيات الشيعية التي حضرت «حفلة» الإعدام، والشعارات الشيعية الطائفية التي أطلقت بعد إعدامه، والكلام الذي قاله صدام وهو على منصّة الإعدام، كلّ ذلك قلب المزاج العام ضد حزب الله، وضد الشيعة وإيران دفعة واحدة^(٦٧)؛ فقد فهم السوريون - ربما كغيرهم من العرب - غريزياً أنّ «إعدام صدام هو عقاب مذهبي لا عدالة وطنية»^(٦٨).

(٦٧) انقلب مزاج العالم العربي كله خصوصاً في الشرق الأوسط، انظر مثلاً: خليل رضوان، «الأردن: إعدام صدام يقلب الرأي العام ضدّ حزب الله وحماس وإيران»، صحيفة المستقبل (بيروت)، ٨/١/٢٠٠٧.

(٦٨) حَكَم البابا، «إعدام صدام كمعاقب مذهبي لا كعدالة وطنية»، القدس العربي (لندن)، ٦/١/٢٠٠٧.

إلى هنا أصبح الحديث عن التشييع ينحو منحى آخر، على الأقل لم يعد بإمكان المبشرين الاعتماد كثيراً على الزهو بانتصارات حزب الله^(٦٩)، وأصبح على المبشرين أن يتبعوا استراتيجية ما قبل ٢٠٠٠ في التبشير، مع فارق في إضافة إلى الموارد المالية والتغطية الأمنية الاستثنائية التي صارت متاحة لهم بعده.

معركة الحوزات

ما بين عام ٢٠٠١ وحتى عام ٢٠٠٦ أنشئ في قرية السيدة زينب أكثر من اثنتي عشرة «حوزة شيعية»، وثلاث كليات للتعليم الشيعي^(٧٠)؛ أي أنه خلال ست سنوات فقط تم إنشاء ثلاثة أضعاف

(٦٩) لقد أحسّ حزب الله نفسه بانكسار صورته إثر إعدام صدام حسين بطريقة وتوقيت مستفزّين، فناشد أمينه العام الشيخ حسن نصر الله - في سياق الدفاع عن الشيعة وحزب الله، وتأثر صورتهم في العالم العربي والإسلامي - العرب والمسلمين إلى عدم الوقوع في فخ الفتنة الطائفية واعتبار أن السنة أعداء للشيعة أو الشيعة أعداء للسنة، فالعدو واحد، وهو الاحتلال الأمريكي الذي يجب محاربته بخيار المقاومة المسلحة، على حد قوله. وقال نصر الله إن حكومة المالكي تتحمل وحدها مسؤولية إعدام صدام حسين، وإن على العرب والمسلمين أن «لا يحتملوا كل شيعة العراق، ولا كل شيعة العالم هذه المسؤولية... فلتتفق على مبدأ ونقول: إذا أخطأت أنا، [يعني] أنا أخطأت [فقط]، وليس كل شيعة العالم». وطالب حكومة المالكي بكشف الدور الأمريكي في عملية إعدام صدام، باعتبار أن هناك أسئلة كثيرة تطرح في قرار الإعدام وفي تفاصيل الإعدام... الرئيس العراقي السابق كان في قبضة الأمريكيين، لماذا تم تسليمه إلى الحكومة العراقية قبل العيد بيوم أو يومين؟ وماذا قيل لهم؟ وكيف تم التصوير؟ ومن الذين أطلقوا الشعارات؟ هل هم من أنفسهم فعلوا ذلك؟ أو أن هناك من دفعهم لذلك؟ من صور؟ من الذي سرب التصوير؟ والكل يعرف أن هذه الأخطاء سيتم استغلالها لإحداث إثارة ضخمة على مستوى العالمين العربي والإسلامي». انظر: حديث الشيخ حسن نصر الله لقناة المنار، مساء الجمعة بتاريخ ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧.

(٧٠) والحوزات هي: «حوزة الإمام علي» أو «الحوزة الحيدرية»، يشرف عليها السيد فضل الله، و«حوزة الإمام جواد التبريزي» (٢٠٠٣)، بإشراف الشيخ عباس النّزاع، =

ما أنشئ خلال ربع قرن! وحصلت أول جامعة إسلامية شيعية متخصصة بالعلوم الدينية على ترخيص أممي (وليس على ترخيص قانوني) للعمل داخل سورية في ٢٠٠٣^(٧١).

وبما أن التعليم الديني في سورية يخضع لإدارة قسم التعليم الديني في وزارة الأوقاف، فإن الحوزات التي انتشرت كالقطر في السيدة زينب قرّرت أن تخرج عن رقابة الأوقاف، وأسست ما أسمته «مديرية الحوزات العلمية»، وحصلت على موافقة الأمن

= و«حوزة الإمام الصادق»، و«حوزة الرسول الأعظم»، و«حوزة الإمام المجتبي» مؤسسها هندي الجنسية، و«حوزة الإمام الحسين»، و«حوزة الإمام زين العابدين»، و«حوزة قمر بني هاشم»، و«حوزة إمام الزمان التعليمية»، و«حوزة الشهيدين الصديقين»، و«حوزة الإمام المهدي العلمية للدراسات الإسلامية» (٢٠٠٢)، تعود رخصتها إلى علي باقر تصور وهو هندي الجنسية، مواليد ١٩٧١، و«حوزة فقه الأئمة الأطهار» (٢٠٠٦) بإشراف المرجع الديني محمد الفاضل اللنكراني، وهناك حوزة أسسها الشيخ السعودي حسن الصفار عام ٢٠٠٥، وهناك حديث عن حوزة أقيمت في مدينة اللاذقية باسم «حوزة الرسول الأعظم» في حي الأزهر، يديرها الشيخ أيمن زيتون - عراقي، ويشير عدد من التقارير (غير صحفية) إلى وجود حوزة شيعية في تل أبيب يديرها متشيع من أبناء المدينة، لكن لا يوجد ما يؤكد ذلك من مصادر مستقلة.

وفرع دمشق لـ«الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية» الشيعية في لندن، ومقره في مقام «السيدة رقية» في حي العمارة الجوانية بدمشق، ويرأسه الشيخ نبيل حلباوي، وفرع معهد الدراسات الإسلامية التابع لشمس الدين باسم «كلية الدراسات الإسلامية» في مدينة إدلب، يديره متشيع من ريف حلب هو الشيخ خليل الشاوي، و«كلية الدعوة والاجتهاد» في مدينة الثورة (الطبقة) ويشرف عليه متشيع من مدينة الرقة هو الدكتور علي الشيعي.

(٧١) أسهمت مؤسسة «هيئة خدمة أهل البيت» في تحفيز مدير الجامعة لفتح فرع لها في دمشق، في زيارة للدكتور علاء الدين القبانجي مدير الجامعة في ٥ آذار/مارس ٢٠٠٣ لمقرها في السيدة زينب، حيث «دار الحديث بينه وبين أعضاء الهيئة حول سبل تطوير وتحديث طرق نشر المذهب الإسلامي، على سبيل المثال أن تُعقد المؤتمرات والندوات في القاعات الكبيرة المخصصة لذلك مثل قاعة جامعة دمشق للمؤتمرات». انظر موقع هيئة خدمة أهل البيت:

< <http://www.khadama.net> >.

السياسي التابع لوزارة الداخلية، وباشرت عملها في ٢٠٠٥، وأرسلت أوّل كتاب لها إلى إدارة الهجرة والجوازات في ١٦ آب/ أغسطس ٢٠٠٥ للموافقة على «اعتماد خاتم مديريتها كونها الجهة الوحيدة المخوّلة بمخاطبة إدارة الهجرة والجوازات»^(٧٢)، وذلك على خلاف كل مؤسسات التعليم الديني الخاصة، التي تجعل وزارة الأوقاف هي الجهة الوحيدة المعتمدة لمخاطبة «إدارة الهجرة والجوازات»، وهذا أحد المؤشرات المهمة للتسهيلات غير الاعتيادية التي أصبحت تحظى بها مؤسسات ملالي الشيعة في عهد الأسد الجديد.

وفي الوقت الذي بدأت فيه الحوزات العلمية تتكاثر ونشاطها التبشيري يزداد، في مقابل التضييق المستمر على التعليم الديني في المعاهد الشرعية الأهلية (السنيّة)، ومع ظهور تقرير التعليم في سورية عام ٢٠٠٥ لأوّل مرّة، وجد علماء الدين السنيّة ضرورة لمواجهة هذا التمييز، فمؤسسات التعليم الأهلية ومعاهدهم الشرعية تخضع لضبط ومراقبة وإشراف مباشر من قبل وزارة الأوقاف، وأداء

(٧٢) من نصّ خطاب إدارة الهجرة والجوازات إلى وزارة الأوقاف، الذي وقّعه مدير إدارة الهجرة والجوازات العميد مظهر أحمد، برقم ٦٢٥٤/أ في ١٩/٦/٢٠٠٦ (وثيقة رسمية). وتاريخ الوثيقة يوضح أنّ الكتاب جاء بعد قرابة سنة من تاريخ طلب «مديرية الحوزة العلمية» واعتماد خاتمها، والواقع أنّ موافقة إدارة الهجرة والجوازات جعلت الحوزات تستغني عن مراجعة وزارة الأوقاف ما دام خاتمها قد اعتمد لديها، فما من فائدة للعودة إليها. ولكن إثارة موضوع تبعية الحوزات العلمية لوزارة الأوقاف وصدور قرار رسمي عن رئاسة الوزراء في ٢٦/٢/٢٠٠٦ (رقم ١٧٣٢/ص) بضرورة إلحاق المعاهد الشرعية والحوزات العلمية القائمة بوزارة الأوقاف، وأن «تجديد مدة الإقامة [بالنسبة إلى طلاب الحوزة يتم] بناءً على وثائق دوام مصدقة من وزارتي التعليم العالي والأوقاف»، استفز المؤسسة الحوزوية وجعلها تستصدر هذا الكتاب عبر نفوذها الذي يبدو أنّه أصبح ممتدّاً في جهاز الدولة.

أساتذتها وطلابها يخضع دوماً للمراقبة الأمنية الشديدة، وهم أهالي البلاد وهؤلاء مبشرون غرباء.

وعلى ما يبدو فإن وزارة الأوقاف - أضعف الوزارات وأكثرها خضوعاً للمراقبة الأمنية - قرّرت السكوت أمام استفسارات واستنكارات تأتيها من علماء الدين ومواطنيهم. لم يدم الأمر طويلاً حتى برزت إشكالات إدارية تتعلق بالتعليم العالي، فتكاثر مؤسسات التعليم العالي الدينية السنيّة ذات الأنظمة التعليمية الحديثة وموضوع تعديل شهاداتها جعل هنالك ضرورة لتوضيح تبعيّتها وخضوعها لقانون التعليم العالي، كونها الجهة المسؤولة عنه في البلاد، ومن غير المعقول أن تبقى الأمور من دون ضبط، مع وجود المؤسسات الحكومية المختصة؛ فقرّرت وزارة التعليم العالي إرسال كتاب إلى «مكتب التربية والتعليم» في القيادة القطرية^(٧٣) تستفسر فيه عن «مؤسسات التعليم الديني الخاصة غير المرخصة» وتبعيتها والتعليم الجاري فيها.

جاء خطاب القيادة القطرية بعد خمسة أشهر من تاريخ استفسارها، وفي إطار العمل التقني لإصلاح المؤسسة التعليمية - التي انتهجت وزارة التربية، وأكد أهميتها الكبرى تقرير التعليم في سورية (٢٠٠٥)، وحدّدها المرسوم التشريعي رقم (٣٦) عام ٢٠٠١، والمتعلق بتنظيم التعليم - ونصّ خطاب القيادة القطرية^(٧٤) الصادر في دمشق ٢٦/٢/٢٠٠٦ على:

(٧٣) الكتاب رقم ٢٥٨/م. صادر تاريخ ٨/٩/٢٠٠٥.

(٧٤) الوثيقة صادرة عن مكتب التربية والتعليم العالي في القيادة القطرية ذات الرقم ١٧٣٢/ص، والمؤرخة في ٢٦/٢/٢٠٠٦. وهي موقعة من الأمين القطري المساعد الرفيق محمّد سعيد بخيتان، ورئيس مكتب التربية والتعليم العالي الرفيق الدكتور ياسر حورية.

١ - تسوية أوضاع المؤسسات التعليمية الدينية الخاصة
لمرحلة ما بعد الثانوية (القائمة حالياً) وإلحاقها بوزارة التعليم
العالي وتشميلها بمرسوم تنظيم المؤسسات التعليمية الخاصة
(...).

٢ - إخضاع المؤسسات التعليمية الدينية التي قد تأسَّس
مستقبلاً لأحكام المرسوم/٣٦/ لعام ٢٠٠١ [المتعلق بتنظيم
المؤسسات التعليمية الخاصة].

٣ - إلحاق المعاهد الشرعية والحوزات العلمية القائمة حالياً
بوزارة الأوقاف ويطبق عليها نظام التعليم الخاص بحسب الأنظمة
والقوانين المعمول بها في المدارس الخاصة.

بالتأكيد فإنَّ هذه القواعد الآتية من أعلى سلطة إدارية للبلد
بمنزلة الموجهة للقوانين والتعليمات واللوائح التنفيذية الخاصة
بموضوعه، وبما أنَّ مبدأ الحوزة هو مرجعية مؤسسها الذي جعلها
مدرسة تابعة له، وليس الأنظمة «الوضعية العلمانية» للتعليم، فإنَّ
الحوزات ستنظر إلى الانصياع لهذه الأوامر بأنَّه مشكلة حقيقية لها،
خصوصاً أنَّ هذا الخطاب ينص - فضلاً عن خضوعها لوزارة
الأوقاف - على «وضع نظام موحد للمدارس الشرعية والمعاهد
الخاصة في المناهج والمقررات الشرعية والكونية (علوم،
رياضيات، لغة أجنبية، فيزياء) بما ينسجم مع تطور ودعم التوجه
الوسطي (المعتدل) في الإسلام الذي تنتهجه هذه المعاهد
والحوزات، وذلك من خلال هيئة علمية تخصصية من وزارتي
الأوقاف والتربية»؛ أي أنَّه سينسف كل الجهود التبشيرية للحوزات،
ويحولها إلى حوزات مستنسخة تدرس تعليماً موحداً!

أضف إلى ذلك ما يتضمنه هذا الخطاب من شروط صارمة في

تبعية الحوزات لوزارة الأوقاف والتربية، وفي «تحديد أعداد الطلاب العرب والأجانب الذين يمكن استيعابهم سنوياً للدراسة»، و«التأكد من سلامة التوجّه الديني للمقبولين من خلال لجنة مقابلة خاصة بالقبول»، و«اعتماد شروط محدّدة لقبول الطلاب في هذه المعاهد والحوزات، كالسن ومستوى الثقافة والشهادة العلمية... إلخ». وإضافة إلى ذلك كله، فإنّ الخطاب يحصر في وزارة الأوقاف مسؤولية «تعيين المدرسين والإداريين والمديرين والموجهين التربويين بالتنسيق مع وزارة التربية». لكن الأمر الأكثر خطورة في ذلك بالنسبة إلى الحوزات هو وضع المسؤولية على وزارة الأوقاف في «تأمين الموازنة السنوية وضبط تبرعات الجمعيات الخيرية والأفراد بالتنسيق مع وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل».

لا شك أنّ الخطاب الأمري للقيادة القطرية كان جواباً مرضياً لمؤسسات التعليم العالي السنيّة (فرعي جامعة «الأزهر» و«أم درمان») التي تطالب أساساً بإلحاقها بوزارة التعليم العالي، ولكن لا شك أيضاً بأنّه كان كارثياً بالنسبة إلى الحوزات وعملها الذي يعتمد على أصول تقليدية وتبرعات غير محدودة ولا واضحة ومصادر تمويل أجنبية (ومصادر التمويل الأجنبية هذه ممنوعة قانوناً، وتعتبر شبهة، وهي غير مسموح لها في المعاهد الدينية ومؤسسات التعليم الشرعي على الإطلاق). كان على الملالي أن يتحركوا من خلال علاقاتهم الأمنية برجال المخابرات (العلويين من «تيار عودة الفرع إلى أصله الشيعي»)^(٧٥)، والساسة الإيرانيين

(٧٥) علاقة الملالي برجال الاستخبارات من خلال التيار الشيعي العلوي قديمة، إذ يذكر التلميذ الأفغاني للشيخ حسن الشيرازي الشيخ محمّد علي العلوي أنّه «في إحدى الأعوام اعتقلت الحكومة السورية ثلاثة أفراد من العلماء الطلبة، أحدهم المرحوم =

(السفير الإيراني وملحقه الثقافي ضمناً)، والجهات النافذة ذات الصلة بهم في وزارة التعليم العالي، لتجنب الانصياع لهذه القواعد الآمرة.

ويبدو أنه أشير على الملالي بتجاهل الأوامر الصادرة إليهم؛ إذ من غير الممكن تغيير القانون أو التمييز فيه رسمياً، فهو سيضع النظام في موقف حرج أمام استحقاقات للمعاهد الشرعية والمؤسسات الخاصة، ويخرجها عن الرقابة الأمنية والحكومية، ويؤلّب عليه الأكثرية السنية، وهو أمر له خطورته، ولا يمكن

= السيد موسى، فذهب بعض الأشخاص وأخبروا السيد [حسن الشيرازي] ومنهم الشيخ عباس النوري باعتقال هؤلاء الثلاثة؛ فقال السيد: أنا لا أعرف الجهة المسؤولة عن اعتقالهم ولكنني لن أذهب إلى هذا الضابط أو ذاك! فاستفسروا من الطلاب والإخوة عن الجهة المسؤولة، فأنا شخصياً سمعت بالخبر من قبل الشيخ عباس النوري، وكان لديّ صديق من المخابرات السورية من الشيعة فتحدّثت معه بقصة المعتقلين الثلاثة من الطلبة، فأخبرني فوراً باسم الضابط المسؤول الكبير وكان برتبة عميد، واسم اللواء المسؤول، إضافة إلى اسم وزير الداخلية، وهؤلاء الثلاثة لهم ارتباط وثيق بقضية الاعتقال، وزوّدي بالعناوين؛ فأخذت الأسماء والعناوين والتقيت مباشرة بالشهيد [السيد حسن الشيرازي] حيث قدّمها له، فذهب فوراً إلى اللواء المذكور والتقى به، وبعد ساعات أفرج عن سراح العلماء الثلاثة من الطلبة. انظر هذه الرواية في موقع الشيرازي نت:

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/legaat/legha/shahid/008.htm> >.

وبالتأكيد، فإنّ العلاقة بقيت مستمرة وما طرأ عليها من تغيير، وإنّما بسبب التغيرات التي طرأت في عهد الأسد الابن مع الملالي ارتفع مستوى العلاقة إلى حدود الدعم الأمني المباشر وقمع المعارضين، فيذكر أحد الشيعة - أو المتشيعين - الرواية التالية: «خلال وجودي في مدينة حلب مع حملة من زوار الحسين ﷺ وخلال الصلاة في أحد مساجد حلب الكبيرة تعرضت زائرة معنا في الحملة للاعتداء من قبل شيخ سنيّ لأنها تصلي على التربة الحسينية، وقام برمي التربة في المِهْمَلات، فذهبت أنا برفقة أخ سوري شيعي من مدينة نبل قرب حلب واشتكيها إلى المخابرات في المدينة، فقاموا باعتقال ذلك الشيخ!! بينما في أيّ دولة عربية النواصب كل يوم يعتدوا علينا وعلى حقوقنا وليس هناك من رادع لهم». انظر الرواية في متديتات يا حسين، على الوصلة:

< <http://www.yahosein.com/vb/showthread.php?t=48268> >.

لوزارة التعليم العالي أن تستثني أحداً لأسباب تناقض وظيفتها ومقصد تأسيسها. لم يكن في يد الملالي سوى التجاهل والدفاع عن النفس بما يمكن من القرارات الأمنية التي استصدها سابقاً، ومنها القرار الصادر عن إدارة الهجرة والجوازات باعتماد ختم مديرية الحوزات بشأن وثائق إقامة الطلاب.

غير أنَّ الوزارات المعنية بدأت بتنفيذ القرار الصادر عن «مكتب التربية والتعليم العالي»، لكنّها لا تملك أي وثيقة عن الحوزات المرخّصة وغير المرخّصة، بل إنّها لا تحتفظ سوى بوثيقة واحدة مؤرخة بـ ٢ حزيران/يونيو ١٩٨٨ صادرة عن نائب الرئيس لشؤون التربية والتعليم الدكتور زهير مشاركة^(٧٦) تشير إلى حوزتين فقط (لم يكن غيرهما آنذاك)، هما: حوزة الإمام الشيرازي (الزينية)، وحوزة الإمام الخميني، فحاولت الحصول على أسماء الحوزات المرخّص بها من دائرة الهجرة والجوازات، فأرسلت كتاباً رقم ١٤/٤/١٤٥٠ تاريخ ٢٠٠٥/٠٤/٠٧ إلى إدارة الهجرة والجوازات، تطلب فيه موافاتها بأسماء الحوزات الدينية المرخّصة بحجّة «تصديق وثائقها». لكن جواب إدارة الهجرة والجوازات في ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ كان أعجب، فهي تقرّ بأنّها لا تملك أي وثيقة أيضاً تتعلق بذلك سوى وثيقة نائب الرئيس المؤرخة في (٢ حزيران/يونيو ١٩٨٨)! إذاً كيف يقيم الطلاب ويحصلون على إقامة في سورية؟ لا بد أنّها طرق أخرى لا علاقة لها بالدراسة، وهو أمر إن صح - وهو صحيح بالتأكيد - يشير إلى حجم الاختراق

(٧٦) الوثيقة صادرة عن إدارة الهجرة والجوازات في دمشق، تحت الرقم ١٠٦٠٤/أ،

في دمشق بتاريخ ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، وموقّعة من العميد محمود حسين الخطاب مدير إدارة الهجرة والجوازات.

القانوني الذي تمارسه هذه الحوزات وخطورته الأمنية المحتملة ووجود مساعدة داخل أجهزة الدولة.

حاولت الوزارة معرفة أسماء الحوزات في السيدة زينب بطرق غير رسمية، واستطاعت تحصيل أسماء ست عشرة حوزة شيعية^(٧٧)، فأرسلت إليها خطاباً - «جميعها في السيدة زينب» (كما في نص الكتاب) - يدعو القائمين عليها إلى الحضور للاجتماع «مع مديرية التعليم الشرعي في الوزارة للتباحث في شؤون الحوزات من النواحي المختلفة، العلمية والإدارية»^(٧٨) مصطحبين معهم وثائق «ترخيص الحوزة»، و«المنهاج المقرر»، و«جدول عن الجهاز الإداري»، و«جدول عن الجهاز التدريسي للحوزة»، و«جدول عن أسماء الطلاب وأعدادهم وجنسياتهم». وكان على الحوزات «الأجنبية» أن تنصاع للقرار بحكم القانون..

لكن الحوزات قرّرت متابعة سياسة التجاهل وممارسة الانتظار لما يؤول إليه الأمر، ويبدو أنهم استندوا إلى بعض الوعود من مسؤولين رفيعي المستوى تتعلق بمساعدتهم وحمايتهم؛ ففي اليوم المقرر للاجتماع لم يمثل أحد من ممثلي الحوزات لطلب الوزارة، وبقيت غرفة الاجتماع شاغرة. والتعليق الذي دار بين نائب مدير

(٧٧) وهي حوزة أهل البيت، الحوزة الزينية (الإمام الشيرازي)، حوزة الإمام الخميني، حوزة المرتضى، حوزة الإمام السيستاني، حوزة القائم، حوزة الإمام علي، حوزة الإمام جواد التبريزي، حوزة الإمام الصادق، حوزة الرسول الأعظم، حوزة الإمام المجتبى، حوزة الإمام الحسين، حوزة الإمام زين العابدين، حوزة قمر بني هاشم، حوزة إمام الزمان التعليمية، حوزة الشهيدان الصديقين.

(٧٨) من نص الوثيقة رقم ٣٩، الموقعة من وزير الأوقاف زياد الدين الأيوبي في ٢٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، الموافق لـ ٢٢/٥/٢٠٠٦، والمعنونة بـ «تعميم إلى السادة مديري الحوزات في القطر العربي السوري».

التعليم الشرعي ومديره (أسامة الخاني) يشير إلى مدى حذر الوزارة في التعامل مع الحوزات وعدم قدرتها على إنفاذ القانون بحقها؛ ففي ٢٠٠٦/٠٦/٠١ رفع نائب المدير كتاباً بخط اليد يعلم مديره بـ «رفض مديري الحوزات الحضور رغم تبليغهم»! ليعلق المدير - بخط يده - تعليقاً دالاً للغاية على ضعف وزارة الأوقاف أمام نفوذ الملالي في الدولة، بالقول: «إذن علينا أن نقوم بالعمل مع الذين يستجيبون من المعاهد والحوزات، ولمتابعة الجهود»! (٧٩).

ملالي خارجون عن القانون

لم يتوقف الأمر هاهنا، فعلى الوزارة أن تنفذ القرار، وعليها أن توضح لِمَ لَمْ تستطع تنفيذه، فهي مسؤولة رسمياً أمام القيادة القطرية مسؤولية كاملة كما تقتضيها العملية الإدارية. اضطرت مديرية التعليم العالي لوضع خلاصة عمّا جرى بشأن تنفيذ القرار الصادر عن القيادة القطرية^(٨٠)، تتضمن هذه الخلاصة صفحتين خاصّتين بـ «الحوزات الدينية» وسلوكها الرافض للتعاون مع

(٧٩) كل من كتاب الإخطار وجوابه في وثيقة واحدة بخط اليد وغير مرقمة، نحفظ بنسخة منها.

(٨٠) ونص الوثيقة غاية في الأهمية، والنسخة التي بين أيدينا غير مؤرخة أو مرقمة، وهو:

«الحوزات الدينية»

أولاً: تضمن كتاب القيادة القطرية رقم ١٧٣٢/ص تاريخ ٢٠٠٦/٢/٢٦ فيما يخص الحوزات:

إلحاقها بوزارة الأوقاف.

تطبيق نظام التعليم الخاص عليها.

مسؤولية وزارة الأوقاف في وضع نظام موحد في المناهج، والمقررات الشرعية الكونية بما ينسجم مع الإسلام المعتدل الذي يجب أن تنتهجه الحوزات.

مديرية التعليم في وزارة الأوقاف، ومشكلتها القانونية مع القرار

= وهذا ما تؤكدته المادة ٤٤ من المرسوم التشريعي رقم/٥٥/ تاريخ ٢٠٠٤/٩/٢ (الناظم للمؤسسات التعليمية الخاصة للتعليم ما قبل الجامعي)، وتتضمن إغلاق أي مؤسسة خاصة تروج للشقاق الوطني أو الطائفي، أو تكرار المخالفات بعدم الالتزام بالتعليمات الوزارية. وهنا لا بد من الإشارة إلى وجوب عدم احتواء مناهج هذه الحوزات على أي سب للصحابة، ممّا يؤدي إلى الشقاق الوطني ولا يتناسب مع أخلاق أهل البيت عليه السلام.
مسؤولية وزارة الأوقاف عن تحديد أعداد الطلاب العرب والأجانب.
مسؤوليتها عن اعتماد شروط محدّدة لقبول الطلاب في هذه المعاهد والحوزات، كالسن والشهادة، علماً أنّ هذه الشروط غير متوفرة.

ثانياً: التواصل مع الحوزات

طلبت وزارة الأوقاف أكثر من مرّة بعض المعلومات الخاصة بالحوزات: اسم الحوزة، واسم مديرها، وجنسيته، ترخيص الحوزة، مرجعيتها، عدد سنوات الدراسة، المناهج المقرّرة، النظام الداخلي لها... ولم تتمّ الإجابة إلا من القليل منهم، وإجابة هؤلاء كانت غير كافية وغير مقنعة. وعلى سبيل المثال أجابت حوزة الإمام المهدي، ولكن ليس فيها إلا الموافقة الأمنية، علماً أنّ الموافقة الأمنية لا تكفي لاعتبار الحوزة مرخّصة دون الرجوع إلى وزارة التربية ووزارة الأوقاف.

ولا يوجد أي تنسيق مع وزارة الأوقاف، علماً أنّ الوزارة تصدّق على شهادتهم. وقد حاولت الوزارة التواصل معهم لمعرفة أوضاعهم القانونية من خلال مراسلات وطلبات للاجتماع معهم، وكانت الاستجابة ضعيفة جداً، حيث لم يصلنا إلا معلومات قليلة، وفي آخر تعميم من أجل إبلاغهم كتاب القيادة القطرية لم يتم حضور أي مدير منهم للاجتماع المنعقد بتاريخ ٢٠٠٦/٥/٣١، بأمر وزير الأوقاف رقم ٣٩، تاريخ ٢٠٠٦/٥/٢٢. علماً أنّهم عند تبليغهم قال لنا مدير الحوزات إنّهم قد أسسوا مديرية خاصة بهم تهتم بأمر الحوزات، وإنّه لم يعد لوزارة الأوقاف علاقة بهم. وهذه التصرفات مخالفة لكتاب القيادة القطرية والمرسوم التشريعي للتعليم الخاص.

ثالثاً: المؤسسون والمشرفون ومديرو الحوزات:

أغلب المؤسسين للحوزات ومديريها هم من غير السوريين (هنود، باكستانيون، إيرانيون، أفغانستانيون)، وهذا مخالف للمادة/٨/ من المرسوم ٥٥، تاريخ ٢٠٠٤/٩/٢، الناظم للتعليم الخاص التي تشترط أن يكون المدير سورية إذا كان شخصاً طبيعياً، وأمّا المؤسس الاعترافي فإن لم يكن سورياً فيجب أن يكون له نائب سوري، وأن يكون المدير سورياً كذلك (في الحالتين):

القُطري وغيره من القرارات والقوانين والمراسيم التشريعية. ووفقاً لنصّ هذا التقرير الرسمي فـ«إنه عند تبليغهم [أي الحوزات] قال لنا مدير الحوزات إنهم قد أسّسوا مديرية خاصة بهم تهتم بأمر الحوزات، وإنه لم يعد لوزارة الأوقاف علاقة بهم».

كشف كتاب مديرية التعليم هذا عن الوضع القانوني للحوزات، فهي تخالف مواد قانونية ومراسم تشريعية؛ فمن جهة هي تخالف المادة ٤٤ من المرسوم التشريعي رقم/٥٥/تاريخ ٠٢/٢٠٠٤ (الناظم للمؤسسات التعليمية الخاصة للتعليم ما قبل الجامعي)، والتي تتضمن: «إغلاق أي مؤسسة خاصة تروّج للشقاق الوطني أو الطائفي، أو تكرار المخالفات بعدم الالتزام بالتعليمات الوزارية». ومن المعلوم أنّ الفكر الشيوعي يستند إلى الانتقاص من الخلفاء الراشدين والصحابة الذين لم يقفوا في صف علي بن أبي طالب، ولا بد من «وجوب عدم احتواء مناهج هذه الحوزات من أي سبّ للصحابة، ممّا يؤدي إلى الشقاق الوطني»^(٨١).

كما أنّ «أغلب المؤسّسين للحوزات ومديريها هم من غير السوريين (هنود، باكستانيون، إيرانيون، أفغان)، وهذا مخالف للمادة/٨/ من المرسوم ٥٥ تاريخ ٠٢/٠٩/٢٠٠٤ الناظم للتعليم الخاص، التي تشترط أن يكون المدير سورياً إذا كان شخصاً طبيعياً، وأمّا المؤسّس الاعتباري فإن لم يكن سورياً فيجب أن يكون له نائب سوري، وأن يكون المدير سورياً كذلك (في الحاليتين)»^(٨٢).

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) المصدر نفسه.

وإذا أُضيف إلى ذلك مصادر التمويل الخارجية وعدم خضوعها لقانون وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والرقابة الأمنية، ونشاطات طلابها التبشيرية غير المسموحة قانوناً، لأنها ممارسات خارج الدراسة، فإن ذلك يعني أن وضع المؤسسات الحوزية هشاً للغاية، وبالتأكيد - واستطراداً - الكثير ممّا ينطبق على الحوزات ينطبق على الحسينيات بطبيعة الحال، وينطبق على المؤسسات الاجتماعية والثقافية، (مثل: النجمة المحمّدية، وهيئة خدمة أهل البيت)، خصوصاً في مصادر التمويل والجهاز الإداري، وموضوع الشقاق الوطني وإثارة النعرات الطائفية.

تبرئة لدمتها أمام كتاب القيادة القطرية الأمر بأن «تكون الوزارة [وزارة الأوقاف] مسؤولة عن:

١ - وضع نظام موحد للمدارس الشرعية والمعاهد الخاصة في المناهج والمقررات الشرعية والكونية (علوم - رياضيات - لغة أجنبية - فيزياء) بما ينسجم مع تطور ودعم التوجه الوسطي (المعتدل) في الإسلام الذي تنتهجه هذه المعاهد والحوزات، وذلك من خلال هيئة علمية تخصصية من وزارتي الأوقاف والتربية.

٢ - تحديد أعداد الطلاب العرب والأجانب الذين يمكن استيعابهم سنوياً للدراسة، والتأكد من سلامة التوجّه الديني للمقبولين من خلال لجنة مقابلة خاصة بالقبول.

٣ - اعتماد شروط محدّدة لقبول الطلاب في هذه المعاهد والحوزات، كالسن ومستوى الثقافة والشهادة العلمية... إلخ.

٤ - تعيين المدرسين والإداريين والمديرين والموجهين التربويين بالتنسيق مع وزارة التربية (بعد أخذ موافقة الجهات المختصة).

فإنَّ مديرية التعليم الديني في الوزارة شكّلت لجنة صغيرة لتقديم مقترح لوضع نظام موحد للحوزات العلمية، وتقدّمت اللجنة فعلاً بمقترحات^(٨٣) تنم عن مجرد الرغبة بتخلية المسؤولية لا أكثر

(٨٣) نص الوثيقة:

«الحوزات العلمية في جوار مقام السيدة زينب (ع)

تعتبر الحوزات العلمية في جوار مقام السيدة زينب (ع) بمثابة المرادف الموضوعي لما يسمّى بالمعاهد الشرعية أو كليات الشريعة الإسلامية، لا تكاد تختلف عنها في المنهاج والأهداف ليتخرج منها الطالب فقيهاً أو عالماً أو داعية أو إمام مسجد، بحسب المرحلة العلمية التي توفّر على دراستها، وهي تنقسم إلى مراحل ثلاث:

الأولى: ويصطلح على تسميتها بالمقدمات، يدرس الطالب خلالها مبادئ اللغة والبلاغة والمنطق وفنّاءى الفقه وأصول العقيدة الإسلامية والأخلاق.

الثانية: ويصطلح على تسميتها بمرحلة السطوح، يدرس الطالب خلالها النحو والمنطق وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة وعلوم التفسير والحديث والتاريخ.

الثالثة: ويصطلح على تسميتها بمرحلة الدراسات العليا، وبحث الخارج يتعمق الطالب خلالها بدراسة الفقه وأصول الفقه والاستنباط.

(...)

وقد اشتهرت بأسماء نذكر منها:

الحوزة الزينية: وقد تأسست بإشراف المغفور له السيد حسن الشيرازي منذ عام ١٩٧٤، وعدد طلابها مائة وخمسون طالباً.

حوزة الإمام الخميني: بإشراف مكتب السيد علي الخامنئي، وعدد طلابها مائتا طالب، وقد تأسست منذ عام ١٩٨١.

حوزة المرتضى: وقد تأسست بإشراف المرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله، منذ عام ١٩٩٥، وعدد طلابها سبعون طالباً.

حوزة الإمام السيستاني: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة الشيخ حليم البهبهاني منذ عام ١٩٩٦، وعدد طلابها سبعون طالباً.

حوزة الإمام القائم: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة محمد تقي المدرسي منذ عام ١٩٩٦، وعدد طلابها خمسون طالباً.

حوزة أهل البيت: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة السيد محمد الموسوي منذ عام ١٩٩٦، وعدد طلابها ستون طالباً.

ولا أقل، فالدراسة تفتقر إلى معرفة دقيقة بالحوزات العلمية، وإلى

= حوزة الإمام علي: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة السيد عبد المنعم الحكيم منذ عام ٢٠٠١، وعدد طلابها أربعون طالباً.
حوزة الإمام جواد التبريزي: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة عباس النزاع منذ عام ٢٠٠٣، وعدد طلابها ستون طالباً.

وثمة حوزات صغيرة قام بتأسيسها عدد من الأساتذة بمبادرات شخصية؛ كحوزة الإمام الصادق، وحوزة الرسول الأعظم، وحوزة المجتبي، وحوزة الإمام الحسين، وحوزة الإمام زين العابدين، وحوزة قمر بني هاشم. غير أنَّ الحوزات الرسمية المؤيدة من قبل المرجعيات العليا للطائفة تكاد تنحصر في الحوزات الثمانية والتي تحظى برعاية مباشرة من مراجع التقليد، وهم:

الإمام السيد علي الخامنئي.

الإمام السيد علي السيستاني.

الإمام السيد محمد سميد الحكيم.

الإمام السيد محمد حسين فضل الله.

الإمام ميرزا جواد التبريزي.

المرجع الديني السيد كاظم الحائري.

المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي.

وتجدر الملاحظة إلى أنَّ معظم طلاب تلك الحوزات هم من الجنسيات العراقية والأفغانية والهندية والباكستانية واللبنانية والأفريقية، مع أقليات لا تذكر من أندونيسيا والمغرب واليمن وأذربيجان وتركيا، هذا بالإضافة إلى مائتي طالب من الجمهورية العربية السورية.

مقترحات:

أولاً: تطوير مناهج التعليم الديني في الحوزات بإضافة العلوم التالية:

علم مقاصد الشريعة.

علم الدين المقارن.

الفقه المقارن.

أدب الحوار واللغة الأجنبية.

ثانياً: العمل الجاد على إيجاد صيغة قانونية للتوأمة بين الحوزات العلمية وكلية

الشريعة.

المعرفة الوافية بالمرجعيات التي تشرف عليها أو تتبع لها؛
فالحوزة الزينية - على سبيل المثال - تتبع المراجع الشيرازية،
وهي الآن في عهدة المرجع الديني صادق الحسيني الشيرازي
(شقيق مؤسسها حسن الشيرازي)، وحوزة «فقه الأئمة الأطهار»
تعود للمرجع الديني محمد الفاضل اللنكراني. وبما أن الوزارة لا
تمتلك وثائق رسمية عن عدد الحوزات وطلابها فإن معلوماتها
يدخلها التخمين والتقدير.

وعلى أية حال فإن اقتراح المديرية - على صغره - يتضمن
قضايا حساسة، أهمها إجبار الحوزات على الفقه المقارن، والعقائد
المقارنة، واللغة الأجنبية، وأصول المناظرة، وضبط أعداد الطلاب
ومصادر تركيبتهم، حيث تنحصر المسؤولية في جهات المرجعيات
الدينية السبع. غير أن هذا الاقتراح وُضع في أدراج المديرية
وأصبح أرشيفاً فهو لم يوجد أساساً لِيُفَعَّلَ ويطبّق، بل لثُخْلِ به
المسؤولية.

بيان علماء الشام

في إطار تطبيق قانون التعليم الأساسي الجديد^(٨٤)، وقبل أيام

= ثالثاً: تأسيس لجنة علمية تشرف على امتحانات التخرج.

رابعاً: ضبط وتحديد سنوات الدراسة:

المرحلة الأولى: ستان.

المرحلة الثانية: أربع سنوات.

المرحلة الثالثة: ثلاث سنوات.

خامساً: اشتراط منح الإقامة للطلاب الأجانب بالإضافة للشروط المطلوبة أمنياً أن

تتم بموجب تزكية من إحدى إدارات الحوزات الثمانية المؤيدة من قبل المرجعية الدينية.

(٨٤) قانون التربية القديم يقسّم التعليم ما قبل الجامعي إلى أربع مراحل: رياض =

قليلة من رفض الحوزات العلمية الامتثال لدعوة وزارة الأوقاف إلى الاجتماع، أصدر وزير الأوقاف تعميماً يمنع فيه المعاهد الشرعية والثانويات الشرعية [الحكومية] والحوزات العلمية من قبول طلاب جدد في مرحلة التعليم الإعدادي^(٨٥)؛ فقد أصبحت من التعليم الأساسي في القانون الجديد، والقانون يحظر التعليم الديني في مرحلة التعليم الأساسي.

في ٦ تموز/ يوليو عام ٢٠٠٦ أصدر علماء الشام بياناً^(٨٦) هو الأول من نوعه منذ خمسة وثلاثين عاماً^(٨٧)، موجّهاً إلى رئيس

= الأطفال، والابتدائي، والإعدادي، والثانوي. والقانون الجديد يدمج المرحلة الإعدادية مع المرحلة الابتدائية تحت مسمى «مرحلة التعليم الأساسي»، ويجعل التعليم الإعدادي مشمولاً بقانون التعليم الإلزامي.

(٨٥) وثيقة التعميم صادرة عن وزارة الأوقاف برقم/٤١/ بتاريخ ٢٧ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، الموافق ٢٥/٥/٢٠٠٦.

(٨٦) وقد وُقِعَ على بيان العلماء المذكور كبار علماء الشام، ومنهم: السيد محمد الفاتح الكتاني، الحافظ الشيخ محيي الدين الكردي، الشيخ محمد كريم راجح (شيخ قرأء بلاد الشام)، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الدكتور وهبة الزحيلي، الشيخ عبد الرزاق الحلبي، الدكتور محمد محمد الخطيب (وزير الأوقاف الأسبق)، الدكتور محمد عجاج الخطيب، الدكتور مازن المبارك، الشيخ صادق حبنكة، الشيخ محمد ديب الكلاس (الشهير بالشيخ أديب)، الشيخ أسامة عبد الكريم الرفاعي، الشيخ سارية عبد الكريم الرفاعي، الشيخ صلاح الدين أحمد كفتارو، الدكتور محمد راتب النابلسي.

وللملاحظة: فإنه لم يظهر في نسخة البيان الأولى من أسماء الموقعين سوى عدد قليل من أسماء كبار شيوخ وعلماء الدين الدمشقيين، ثم أضيفت إليهم كثير من الأسماء لاحقاً، كما أنّ شيوخ المدن الأخرى الذين وقّعوا على البيان لم تظهر أسماءهم حتى في النسخ المنشورة على مواقع الإنترنت، وما ورد أعلاه من أسماء هي الأسماء التي ظهرت على الإنترنت بعد إعلان البيان متضمنة أسماء الموقعين الأساسيين على نسخة البيان الأولى، وجميعهم تقريباً دمشقيون، ولكن البيان كان قد وُقِعَ من كبار الشيوخ في مختلف المحافظات السورية.

(٨٧) أي منذ أن وقّع علماء سورية عام ١٩٧٣ بياناً لرفض مسودة الدستور الذي =

الجمهورية بشكل مباشر^(٨٨)، يطلبون فيه إيقاف قرار إلغاء التعليم الشرعي في المرحلة الإعدادية، لكن الشيء الأهم في البيان هو أن العلماء لم يستطيعوا إخفاء حقنهم من المدّ الشيوعي، وترك الحوزات على غاربيها دون أن تنصاع لقرار وزارة الأوقاف، ولا حتى القيادة القطرية، ولا المراسيم التشريعية، في الوقت الذي تلتزم كل المعاهد الدينية السنّية والثانويات الشرعية الحكومية بالقوانين والتعليمات وبشكل صارم، فلم الاستثناء والحوزات أساساً للأجانب وليس للمواطنين السوريين؟ ف«الحوزات الشيعية ماضية في تجاهل هذا التعميم، مصرّة على عدم الاستجابة له»^(٨٩). وبالتأكيد فإن أصحاب البيان كانوا على علم دقيق بتجاهل الحوزات لكل القوانين والمطالب والقرارات الحكومية الرسمية، خصوصاً أن من بين الموقعين على البيان مدير التعليم الشرعي في وزارة الأوقاف نفسه، وكان هذا التوقيع سبباً في إقالته من منصبه^(٩٠).

= طرحه حافظ أسد للاستفتاء، بسبب مواد تتعلق بدين الدولة ودين رئيس الدولة. انظر تفاصيل صدور البيان، ودور الشيخ سعيد حوى في كتابته وتوقيعه من علماء سورية: سعيد حوى، هذه تجربتي وهذه شهادتي (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٧)، ص ١٠٤-١١٢. (٨٨) تضمن نص «بيان من علماء الشام حول استهداف التعليم الديني في سورية» فقرة خاصة تشير إلى نشاط الحوزات التبشيري خارج القانون، وهي: «٤ - إن الحوزات الشيعية ماضية في تجاهل هذا التعميم، مصرّة على عدم الاستجابة له، ومدارس الشويفات تضيف إلى منهاج المرحلة الأساسية ما تشاؤه من الزيادات في الساعات والمقررات، والمدارس التبشيرية الأجنبية ماضية في مناهجها الخاصة بها وأساليبها التربوية دون أي معارضة ولا إشكال». (٨٩) المصدر نفسه.

(٩٠) صدر قرار إقالته في ٩ تموز/ يوليو ٢٠٠٦ بعد أربعة أيام من تاريخ صدور البيان. انظر: «إقالة مدير التعليم الشرعي في سورية بسبب رفضه قرار وقف التسجيل في المعاهد الشرعية»، أخبار الشرق، ٢٠٠٦/٧/١٠. وحسب نفس المصدر، فإن وكالة يونايتد برس انترناشيونال نسبت إلى حركة العدالة =

اللافت للانتباه أيضاً في بيان العلماء الربط غير المباشر بين «الحوزات الشيعية» و«المدارس التبشيرية الأجنبية»، فهي - شأن الحوزات - «ماضية في مناهجها الخاصة بها وأساليبها التربوية دون أي معارضة ولا إشكال»^(٩١). والبيان جاء في ذروة الحديث عن التشيع في سورية، وقد بلغت حساسية علماء الدين السُّنة ذروتها من التبشير الشيعي، ومن الطبيعي أن يجد ذلك فرصته في البيان للتنبيه العلني غير المباشر على هذا الموضوع، كما أنَّ البيان يمثل أوَّل وثيقة موجَّهة إلى الحكومة صادرة عن علماء الدين السوريين تذكر الشيعة وتنم عن حساسية تجاههم.

كسر جدار الصمت

الإحساس بالظاهرة يأتي من الاهتمام بها، وبما أنَّ السلفيين هم العدو الطبيعي للشيعة فقد كانوا أوَّل من تابع هذه الظاهرة؛ إذ أصدر السلفي عبد الستار آل حسين في العام نفسه (٢٠٠٤) كتاباً بعنوان «تحذير البرية من نشاط الشيعة في سورية». أثار الكتاب اهتماماً محدوداً؛ فقد كان قد نُشر إلكترونياً واقتصر تداوله على المواقع السلفية على الإنترنت، غير أنَّ اللافت للانتباه هو تزامن تاريخ صدور هذا الكتاب مع الإعلان عن افتتاح مقام الصحابي

= والبناء أنَّ إقالته تأتي في إطار «خطة تجفيف ينابيع المدارس الدينية في سورية من قبل النظام الحاكم»، وأنَّ الخاني أقيّل «لرفضه قبول قرار الوزير إيقاف التسجيل في المعاهد والثانويات الشرعية»، حيث عُيِّن محله لاحقاً فريد الخطيب. وقالت الحركة إنَّ «هذا القرار يأتي مفاجئاً لعلماء الشام الذي وُعدوا من قبل النظام بحل مشكلة وقف التسجيل بالمعاهد الشرعية جذرياً وقريباً، وذلك إثر رفع العلماء لعريضة الاحتجاج التي وقَّع عليها أكثر من ٢٠٠ من كبار علماء سورية» إلى الرئيس السوري بشار الأسد. انظر الخبر على الصلة:

< <http://www.thissyrria.net/2006/07/10/syriatoday/01.html> >.

(٩١) من نص بيان العلماء.

الجليل عمّار بن ياسر، ويبدو أنّ هذا الافتتاح كان بمنزلة رصاصة البدء في الالتفات إلى عملية التشييع والاهتمام بانتشارها في المنطقة الشرقية والجنوبية في سورية.

الاهتمام السلفي بالظاهرة من منطلق ديني ما لبث أن اقترن بالسياسي، ذلك أنّ السلطات السورية كانت قد بدأت حملات اعتقال في صفوف السلفيين منذ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠١ في سياق حملة مكافحة الإرهاب الدولية^(٩٢)، والبحث عن الخلايا النائمة لتنظيم القاعدة؛ إذ أبدى النظام تعاوناً استثنائياً مع المخابرات الأمريكية بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، إلى الدرجة التي أشاد فيها بوش بتعاون النظام السوري مرات عديدة^(٩٣)، الأمر الذي جعل السلفيين يربطون حملة الاعتقالات المتواصلة في صفوفهم بالتزايد المستمر للتبشير الشيعي الآخذ بالتصاعد.

في مستهل ٢٠٠٥ قرع الملك الأردني عبد الله الثاني جرس الإنذار من قيام «هلال شيعي» يمتد من مقاطعة خراسان في شرق إيران مروراً بالعراق وسورية ولبنان حتى حوض الأبيض المتوسط^(٩٤)، وتبعه في ذلك وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل. أثار الحديث السياسي عن الهلال الشيعي اهتمام المحللين السياسيين، لكن الاهتمام بقضية التشييع لم تكن بعد من متداولات التحليل السياسي، فقد كانت المسألة مسألة علاقات قوة ومحاورة سياسية في نظر المحللين.

(٩٢) اللجنة السورية لحقوق الإنسان، لندن.

(٩٣) صحيفة الحياة، ٢٠٠٨/١/٥.

(٩٤) «سورية... جسر إيران إلى المتوسط»، مجلة المشاهد (لندن)، العدد ٥٣٧.

(٢٠٠٦).

بدأ النقاش الصامت عن التبشير الشيعي في سورية يخرج إلى العلن عندما انتقد المحامي السوري هيثم المالح (رئيس الجمعية السورية لحقوق الإنسان) افتتاح العديد من الحوزات الشيعية في سورية وإقامة النشاطات وإجراء الاجتماعات من دون مساءلة، فضلاً عن نشاط العديد من الشيعة الإيرانيين في البلاد وتغاضي الحكومة السورية عنهم، في حين يستمر الضغط على خطباء المساجد السُّنة ويستدعون إلى أجهزة الأمن بشكل متكرر. وكشف المالح عن التمييز والازدواجية اللذين تمارسهما السلطات متسائلاً: «هل هذه الازدواجية في تعامل الأجهزة الأمنية مع الشرائع العديدة من التيار الإسلامي محض صدفة أم وراء الأكمة ما وراءها؟ وهل نستطيع أن نستشف أن هناك اتفاقاً ضمناً بين الدولة الإيرانية والنظام في سورية لوضع التسهيلات أمام الوافدين من إيران بغية مدّ جسور الثورة من هناك إلى المجتمع السوري وتحويله من السُّنة إلى التشيع على الطريقة الإيرانية؟»^(٩٥).

وبما أن الإخوان المسلمين جماعة سياسية وفي الوقت نفسه دينية، فقد كانت لهم حساسيتهم الخاصة للجانب الديني في قضية «الهلal الشيعي»؛ فما أن بدأ الحديث السياسي عن «الهلal الشيعي» حتى أخذ يتردّد على ألسنة قياداتهم وتحديداً منذ نهاية ٢٠٠٥ الحديث عن حملات التشيع في سورية، لكنهم لم يُظهروا تحذيراتهم واستنكارهم حتى ما بعد منتصف عام ٢٠٠٦، وذلك بعد تصريحات المالح، وبعد أن نشرت مجلة «الوطن العربي» تقريراً صحفياً مثيراً عن «استراتيجية نشر التشيع في سورية»^(٩٦)، أكّد بأنّ

(٩٥) صحيفة الرأي العام (الكويت)، ١/٥/٢٠٠٦.

(٩٦) الوطن العربي، ١٢/٦/٢٠٠٦.

«حالات اعتناق المذهب الشيعي شهدت مؤخراً تزايداً بالآلاف (...). وسط صمت رسمي كامل، سادت قناعة في أوساط السوريين المطلعين بأنَّ ثمة تشجيعاً رسمياً خفياً ومعلنأ لهذه الظاهرة، ووصل البعض إلى حد وصفها بأنَّها سياسة رسمية للنظام مبنية على حسابات مستقبلية!» وأنَّ عملية التشيع تأتي - حسب التقرير - في سياق تقوية المحور الإيراني - السوري.

تحدَّث معظم المعارضين السياسيين السوريين عن حملات التشيع في سورية، وأنَّها «تزيد الاحتقان الداخلي في سورية (...). حين تُنفق مبالغ طائلة للتشيع»، وأكدوا أنَّ «البعد الطائفي واضح وظاهر في سياسة إيران تجاه المنطقة»، وأنَّ «كل ما يجري من حركة تشيع في سورية هو (...) محاولة لإثارة البلبلة من أجل تغيير تركيبة المجتمع السوري»^(٩٧). هذه التصريحات المتوالية أثارت مشاعر الغضب لدى قطاع واسع من السوريين ولفتت انتباههم للتبشير الشيعي بأهدافه السياسية؛ ولأول مرة في تاريخ الدولة السورية يصبح موضوع التشيع موضع هواجس شعبية.

بدأ الحديث يتصاعد عن حملة التشيع داخل سورية وخارجها، إلى الحد الذي دفع أبرز فقهاء الشام الدكتور وهبة الزحيلي للقول بأنَّ «ما يجري في سورية عدوان لا بد من إيقافه»^(٩٨). وانتهز

(٩٧) «شخصيات سورية قلقه من تنامي ظاهرة التشيع... مؤسسات إيرانية تبني حسنيات وتقدّم عروضاً مالية مغرية لكسب ولاء السوريين»، وكالة قدس برس، ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦. انظر الوصلة:

< <http://www.qudspress.com/look/print.tpl?IDLanguage=17&publication=1&NrArticle=4104&NrIssue=1&NrSection=3> > .

(٩٨) المصدر نفسه، وحسب المصدر ذاته فقد قال الدكتور الزحيلي: «لم يصل أمر الدعاية الشيعية في سورية إلى درجة الظاهرة، ولكنَّه حركة دؤوبة تستخدم فيها المستشارية =

الفرصة نائب الرئيس الأسبق المنشق عبد الحليم خدام بخبت سياسي، فأكد أن الرئيس حافظ الأسد «كان مسلماً، ولم يعلن تشيعه»، وأرجع السياسة الإيرانية في نشر التشيع إلى مبدأ «الدفاع عن مصالح إيران في المنطقة حتى ولو كان ذلك بالتحالف مع الشيطان الأكبر». وانتقد خدام السفير الإيراني في دمشق تحديداً، واتهمه بقيادة حركة التشيع في سورية، مشيراً إلى أن «حركة التشيع هي ظاهرة سياسية يقوم بها السفير الإيراني في دمشق بهدف إيجاد حالة سياسية مرتبطة بإيران، وهذا النشاط خطير لأنه يؤسس لفتنة مذهبية في سورية»! (٩٩).

حظيت هذه التصريحات باهتمام القادة الأردنيين (١٠٠)

= الإيرانية في دمشق الإغراءات المادية من مال وبيوت وسيارات من أجل جلب الناس إلى اعتناق التشيع». وأوضح أن هذه الحركة التي تتم بسرية كاملة والتي تقابل بصمت رسمي، قد تزجع السوريين في المستقبل، وقال: «لقد تحدثنا قبل أشهر مع السيد (علي) خامنئي في طهران، واعتبرنا ما يجري في سورية عدواناً لا بد من إيقافه، إذ كيف يتم الحديث عن الوحدة والحوار وفي المقابل يتم دفع الأموال للناس كي يغيروا مذاهبهم! كما أشار الزحيلي إلى أن عملية التشيع أمر واقع ولا يمكن أن يخفى على أحد، وذكر أن مئات من السوريين في دير الزور والرقعة ودرعا وغوطة دمشق قد استجابوا فعلاً لإغراءات المستشارية الإيرانية وتشيعوا. (٩٩) المصدر نفسه.

(١٠٠) «السؤال الشيعي يطرح لأول مرة في الأردن، فثمة تقارير وتصريحات رسمية ومعلومات متعددة تؤكد وجود ظاهرة «محدودة» من «التشيع الديني» في السنوات الأخيرة في مناطق مختلفة، بالإضافة إلى التخوف الرسمي من حالة «التشيع السياسي» من خلال قنوات واسعة كعلاقة قيادة حماس الخارج بإخوان الأردن، ووجود عشرات الآلاف من الشيعة العراقيين المقيمين في الأردن، إلى مرحلة بات يتحدث فيها بعض المسؤولين عن «خلايا شيعية نائمة» في عمان، يتوازى ذلك مع إعجاب شرائح اجتماعية واسعة بأداء حزب الله في الحرب الأخيرة، وكفاءة حسن نصر الله أمينه العام، الذي أصبح بمثابة بطل شعبي في الشارع العربي، والأردني بالتحديد.

يأتي الجدل الأردني حول التشيع والنفوذ السياسي الإيراني في المنطقة في سياق حالة =

والسعوديين^(١٠١)، وعلماء الدين السلفيين الأعداء التقليديين للشيعة، وكان لتصريحات الداعية السعودي الدكتور سلمان العودة (المشرف العام على «مؤسسة الإسلام اليوم» السعودية) - التي تناقلتها الفضائيات عن «انتشار كبير للمد الشيوعي في بلاد الشام، وسورية على وجه الخصوص»، وتحذيره من «ظاهرة انتشار التوجهات الشيعية داخل الإطار السنّي في بلاد الشام وسورية» بوصفه «أمراً لا يمكن السكوت عليه»، ف«التمدّد الشيوعي في الإطار السنّي» من منظور سلفي «هو لعب بالنار»^(١٠٢) - دور هام في تعميم القضية شعبياً في العالم العربي، فظهرت مقالات وتقارير صحفية بشكل كثيف في المواقع الإلكترونية والصحافة العربية والدولية، وبدأت التصريحات تتكاثر من قبل منظمات حقوقية، إلى أن أصبح موضوع المد الشيوعي موضوع جدل وتخطيط سياسي وأمني في المنطقة^(١٠٣).

= الاستقطاب السياسي الإقليمي الواضح اليوم بين المحور الإيراني - السوري المعزز بتأييد حركات إسلامية، والمحور الذي يطلق على نفسه «معسكر الاعتدال العربي» وعماده الرئيس (مصر، السعودية، الأردن). فالتخوف العربي من النفوذ الإيراني يبرز بوضوح في تصريحات لكبار المسؤولين تحذر من نفوذ إيران، وتشكك في «ولاء الشيعة العرب»، وفي مقالات تتحدث عن إعادة تصدير الثورة من جديد على يد نجاد ومجموعته الحاكمة اليوم». انظر: محمد أبو رمان، «التشيع السياسي ظاهرة تغذيها انتصارات حزب الله»، الغد (عمّان)، ٢٠٠٦/١٠/٤.

(١٠١) حذّر الملك عبد الله بن عبد العزيز من سعي إيران للتبشير بالمذهب الشيوعي في البلاد السنّيّة، انظر: مجلة التايم (٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠٧).

(١٠٢) قناة الجزيرة، ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦.

(١٠٣) نقلت الوكالة الإسلامية للأنباء (الشيوعية) في ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦ عن تقارير أوروبية استخباراتية بأن زيارة رجب طيب أردوغان إلى السعودية في مطلع أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦ كانت لتوقيع «معاهدة سرية بين السعودية وتركيا لوقف المدّ الشيوعي». وحذّر الملك الأردني عبد الله الثاني إيران من زعزعة الاستقرار في المنطقة لمدّ نفوذها وتوسيع =

ما من شك بأن هذه التصريحات لقادة سياسيين ودينيين أثارت الاهتمام بظاهرة التبشير الشيعي، وحرّضت وسائل الإعلام على تناولها، فيما أصبحت إحدى أكثر القضايا الدينية إثارة في الداخل السوري، إذ بدأت تصدر عشرات التقارير والمقالات والنداءات لوقف التشيع^(١٠٤)، وذلك بموازة حديث بدأ يتصاعد عن عمليات تشيع منظمة في الأردن ومصر^(١٠٥) والسودان^(١٠٦) وأماكن أخرى في المغرب العربي^(١٠٧).

تصاعد الضغط الإعلامي والتدفق اليومي للمعلومات التي

= هيمنتها. انظر: «الملك يحذّر إيران من زعزعة الاستقرار في المنطقة»، صحيفة الغد (عمّان)، ٢٥/١/٢٠٠٧.

(١٠٤) صدر عدد من «الاستغاثات»، مثل: رسالة من مواطن سوري حول المد الصفوي في اللاذقية أيار/مايو ٢٠٠٦،

< <http://www.d-sunnah.net/forum/showthread.php?t=62624> >.

انظر أيضاً: نداء من علماء سورية المسلمة (وإسلاما)، موقع من خارج سورية باسم «هيئة علماء المسلمين في سورية»، حمص حماة القصير ١٧ رمضان عام ١٤٢٧ هجرية الموافق ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦.

وهناك أكثر من خمسة نداءات استغاثة كتبت على شكل تقارير، وكما يبدو من طريقة بنائها فقد كُتبت بأيدي بعض الأهالي وعلماء الدين، وتمّ توزيعها بشكل محدود بين علماء الدين ذوي النفوذ والتأثير لتحذّر من التمدّد الشيعي في الجزيرة والبادية السورية وبين القبائل (نحتفظ بنسخة منها).

(١٠٥) حذّر الدكتور يوسف القرضاوي من «اختراق شيعي لمصر عبر بوابة المتصوفة»، ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦. انظر الخبر على موقع العربية نت على الصلة:

< <http://www.alarabia.net/article.aspx?S=27111> >.

(١٠٦) النور أحمد النور، «جماعات إسلامية سودانية تحذّر من مخطّط كبير وراءه إيران: قرى بأكملها تشيّعت والحسينيات والزوايا تنتشر في الخرطوم»، «الحياة»، ١٩/١٢/٢٠٠٦.

(١٠٧) انظر: لجنة تقصي الحقائق بمجلس أمناء اتحاد علماء المسلمين. التشيع في إفريقيا: تقرير ميداني (جدة: مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١١)، ج١.

تتعلق بالتشيع المنظم والمحمي أمنياً وسياسياً من قبل النظام السوري، وبدأ ذلك يشكل ضغطاً على النظام السوري وعلى عمل شبكة المبشرين التي تعمل في كنفه وحمايته، فسارع إلى أحد حلفائه من المؤسسات السنيّة للقيام بخطوة تخفف هذا الضغط، فأعلن في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ عن تأسيس «جمعية التآخي بين المذاهب الإسلامية في سورية» برئاسة الدكتور صلاح الدين كفتارو (نجل مفتي سورية السابق أحمد كفتارو، ورئيس مجمع «أبو النور»)، بحيث يشغل منصب نائب رئيس الجمعية رجل الدين الشيعي الدمشقي عبد الله نظام (رئيس الجمعية المحسنية في دمشق)، وذلك «استجابة للهواجس المثارة بشأن التشيع»، ومن أجل «تعزيز أواصر الإخاء الإسلامي والتقريب بين المذاهب الإسلامية»، بحسب بيان الجمعية، لكن لم يكن للجمعية أي دور يذكر لاحقاً، فقد كان هدفها إعلامياً لتخفيف الضغط لا أكثر. والطريف أن صلاح كفتارو رئيس هذه الجمعية كان قبل شهور قليلة فقط يتحدث سراً للسفراء عن التبشير الإيراني المتزايد في سورية ويبدى امتعاضه الشديد منه، ويؤكد أن نظام الأسد يخنق الأصوات التي تتحدث عن جهود التبشير الشيعي الممولة من إيران! وقال لهم وبشكل حاسم أن «السنة لن يسمحوا به»^(١٠٨).

(١٠٨) برقية سرية للسفارة الأمريكية بدمشق بعنوان «زعيم ديني سني يصر على أن حكومة الجمهورية العربية السورية تحاول خنق الانتقادات للتشيع الإيراني» سربها موقع ويكيليكس والتي تتضمن لقاء مع صلاح كفتارو أبدى فيها امتعاضه الشديد من تزايد النشاط الإيراني، ودور السفارة الإيرانية بدمشق في التشيع إسكات الأصوات الناقدة للدور الإيراني:

E.O. 12958:

DECL: 10/12/2015

= TAGS: PGOV, KISL, PREL, SOCI, SY, IR

لا شك أنَّ جمعية كهذه لا تستطيع مواجهة الشائعات التي بدأت تنتشر بشكل واسع وتحدث عن مؤامرة على سنيّة الشعب السوري، وتجنيس عشرات الآلاف من الشيعة الإيرانيين والعراقيين واللبنانيين لتغيير التركيبة الديمغرافية لسورية^(١٠٩)، الأمر الذي أجج الإحساس بالنقمة من استغلال تعاطف السوريين مع القضية الإيرانية وحزب الله.

SUBJECT: SUNNI RELIGIOUS LEADER INSISTS SARG TRYING TO STIFLE CRITICISM OF IRAN, "SHIAIZATION"
REF: DAMASCUS 0128
SECRET DAMASCUS 000162
CLASSIFIED BY: CHARGE D'AFFAIRES MICHAEL CORBIN, PER 1.4 B,D.
1/9/2017 Cable: 07DAMASCUS162_a

انظر الوثيقة على الوصلة:

< https://wikileaks.org/plusd/cables/07DAMASCUS162_a.html > .

(١٠٩) انظر: خالد الأحمد، «بشار يبيع سورية للصفويين»، موقع رابطة أدباء الشام، على الوصلة:

< <http://www.odabasham.net/show.php?sid=9230> > .

لم يكن يوجد وقتها ما يثبت هذه الشائعات أو ينفيها حول تجنيس الشيعة الإيرانيين وغيرهم، ولكن الأحداث التالية كشفت عملية تجنيس ممنهجة حسب الوثائق التي نشرت في البرنامج الوثائقي «الصندوق الأسود» في قناة الجزيرة بتاريخ ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٧ بعنوان «حرب الديمغرافيا: الحملة الممنهجة على الأكثرية السورية» والذي تحدث عن التغيير الذي قام به بشار الأسد بوثائق من خلال وثائق حكومية وشهادات لمسؤولين حكوميين سابقين. انظر الفيلم الوثائقي على الوصلة:

< <http://www.aljazeera.net/programs/black-box/2017/1/5/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%86%D8%AF%D9%88%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D9%88%D8%AF-%D8%A7%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A7%D9%81%D9%8A%D8%A7> > .

انظر أيضاً: إبراهيم درويش، «ما لم يقل مقال: أين مكمن الخطر؟»، موقع مركز الشرق العربي، على الوصلة:

< <http://www.asharqalarabi.org.uk/mushrakat/b-mushacat-1160.htm> > .

أحسَّ الملالي المبشرون أنَّ هذا لا يكفي ولا بد من المواجهة؛ ومن ثَمَّ فإنَّ الرد الإعلامي في هذا السياق بات أمراً حتمياً لحماية أنفسهم ومشروعهم، فقد أصبح البقاء في الظل بمنزلة دليل إدانة على نشاطهم، فخرج بعض الشيعة الدمشقيين (وتمَّ تجنُّب أي شخصية شيعية غير سورية) ونفوا بشكل قاطع أي عملية تبشير في سورية. وحسب ما ورد في كلام كلِّ من رجلَي الدين الشيعيين الدمشقيين (عبد الله نظام ونبيل حلباوي) فإنَّه «لا وجود لحملة تبشيرية شيعية بين أهل السُّنة وأنَّ هذا الكلام يفتقر إلى الدليل»^(١١٠). وبطبيعة الأمر النفي في هذه الحال أفضل وسيلة لنشاط يعمل في الظل.

(١١٠) انظر: حيان نيوف، «شيعية سورية يردّون على اتهامهم بـ«التبشير» بين السُّنة والعلوين»، العربية.نت، ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦، على الوصلة:

< <http://www.alarabiya.net/articles/2006/11/06/28855.html> > .

وفي سياق الرد، قال رجل الدين الشيعي عبد الله نظام: «الكلام عن ظاهرة تشيع في سورية بدعم إيراني وغض السلطات السورية النظر عنها هو كلام عارٍ عن الصحة، وهدفه التفرقة. في سورية لا يوجد شيء اسمه الدعوة إلى مذهب معين، والقانون يخضع له الجميع بنفس الطريقة، والشيعة أصلاً تابعون في كل أمورهم الدينية إلى وزارة الأوقاف في سورية من مساجد وأئمة. نحن كشيعية عبارة عن مذهب فقهي، والمذهب الفقهي ليس ديناً أو شيئاً خاصاً حتى يدعو إليه الإنسان، لاسيما أنَّه توجد ضمن المذهب الواحد في الإسلام فتاوى متعدّدة وأكثر من قول في مسألة واحدة. لا يوجد تشييع في سورية مرتبط بجهة خارجية أبداً، أي شخص لديه مثال واحد فليقلِّ مثاله لنا».

إذن، هناك تشيع مقابل أموال كما قالت جهات سورية معارضة؟ سألت «العربية نت»، يجيب: «هذا كذب صراح من جماعات تريد حرباً طائفية في المنطقة. الإنسان الذي يتم شراؤه بالأموال لا خير فيه».

وسألت «العربية نت»: هناك تقارير تحدّثت عن نشاطات إيرانية من خلال بناء مراكز ثقافية جديدة وحوزات شيعية، فأجاب نظام: «لديهم مركز ثقافي في دمشق فقط، والسفارة الأمريكية لها مركز ثقافي أيضاً. أمّا بالنسبة للحوزات فنحن لدينا حوزات معروفة لتدريس =

اللافت للانتباه هو ظهور رجل الدين العلوي (النصيري) المنتمي لتيار عودة الفرع إلى أصله الشيعي ذو الفقار غزال لينفي وجود ظاهرة تشييع بين العلويين بجوار نفي الشيعة السوريين لحملات تبشير شيعية! ومن الواضح أنَّ المسألة كانت في إطار خطة دفاعية عاجلة وغير مدروسة بعناية؛ فالحديث عن تشييع العلويين لم يتناوله الإعلام بشكل مسهب، ولم يشكل جزءاً من حديث الشارع، لكنَّه على كل حال كان جزءاً من استهداف سياسي للنظام لتأكيد الدوافع الطائفية لحملة التبشير وحمايتها أمنياً وسياسياً من قبل نظام الأسد الابن.

في ظلّ عزلة دولية وتهديد النظام بنتائج التحقيق الدولي في مقتل رفيق الحريري، فإنَّ على الأسد أن يتجنَّب أي ضغط آخر، خصوصاً إذا كان داخلياً، وقد أحسَّ بأنَّ مسألة التشييع أصبحت مصدر قلق لا يمكن التكهّن بنتائجه فيما إذا استمر بالتصاعد، ومن ثمَّ فإنَّ عليه التحرك بشكل فوري لمحاصرته، هكذا دُفع بالمفتي الجديد الشيخ أحمد حسون - المغرم بالحديث إلى وسائل الإعلام

= الطلبة كما توجد عند أهل السنَّة معاهد لتدريس الطلبة أيضاً وهي معاهد شرعية، هذا عمل طبيعي، والمسيحيون عندهم مدارس لاهوتية».

ونفى أن يكون المسجد الأموي يعطي دروساً في الفقه الشيعي قائلاً: «هذا المسجد لإخواننا السنَّة». وأضاف: «الدروس التي فيه هي لرجال دين وفقه من أهل السنَّة، ولكن في شهر رمضان حصل أن أذيع حديث رمضان الديني من المسجد الأموي بدلاً من أن يذاع في التلفزيون، وشخصياً شاركت لمدة ٧ دقائق. ودُعيت إليه في يوم من أصل ٢٩ يوماً تكلم فيها رجال دين من السنَّة، فهل كثير على الشيعة أن يتكلموا ٧ دقائق في حديث ديني واحد!»

وأبدى عبد الله نظام استغرابه من موجة التهويل بمدَّ شيعي في بلاده، وقال: «العقيدة ليست مصبغة نرسل إليها القماش لتغيير لونه، والإنسان حرّ بما يختار ولا نستطيع أن نفرض عليه أي شيء».

ورجل الدين غريب الأطوار بنظر علماء الدين السُّنة - إلى الواجهة،
ليضمّن سيل تصريحاته نفيّاً قاطعاً لأيّ تشييع أو تبشير شيوعي في
الأراضي السورية مدعوم من النظام أو من إيران^(١١١).

من حق النظام أن يدافع عن نفسه لو كان صادقاً لكن بمزيد
من الشفافية، فالوثائق الحكومية والوقائع التي سقناها في الفصول
السابقة ليس بالإمكان نفيها بسهولة، وبما أن النظام متورط فليس
عليه إلا النفي لأعمال تتم في الظل غالباً، وضمن منظومة عقله
الأمني فإنّ عليه أن يقمع أي حديث علني احتجاجي يتعلق بالتبشير
الشيوعي، وعلى هذا الأساس فإنّه لجأ إلى سياسة اعتقال المتدينين
من ذوي الاتجاه السلفي المناهض للطبيعي للتشييع، واستصدار
أحكام قاسية جداً بحقهم تبدأ من أربع سنوات وتصل إلى أكثر من
ثمانين سنوات بتهمة الانتماء إلى «جمعية تهدف إلى تغيير كيان
الدولة الاقتصادي والاجتماعي»!^(١١٢). الواقع أن اعتقال السلفيين

(١١١) على سبيل المثال صرح الشيخ حسون لـ العربية نت قائلاً: «إنّ الذين
يتحدثون عن تشييعه إنّما يسوقون اتهامات مضحكة، في سورية يوجد مفتٌ للجمهورية ومفتٌ
للشافعية والأحناف والجعفرية. أرجو من هؤلاء الذين يُنقل عنهم هذا الحديث أن يعلنوا
عن أسمائهم وأن يقولوا نحن الذين نتهم لا أن يقولوا والله أخبرنا بعض العلماء من حلب
أنّهم نصحو المفتي ألا يتشييع،... تابعت الأمر بشكل شخصي وتبيّن أنّه غير صحيح،
واتصلت بالشيخ سلمان العودة، وطلبت منه أن يدلني على موقع من المواقع التي يُقال إنّ
فيها انتشاراً للتشييع في سورية، وكان سعيداً بتوضيح الأمور له، وقال إنّ هذه الأنباء جاءت
من بعض الإخوة ولذلك تكلمت بها، فدعوته لزيارة سورية ليرى حقيقة الأمور». انظر
تصريحات حسون في موقع العربية نت، على الوصلة:

< <http://www.alarabia.net/articles/2006/11/27/29435.htm> >.

(١١٢) انظر مثلاً: اللجنة السورية لحقوق الإنسان (لندن)، خمس سنوات سجن
بسبب الانتماء إلى تيار سلفي ٢٠/٩/٢٠٠٧، على الموقع الإلكتروني:

= < <http://www.org/data/asp/d8/2798.aspx> >.

لم يكن لهذا الغرض فقط، كان هنالك غرض آخر هو تحويلهم إلى ما يمكن اعتباره بمثابة «مختبر» لإنتاج السلفيين الجهاديين وتصنيع واختراق شبكاتهم في سجن صيدنايا أو «مختبر القاعدة في صيدنايا».

في ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ اعتقل جهاز الأمن السياسي في مدينة بانياس الساحلية الشاعر المسنّ محمد علي

= وحتى عام ٢٠١١ ظلت الأحكام جارية، فقد أصدرت محكمة أمن الدولة العليا بدمشق (محكمة استثنائية) يوم الأحد ١١/١١/٢٠٠٧ أحكاماً على ثلاثة معتقلين بتهمة الانتساب لجمعية سرية تهدف إلى تغيير كيان الدولة الاقتصادي والاجتماعي سنداً للمادة ٣٠٦ من قانون العقوبات السوري، وذلك في إشارة لانتساب المتهمين إلى تيار سلفي متشدد، وتراوحت الأحكام بين السجن لمدة ثماني سنوات والسجن أربع سنوات، فيما استجوبت عدداً آخر من المعتقلين وأجلت جلساتهم لاستكمال الدفاع أو لمطالبة النيابة، وكانت الأحكام على الشكل التالي:

السجن لمدة ثماني سنوات للمتهم محمود الشيخ بن محمد.

السجن لمدة ست سنوات للمتهم محمد الحمود.

السجن لمدة أربع سنوات للمتهم محمد بربور درويش.

انظر اللجنة السورية لحقوق الإنسان، لندن ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر على الوصلة:

< <http://www.shrc.org/data/asp/d7/3357.aspx> >.

وفي ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧، حكمت محكمة أمن الدولة على المواطن السوري خالد العبود الموقوف منذ تاريخ ٢٨ آذار/مارس ٢٠٠٥ بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات بتهمة الانتساب لجمعية تهدف لتغيير أوضاع المجتمع الاقتصادية والاجتماعية بإحدى الوسائل المذكورة بالمادة ٣٠٤ سنداً للمادة ٣٠٦ من قانون العقوبات، وحججه وتجريده مدنياً وتضمينه الرسوم والمصاريف قراراً مبرماً غير خاضع للطعن بالنقض وخاضعاً للتصديق من المراجع المختصة.

كما استجوبت المحكمة في اليوم نفسه كلاً من: محمد عبيد الأحمد بن عيسى وناصر ناصر من أهالي الجولان، وكلاً من محمد ناصر وعبد المحسن محمد الحاج الشيخ من أهالي محافظة الرقة بالتهمة نفسها! انظر: اللجنة السورية لحقوق الإنسان، ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧، انظر الوصلة:

< <http://www.shrc.org/data/asp/d7/3354.aspx> >.

درباك (٧٢ عاماً) بسبب قصيدة نظمها ينتقد فيها الشيعة بعد أن هاجم جيش المهدي اللاجئين السوريين في العراق، ونتيجة سوء المعاملة والأوضاع غير الإنسانية التي وُضِعَ فيها فقد نُقِلَ إلى المستشفى وتناقلت المنظمات الحقوقية نبأ وفاته في سجنه إثر جلطة أصابته^(١١٣). وفي السياق نفسه داهمت قوات الأمن في درعا منزل الأستاذ الجامعي تيسير العمر (أستاذ العقائد والأديان في كلية الشريعة بجامعة دمشق) في ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٧، وفصلته مع طلابه من وظائفهم في الإمامة والخطابة بسبب تحديثهم عن التشيع علناً والتحذير منه^(١١٤).

الواقع أن تصرفات السلطات والأجهزة الأمنية أثارت الريبة وأكّدت القضية أكثر من أن تنفيها، وأجّجت المشاعر أكثر من أن تطفئها. لقد كان لمثل هذا الوضع أن يدفع باتجاه مزيد من الاحتقان والرغبة بمعرفة حقيقة ما يجري على الأرض، وبما أنه من غير الوارد أن يكشف النظام عن علاقته بحماية التبشير، فقد بدا الأمر محرّجاً له؛ إذ اضطرّ مقربون من حزب البعث لمطالبة السلطات بالكشف عن الحقيقة^(١١٥)، ف«المقالات التي تتحدث عن

(١١٣) صحيفة الخليج، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٧. وحسب اللجنة السورية لحقوق الإنسان فإنّ «هذه العناصر الأمنية اعتقلت أيضاً صاحب المكتبة التجارية التي نسخ درباك قصيدته فيها، واسمه رامي رخامية، والعامل في المكتبة علاء محيي الدين، الذي قام بعملية النسخ واللذان لا يُعرف وضعهما حالياً». وقد أفرج عن درباك وكل من رخامية ومحيي الدين في ٢٠ و٢١ آذار/مارس ٢٠٠٧. انظر الخبر على الوصلة:

< <http://www.shrc.org/data/asp/d7/3354.aspx> >.

(١١٤) انظر بيان حركة العدالة والبناء، في ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٧ على الوصلة:

< http://www.forsyria.org/arab/statment_deatils.asp?id=24 >.

(١١٥) «مقربون من «البعث» يدعون الحكومة السورية إلى تفنيد شائعات «التشيع السياسي»،» جريدة البيان الإماراتية، ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٧، انظر الوصلة:

< <http://www.arrae.com/modules.php?name=News&file=article&sid=18246> >.

التشيع في سورية ازدادت مؤخراً وبشكل ملحوظ، وبصورة لم تكن مسبوقة ولم تكن تُطرح أبداً بهذا الشكل»، وأنَّ «معظم هذه المقالات يركز على قضية التشيع؛ أي تحول بعض المسلمين السُّنة ليصبحوا شيعة من أتباع ولاية الفقيه»، و«نظراً لازدياد الاهتمام بالموضوع مؤلت جهات أوروبية دراسة بحثية ميدانية أشرف عليها السوري المقيم في فرنسا نزار نيوف، ومنشورة على موقعه تتناول هذه القضية وحجمها وانتشارها، وبعد ذلك يبدو أنَّ المقالات بدأت تتجه لتكون أكثر تركيزاً، بمعنى أنَّها تتناول منطقة محدّدة أو محافظة وتدرس تلك الظاهرة فيها».

ودعا هؤلاء المقربون إلى «إجراء دراسة علمية من قِبل مركز دراسات سوري مستقل، يقوم بزيارات ميدانية ويقدم تقريراً شفافاً مدعماً بالمعلومات والصور عمّا يثار، بحيث يمكن في النهاية معرفة حقيقة ما يجري، ويتمّ عرضه على قيادة حزب (البعث)، بحيث يتمّ اتخاذ الإجراءات المناسبة والتصدي لمن يثير الفتنة، سواء أكانت هذه الظاهرة موجودة أم يتمّ تضخيمها لأهداف معروفة»، وتساءلت: «ألم يكن من المناسب أن يناقش هذا الموضوع الخطير في اجتماعات اللجنة المركزية لحزب (البعث) الأسبوع الماضي؟ أَوليس هو أخطر من الكثير من القضايا التنظيمية والاقتصادية التي نوقشت؟».

كان رجل الدين السنّي (ورجل بلاط الأسد الأب) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في ٢٨/٠٤/٢٠٠٦ قد انتقد في خطبة ملتهبة غير معهودة منه الفكر الشيوعي واعتقاداته في أهل بيت النبي التي وصفها بأنها مغالى فيها^(١١٦)، لكنّ الأهم في هذه الخطبة ليس

(١١٦) انظر الخطبة في الموقع الرسمي للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على =

نقده للعقائد الشيعية، وإنما هو احتجاجه الحاد واللافت على احتلال المقامات السنيّة واختراع بعضها في مدن سنيّة عريقة لم يدخلها التشيع يوماً لتثبيت مراكز تبشير شيعية؛ فالشيعية - وفقاً للبوطي - يطمعون بغلوهم في أتباع المذاهب السنيّة، «ويختلفون اختلاقاً أسماء لأشخاص من آل بيت رسول الله وهميين يبنون لهم في ظلام ليل دامس دون شعور قبوراً وهمية، وبعد حين يبنون لهم قباباً خضراء في سبيل أن يضعوا أيديهم على بقاع حول هذه المنطقة كلها، ويجعلوا منها منطلقاً لمقارعة مذهب لمذهب، ويجعلوا منها منطلقاً من أجل كيد، ومن أجل إثارة فتنة (...) لماذا توضع الأيدي على بقاع معينة من أرضنا الإسلامية (...) من أجل أن تكون هذه البقعة منطلقاً بعد ذلك لفتنة؟»^(١١٧).

حذر البوطي في خطبته بشدّة الملالي الشيعية من التمادي في تبشيرهم واحتلال المقامات واختلاقها في المناطق السنيّة، قائلاً: «إياكم ومهايج الفتنة، إياكم وأن تلعبوا بالنار، لئن كان الساسة في شغل شاغل، وفي ظروف لا تسمح لهم بالتحذير، فنحن - المسلمين - لنا ظروف أخرى نستطيع أن نشير إلى مكان الخطر (...) أمل أن يكون في وعي هذه الأمة - لاسيما في هذه البلدة [دمشق] - ما ينبهها إلى الخطر الداهم، ما ينبهها إلى نشاط يتحرك باسم الإسلام، ولكنه يبتغي شيئاً آخر، يبتغي إثارة فتنة، يبتغي مقارعة مذهب بمذهب تحت مظلة دين واحد، اجعلوا من وعيكم حارساً لهذه الحقيقة. أمّا قادتنا، فلا أدري ماذا أقول، لعلهم في

= الانترنت، بعنوان: «الوسطية»، على الوصلة:

< <http://www.bouti.com/article.php?PHPSESSID=c8cefb70281053937fe7e7654379-d082&id=244> > .

· (١١٧) المصدر نفسه.

شغل شاغل بسبب الظروف المدلهمة التي جعلتهم في دوامة وحيرة»^(١١٨).

وكما هو واضح، فإنّ البوطي على الرغم من أنّه يصرّح بأنّ العملية التبشيرية تتم في «غفلة» السلطات، إلّا أنّه من طرف آخر كان قد غمز بوجود مصالح سياسية للنظام بهذه الحركة التبشيرية عندما ختم خطبته بالقول: «قاتل الله السياسة عندما تحجب عن المبدأ، وقاتل الله السياسة عندما تمتطي الدين لمصلحتها»^(١١٩).

من الطبيعي أن يكون البوطي بعد ثلاثة أشهر أحد أبرز الموقعين على بيان علماء الشام، ولا نستبعد إطلاقاً أن يكون البوطي قد صاغ البيان بنفسه. لكن البوطي - رجل البلاط الذي انتهت صلاحيته منذ سبع سنوات - لم يتوقف، فالمسألة تبدو مقلقة له كعالم دين ورمز سني كبير مسؤول عن حماية معتقدات أتباعه، فطلب رسمياً من ما قال إنها «جهات عليا» في النظام بين ٢٠ - ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠٧ للتدخل ووقف عملية التبشير^(١٢٠)، ولم يظهر لطلبه أثر!

وعندما عقد المركز العربي للدراسات الاستراتيجية في جامعة دمشق جلسات حوارية للمثقفين السوريين مع وزير الخارجية الإيراني منوشهر متكي في ٢٣ و ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٧ لم يتمالك المثقفون السوريون أنفسهم من سؤال الوزير الإيراني عن «هاجس التشيع»^(١٢١) ووجود «اتهامات بأنّ إيران معنية بنشر المذهب

(١١٨) المصدر نفسه.

(١١٩) المصدر نفسه.

(١٢٠) مصدر مقرب جداً من الدكتور البوطي، طلب عدم ذكر اسمه.

(١٢١) صحيفة الحياة، ٢٥/٢/٢٠٠٧.

الشيوعي في سورية»، وأنَّ إيران ضالعة في الفتنة المذهبية والحرب الطائفية الدائرة في العراق؛ غير أنَّ متكي لم يزد أن قال: «لا نسعى لأن نجعل من السني شيعياً، ولا نعرف أنَّ هناك حركة كهذه! في الحقيقة نحن لا ننظر إلى الخلاف على أنَّه خلاف في العقيدة، بل [على] أنَّه اختلاف في وجهة النظر السياسية»^(١٢٢)، والواقع أنَّ متكي - الذي يعلم تماماً أنَّه لا يقول الحقيقة - لم يجانب الصواب في وصف أصل المسألة، فالمسألة هي فعلاً سياسية.

(١٢٢) المصدر نفسه.



الفصل الخامس

الاختراق

الدخول إلى عمق الدولة

«افتتاح مصنع سيارات سابا هو عبارة عن حجر جديد يوضع في البناء الكبير للعلاقات الاستراتيجية بين سورية وإيران»

بشار الأسد، ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٧

المشكلة التي واجهها المشروع الإيراني في سورية في ذلك الوقت تكمن في أمرين اثنين: الأول هو الديمغرافيا السكانية السورية التي تختلف كلياً عن لبنان والعراق واليمن والبحرين، إذ تكاد الأقلية الشيعية فيها معدومة لشدة صغرها، إلى درجة أن معظم الدراسات عن سوريون قبل الألفية الثانية لا تذكرهم في النسب السكانية. والثاني - وهو ناتج عن الأول - أنه لا يوجد في أجهزة الدولة شيعة سوريون بحيث يمكن أن يكونوا المنفذين المحليين للمشروع. الأمر الذي فرض حدوداً لأي استراتيجية للمشروع الإيراني في سورية، واضطرها إلى خطط تنفيذية طويلة الأجل.

فبما أن إحداث تغيير ديمغرافي كبير لخلق وجود شيعي جديد يمكن أن يكلف جهداً هائلاً ويحتاج وقتاً طويلاً للغاية، فإن الطموح سيكون متواضعاً وعملياً ليحقق الغرض؛ فبدلاً من السيطرة

الواسعة يجب تأمين الممرات الجغرافية التي تمر من طهران إلى العراق نحو سورية ولبنان، وتركيز التشيع في هذه المناطق لإحداث التغيير الديمغرافي على نحو أسرع، في حين تبقى عملية التشيع في باقي المناطق مستمرة بوتيرة أقل، وهذا الاستمرار سيحقق هدفين، الأول هو صرف النظر عن المسعى الإيراني في التركيز على الممرات، والثاني هو توسيع انتشار الموالين لإيران على كل الجغرافية السورية، ويساعد مع الزمن على تحقيق تغيير ديمغرافي جزئي في سورية يمكن أن يكون له تأثير سياسي فعال لاحقاً.

لقد لاحظنا في هذه الدراسة كيف أن أعلى نسب التشيع للعرب السنة هي في البادية السورية القريبة من الحدود العراقية، والقرى التي جرى نشر التشيع فيها تبدو كسلسلة متصلة تمتد من الغرب إلى الشرق وإذا ما تم التدقيق أكثر في الملحق المرفق نهاية هذا الكتاب فإننا سنجد أن هذه القرى تقع على الممرات الصحراوية الرئيسية التي تصل سورية بالعراق ما بين بلدة ربيعة ومدينة البوكمال (٣٢٠ كم)^(١). وهذه الممرات البرية تصل بين الحدود العراقية السورية ودمشق وحمص أي الحدود اللبنانية الشرقية كلها وبشكل خاص إلى البقاع وبيروت وطرابلس.

إضافة إلى ذلك ثمة توسيع الوجود الشيعي حول العاصمة نحو

(١) توجد في سورية ثلاث ممرات برية نحو العراق، الممر الأول يبدأ من معبر ربيعة الذي يمر بالحسكة إما نحو الرقة وإثريا والسلمية إلى حمص، أو نحو الشدادي ومركدة ودير الزور ثم تدمر، ومن تدمر إلى حمص أو إلى النبك ثم دمشق. الممر الثاني يبدأ من معبر البوكمال ويمر بالميادين ودير الزور ثم تدمر، ومن تدمر إلى حمص أو إلى النبك ثم دمشق. الممر الثالث - وهو أقصر الممرات - ويبدأ من معبر التنف ومنه إلى حمص أو دمشق عبر منطقة القلمون.

المطار الدولي وهو بدوره يضمن الممر البري المكمل للممر الجوي إلى العاصمة دمشق ومن العاصمة إلى بيروت، ورأينا في فصول هذه الدراسة كيف تم احتلال منطقة السيدة زينب السنية وتحويلها إلى مستوطنة شيعية مكونة أساساً من الجنسية العراقية، وكيف تم تركيز عمليات التشييع في القرى المحاذية للسيدة زينب وعلى طول القرى الممتدة من دمشق نحو المطار الدولي.

وفي مقابل هذه الممرات يتم الاعتماد على الأقلية الشيعية القائمة وأبنائها الموالين للولي الفقيه في إيران بالإضافة إلى العلويين المتشييعين من تيار «عودة الفرع إلى أصله» الموالين بالضرورة لإيران للوصول إلى عمق مؤسسات الدولة ومواقع صنع القرار، وبشكل خاص في المؤسسات الحكومية السيادية: الجيش وأجهزة الأمن والاقتصاد والتعليم.

أولاً: الأجهزة الأمنية

عُرف ثلاثة من أبرز قيادات الأجهزة الأمنية بصلاتهم المباشرة والاستثنائية مع إيران، وبدورهم المؤثر في موضوع التشييع في سورية، وهم اللواء محمد ناصيف خير بيك^(٢) (علوي) واللواء

(٢) هو أحد ثلاثة أمنيين هم أعمدة نظام الأسد الأب. ولد في قرية اللقبة من ريف مدينة مصياف التابعة لمحافظة حماة ١٩٣٧، وهو ينتمي إلى قبيلة كلبية العلوية، التي ينتمي إليها حافظ الأسد، وأحد زعماء عشيرة خيربك. تخرج من كلية الحقوق، وعُيّن ملحقاً عسكرياً في ألمانيا الشرقية بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢. ثم عين رئيساً لفرع الأمن الداخلي (الفرع ٢٥١) في جهاز أمن الدولة بين ١٩٧٢ وحتى عام ٢٠٠٢ حيث كلفه حافظ الأسد خلالها بملف العلاقات مع إيران والأكراد بدءاً، كما أنه لعب دوراً مهماً في هندسة القمع الوحشي لانتفاضة الإسلاميين في مطلع الثمانينيات. وبدءاً من عام ٢٠٠٢ تم تعيينه نائباً لمدير إدارة المخابرات العامة حتى عام ٢٠٠٥ (خلفه فيه اللواء بهجت سليمان) حيث أصبح الرجل =

هشام بختيار^(٣) (شيعي)، واللواء محمد منصوره^(٤) (علوي)، إلا أن

= الأمني الأهم في علاقات النظام مع إيران وحزب الله اللبناني وعَيْنَ معاوناً للشؤون الأمنية
لنائب الرئيس فاروق الشرع برتبة وزير بعد أن أحيل للتقاعد. وبدأ من ٢٠٠٧ كان مسؤولاً
عن العلاقات اللبنانية السورية.

استدعي في آذار/مارس ٢٠١١ ليكون مستشاراً أمنياً لبشار الأسد وعضواً في «اللجنة
الأمنية المصغرة» التي وضعت خطة النظام الأولى لقمع الثورة في ٢٣ آذار/مارس ٢٠١١،
وفي أيار/مايو ٢٠١١ وضع اسمه على لائحة العقوبات من قبل الاتحاد الأوروبي لدوره في
قمع المتظاهرين السلميين في الثورة السورية. توفي في ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠١٥ بعد صراع
مع مرض السرطان. انظر: سيل، الأسد، م.س، ص ٦٩٧. وخالد سميسم، «اللواء محمد
ناصر خير بك ورحيل ثعلب النظام السوري»، صحيفة العرب (لندن)، العدد ٩٩٦٩،
تاريخ ٥ تموز/يوليو ٢٠١٥.

(٣) ولد هشام بختيار عام ١٩٤١ في دمشق، لعائلة يقال إنها تنحدر من أصول
إيرانية، ويبدو أن هذا مجرد استنتاج من كنيته التي لا توجد إلا في الفارسية. تشير بعض
المصادر إلى أنه مسلم سني من عائلة شيعية تسنتت مع الزمن، في حين تشير أخرى إلى أنه
شيعي أو عاد إلى أصله الشيعي. بدأ عمله ضابطاً في المخابرات الجوية، ثم انتقل إلى
المخابرات العسكرية ورأس فرع فلسطين الأسوأ سمعة في هذا الجهاز حتى عام ٢٠٠١،
حيث عين رئيساً لجهاز أمن الدولة (المخابرات العامة) حتى حزيران/يونيو ٢٠٠٥ ليصبح
رئيساً لمكتب الأمن القومي لحزب البعث. قتل في انفجار خلية الأزمة التي كانت تدير
عملية قمع الثورة السورية، والتي كان يرأسها بنفسه في دمشق في ١٨ حزيران/يونيو ٢٠١٢.
وهو أحد القادة المتهمين بالضلوع في عملية اغتيال الحريري، أدرج في لائحة العقوبات
الأمريكية عام ٢٠٠٦ «لإسهامه الكبير في دعم الحكومة السورية للمنظمات الإرهابية»،
انظر: هشام بختيار، الجزيرة نت، ٢ آذار/مارس ٢٠١٥، على الوصلة:

< [http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons/2015/3/2/
%D9%87%D8%B4%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D8%AE%D8%AA%D9%8A-
D8%A7%D8%B1](http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons/2015/3/2/%D9%87%D8%B4%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D8%AE%D8%AA%D9%8A%D8%A7%D8%B1)>.

كارولين عاكوم، «اللواء هشام بختيار: رجل إيران في سورية»، صحيفة الشرق
الأوسط، ٢١ تموز/يوليو ٢٠١٢. انظر الوصلة:

< [http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=12289&arti-
cle=687394#.WTx_HOUgPIV](http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=12289&article=687394#.WTx_HOUgPIV)>.

(٤) ولد محمد منصوره في العام (١٩٥٠) والده الشيخ أحمد منصوره الذي يعتبر
أحد الرموز الدينية والاجتماعية لعشيرة «القراحلة» (عشيرة آل الأسد، أو فخذ منها) في
منطقة ريف جبلة في قرية «عين قبيّة». عمل رئيساً لفرع المخابرات العسكرية في منطقة =

الدور التفصيلي لكل واحد من هؤلاء لازال غير واضح بشكل كاف حتى الآن.

كان ناصيف خيربك - كما قال عنه باتريك سيل - «واحدًا من أهم مستشاري الأسد في شؤون الشيعة سواء في لبنان أو في إيران. وكان مقرباً من السيد موسى الصدر والقادة الإيرانيين مثل صادق قطب زادة، وحسين الطباطبائي وكان غالباً ما يسافر من دمشق إلى بون وسويسرا اللتين كانتا قطبي الشبكات الإيرانية في الغرب»^(٥). وهو فعلياً مهندس العلاقات السورية الإيرانية على طول المحور الشيعي من طهران إلى بيروت عبر دمشق^(٦). ونسج ناصيف لأجل ذلك علاقات وثيقة مع سياسيين شيعة لبنانيين وعراقيين وأكراد وإيرانيين في إطار هذا المحور، بالإضافة إلى رجال الدين

= الجزيرة السورية (مركزه في مدينة القامشلي) منذ نهاية السبعينيات، وحتى نقله إلى الفرع ٢٣٥ (فرع فلسطين) بدمشق عام ٢٠٠٣ رئيساً للفرع وخلفاً للواء مصطفى التاجر. خطورة الملفات التي أنيطت به المسؤولية عنها، وبشكل خاص النفط، الأكراد، القبائل العربية، سمحت له أن يكون «الحاكم المطلق» في الجزيرة السورية. وفي ١١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥ عينه الأسد الابن رئيساً لشعبة الأمن السياسي في وزارة الداخلية خلفاً للواء غازي كنعان الذي أصبح وزيراً للداخلية في حكومة عبد الغني العطري، وفي ٢٠١١ غادر منصبه ليعين مستشاراً أمنياً لخلية الأزمة التابعة للأمن القومي. قتل منصور في حزيران/يونيو ٢٠١٦، ولا تزال ظروف مقتله غامضة. حول السيرة الذاتية لمنصورة انظر: عدنان علي، «أنباء مقتل محمد منصور... قصة أحد رموز نظام الأسد»، صحيفة العربي الجديد (لندن)، تاريخ ١٩ حزيران/يونيو ٢٠١٦. والمجلس الوطني للحقيقة والعدالة والمصالحة في سورية، «بروفيل سياسي - أممي للواء محمد منصور» (تقرير خاص بمناسبة تعيينه رئيساً لشعبة الأمن السياسي في سورية)، موقع الحوار المتمدن - العدد: ١٠٨٤ - ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، على الصلة:

<<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=30163>>.

(٥) انظر: سيل، الأسد، م.س، ص ٦٩٥.

(٦) انظر: زناد حيدر، «رحيل رجل أمن سورية الأكبر محمد ناصيف «أبو وائل»»،

صحيفة السفير (بيروت)، ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠١٥.

الشيعية، «ويقال إن قائد الثورة الإسلامية في إيران آية الله الخميني كان يقدره شخصياً»^(٧).

وفي عهد الأسد الابن ظل اللاعب الرئيسي في التخطيط الاستراتيجي للعلاقات مع إيران حتى عام ٢٠٠٥، حيث كان يشغل منصب رئيس جهاز المخابرات العامة (أمن الدولة) التي أوكلت إليها مهمة وأد ربيع دمشق وملاحقة النشاط السياسي، وأنجز ناصيف خيربك المهمة بشكل مباشر وشخصي. وفي هذا العام (٢٠٠٥) عندما وقعت حادثة اغتيال الحريري ويشته بدور ما له في العملية. وعندما عين ناصيف خيربك معاوناً لنائب رئيس الجمهورية برتبة وزير أثار ذلك قلقاً للأطراف الإقليمية والدولية بأنه يمكن أن يؤدي ذلك إلى إضعاف الدولة بسبب علاقته القوية مع إيران؛ إذ نظر إليه على أنه من أركان النظام المعنية بشراكة استثنائية مع إيران مما يزيد المخاوف في الداخل والخارج من رغبة النظام في استيعاب أجندة إيرانية توسعية^(٨). ولاحقاً جمّدت الولايات المتحدة الأمريكية أمواله بسبب دوره في لبنان، ودعمه للإرهاب الدولي، والسعي لامتلاك أسلحة دمار شامل، وتقويض الجهود المبذولة في العراق^(٩).

(٧) المصدر نفسه.

(٨) انظر الوثيقة التي سربها موقع ويكيليكس، برقية السفارة الأمريكية في دمشق، رقم 07 DAMASCUS269_a، ١٥ آذار/مارس ٢٠٠٧، بعنوان:

“Treasury team’s Damascus consultations on financial sanctions”, see the link:

<https://wikileaks.org/plusd/cables/07DAMASCUS269_a.html>.

OFAC Action/10/2008 1, see the link:

(٩)

<<https://www.treasury.gov/resource-center/sanctions/OFAC-Enforcement/pages/20080110.aspx>>

Ian Black, “Six Syrians who helped Bashar al-Assad keep iron grip after father’s death”, *The Guardian*, 28 April 2011. See the link:

<<https://www.theguardian.com/world/2011/apr/28/syria-bashar-assad-regime-members>>.

أما الجنرال هشام بختيار فيعتبر «رجل إيران في سورية»، خصوصاً في عهد بشار الأسد، وإليه يعود الدور الأكبر في إدارة عملية التشييع، وإدخال الشيعة والمتشيعين السوريين الموالين للنظام في مراكز النفوذ في وزارات الحكومة ومديرياتها العامة، بشكل خاص في وزارة التعليم ووزارة الأوقاف، كما سنوضح بعد قليل. وفي الفترة التي كان فيها بختيار رئيساً لجهاز أمن الدولة، كان الجنرال محمد ناصيف خير بك نائباً له، وهذا يعني أن إدارة الملف الإيراني والشيوعي برمته كانت تدار من قبل مخابرات أمن الدولة بين نائب رئيسها مهندس العلاقات مع إيران، ورئيسه راعي النشاط الإيراني التبشيري في سورية.

في حين كان الجنرال محمد منصور - الرجل الذي يعرف بأنه «الحاكم المطلق» على منطقة الجزيرة السورية - يسيطر أمنياً على المنطقة التي تضم الممرات الرئيسية نحو العراق، والتي تضم في إطار جغرافيتها القبائل والنفط، وبالتالي فإن من المؤكد أن عملية التشييع في تلك المناطق القبلية - التي تم بحثها في الفصول السابقة - على امتداد الممرات السورية العراقية تمت تحت سلطته إن لم تكن بإشرافه المباشر، وغني عن البيان أن جميع ذلك كان يتم بالتنسيق مع السفارة الإيرانية بدمشق.

إن إدارة عملية مثل التشييع في سورية تتطلب أن يكون لقادة الأجهزة الأمنية أيضاً رجالهم ممن يدعمون هذا التوجه - بغض النظر عن دوافعه -، ومن البديهي أن المرشحين لذلك هم أولئك المنحدرون من أصل شيعي أو متشيعون علويون أو متشيعون من الطوائف الأخرى في الواقع تمت هندسة الأجهزة الأمنية بشكل خاص أمن الدولة والأمن السياسي والأمن الداخلي (بشكل خاص الهجرة والجوازات) لتلائم متطلبات هذه العملية، وقد رأينا في

الفصلين الثالث والرابع دور هذه الأجهزة في تقديم التسهيلات غير العادية للمبشرين وإنشاء مؤسساتهم من جهة، وفي مواجهة أي شكل من أشكال الاعتراض على ذلك من قبل السكان من جهة أخرى.

ثانياً: الجيش

قيادة الجيش السوري^(١٠) الأساسية احتكرت للضباط العلويين عموماً - وهذا مرتبط بتأسيس النظام وإيجاد رابطة عصبية تمكن استحواد السلطة من احتلال الدولة من داخلها إلى أجل غير مسمى -^(١١) وللضباط الأشد ولاء لرأس النظام، ولـ«الصدفة» أن معظم هؤلاء أقارب للرئيس، ومن داعمي «عودة الفرع إلى أصله»، وهذا لضمان عدم وجود «أية قوة قادرة على تهديد السلطة الحاكمة»^(١٢) داخل الجيش. والمقصود بقيادة الجيش هم الرتب الأعلى (العماد أول، العماد، اللواء، العميد) أو ما يعرف

(١٠) القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة حسب الدستور هو رئيس الجمهورية. ويتألف الجيش من «القوات البرية» و«القوات البحرية» و«القوات الجوية» و«الحرس الجمهوري»، و«القوات الخاصة»، (أضيف إليه في ظل مواجهة الثورة والفصائل المسلحة «قوات الدفاع الوطني» التي كانت قبل تنظيمها تحت اسم «قوات رديفة» تعرف بـ«الشبيحة»). يتألف الجيش بشكل أساسي من فيالق التي تعتبر أكبر أقسام الجيش، وتحت كل فيلق يوجد العديد من الفرق، وتحت الفرق الأفواج، وينقسم كل فوج إلى ألوية عدة ويضم الجيش السوري ٣ فيالق، الأول قيادته في دمشق، والثاني قيادته في الزبداني، والثالث قيادته في حلب، بالإضافة إلى ١١ فرقة عسكرية، منها الفرقة الرابعة (الحرس الجمهوري)، وهي من جهة أفضل وحدات الجيش تدريباً وتسليحاً، ومن جهة ثانية هي أشد الفرق العسكرية ولاء للرئيس، وقد ساهمت بشكل فعال في قمع المظاهرات والهجوم العسكري على المدن في اللاذقية ودمشق ودرعا بعد اندلاع الثورة في آذار/مارس ٢٠١١.

(١١) انظر سورا، سورية، م.س، ص ٣٤.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

بـ«الضباط الأمراء»، وكلما ارتفعت الرتبة كثرت نسبة العلويين ونقصت نسب المكونات الأخرى.

عقد النظام اتفاقية دفاع مشترك مع إيران في ١٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٦، لكن هذه الاتفاقية التي عقدت في ظل مخاوف من الإيرانيين وفي ظل قلق النظام المتزايد من استهدافه بسبب اغتيال الحريري، تتيح للضباط الإيرانيين (من الجيش أو من الحرس الثوري) التنسيق والتخطيط والتدريب، وهذا بدوره يتطلب أن يتاح للعناصر العلوية في الجيش، القريبة من الخط الإيراني (تيار عودة الفرع إلى أصله) أو للشعبة ليلعبوا دوراً في تنفيذ الاتفاقية، وبما أن جزءاً من الاتفاقية ذو طابع أمني بالضرورة فجهاز الأمن العسكري سيضطلع بهذا الدور الرئيس، وهو أمر يضع علامة استفهام عن التغييرات التي يمكن أن تكون حدثت في المراكز القيادية لهذا الجهاز بعد الاتفاقية.

غير أنه قبل اتفاقية الدفاع المشترك هذه كانت هنالك اتفاقية تعاون عسكري، وجزء من هذا التعاون يتعلق بتطوير التسليح بشكل خاص في القوات الجوية وتحديداً في صناعة الصواريخ البالستية، وفي تطوير الأسلحة وبشكل خاص الكيميائية والبيولوجية من خلال مركز البحوث العلمية المخصص لذلك^(١٣)، ويلعب مركز جمرايا (أنشأه حافظ الأسد عام ١٩٧١، يقع خلف جبل قاسيون) دوراً مهماً في صنع الترسانة الكيميائية والصاروخية، وفي توصيل المساعدات العسكرية النوعية إلى حزب الله.

(١٣) انظر: فراس طلاس، «الصندوق الأسود للنظام السوري: ندوة حوارية»، حوارات سورية، تاريخ ١٣ مايو/أيار ٢٠١٧ على الوصلة:

<<https://www.youtube.com/watch?v=CnYoepl56pY>>.

«وفق الاستخبارات الغربية، يتولى [مركز جمرايا] تطوير برامج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية السورية. ولطالما كان على لائحة الأهداف الإسرائيلية. ففي ٢٠١٠، أعلن جنرال إسرائيلي أن المركز سيدمر، إذا واصل مد «حزب الله» و«حماس» بالسلاح»^(١٤). وفي عام ١٩٩٢ «أشارت وزارة الدفاع الأميركية إلى أن نظام الأسد باشر تصنيع قنابل محملة بغاز «VX» الذي يشل الأعصاب في موقع تحت الأرض في المركز هذا»^(١٥). وسعى المركز إلى حيازة تكنولوجيا أوروبية مزدوجة الاستخدام تعزز برنامج الأسلحة الكيماوية السوري، واستطاع الأسد الأب في بلوغ هدفه، ودعم المركز مالياً لشراء معدات من منظمة اليونيسكو، وأرسل مهندسيه للتدرب في مكتب المركز الوطني (الفرنسي) للبحوث العلمية. وحتى مطلع التسعينيات، كانت الحكومة الفرنسية تشجع شركات التكنولوجيا الفرنسية على التعامل مع جمرايا.

كما أن الشركات الأوروبية لم تتقصّ سبل استخدام خبراتها «الحساسة»، وسعت إلى جني الأرباح، وفي منتصف الثمانينيات مدت شركة «شوت غلاسفيركي» الألمانية الغربية المركز بأدوات زجاجية عالية المقاومة في إطار مشروع «زجاجي» سماه السوريون «بوروسيليكايت غلاس بروجيكت». لكن المشروع هذا كان في الواقع مشروع تصنيع غاز السارين. وفي ١٩٩٢، كشفت أوروبا أنشطة المركز العسكرية، ولكن، بعد فوات الأوان وتخزين نظام الأسد غاز السارين وغاز «VX»^(١٦).

(١٤) ديفيد كينير، «قصة مركز البحوث العلمية في جمرايا»، صحيفة الحياة، ٧ أيار/مايو ٢٠١٣ (المقال مترجم عن مجلة فورين بوليسي الأمريكية التي نشرته في ٦ أيار/مايو ٢٠١٣).

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه.

تعرض المركز للقصف الإسرائيلي مراراً بدءاً من عام ٢٠١٣، وفرضت الولايات المتحدة عقوبات على ٢٧١ موظفاً من العاملين فيه^(١٧)، ولا تتوفر معلومات دقيقة حول تركيبة القيادة الأمنية الإدارية لمركز البحوث وفروعه ومدى ارتباطها بالخط الشيوعي نظراً إلى أن المعلومات التي تتعلق بذلك شديدة السرية، والمركز مرتبط مباشرة بالقصر الرئاسي. ونظراً للدور الخطير الذي يلعبه هذا المركز وعلاقته بالرئاسة فمن المحتمل أن تكون الإدارة الأمنية المعروفة بشدتها وسرية عملها المطلق تقوم على الانتماء الطائفي العلوي والولاء المطلق للرئيس، فمدير الأمن للمركز هو العميد عبد الحميد سليمان ضابط علوي عُيِّن في ٢٠٠٥ واغتيل لاحقاً^(١٨). وحسب موظف منشق فقد كان في المركز ضباط مهمتهم الإشراف على نقل وتخزين المواد الكيميائية مثل العميد غسان عباس (علوي)، والعميد يوسف عجيب (علوي) (الذي صار مدير مكتب الأمن المركزي) والعميد علي ونوس (علوي)، والذين كانوا مسؤولين عن تخزين ونقل وحراسة وأمن هذه المنشآت الكيميائية^(١٩).

(١٧) نشرت وزارة الخزانة على موقعها الرسمي في ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠١٧ لائحة بأسماء هؤلاء الموظفين، وقالت بأن «بعض الأشخاص المدرجين على القائمة السوداء كانوا قد عملوا في برامج الأسلحة الكيميائية السورية لأكثر من خمس سنوات». انظر موقع وزارة الخزانة على الرصلة:

< <https://www.treasury.gov/resource-center/sanctions/OFAC-Enforcement/Pages/20170424.aspx> >.

(١٨) اغتيل في منطقة مساكن برزة في مدينة دمشق في آب/أغسطس ٢٠١٢.

(١٩) انظر: «موظف منشق عمل في مركز البحوث: العاملون والعلماء في مركز البحوث هم أداة يقومون بتصنيع وعمل المطلوب منهم»، أخبار الآن، تاريخ ١٧ حزيران/يونيو ٢٠١٥. على الرصلة:

< <http://www.akhbaralaan.net/news/arab-world/2015/6/17/former-employees-said-research-center-workers-and-scientists-tool-are-required-manufacture-work> >.

ثالثاً: الوزارات والهيئات الحكومية

تمكّن الإيرانيون وبمساندة سياسية وأمنية (عبر قادة أجهزة الأمن وعلى رأسهم اللواء هشام بختيار) من إيصال شيعة أو متشيعين سوريين موالين لهم إلى مواقع متقدّمة في الوزارات والأجهزة الحكومية الرئيسية، وبشكل خاص في التربية والتعليم والأوقاف والاقتصاد والصناعة والتجارة والإعلام بالإضافة إلى الخارجية.

وفي وزارة التعليم العالي مثلاً تمّ تعيين هاني مرتضى؟ (٢٠)

(٢٠) ولد هاني مرتضى في حي الأمين في عام ١٩٣٩، وتخرج من المدرسة المحسنية التي كان قد أنشأها الشيخ محسن الأمين الذي شاركه والده في تشكيل أول لجنة تعنى بإطلاق حملة التبرع لمشاريع مقام السيدة زينب حصل على درجة الإجازة في الطب من جامعة دمشق، وتخصص في كندا عام ١٩٧١ وحصل على شهادة البورد الأمريكي عام ١٩٧٢. وأنشأ «مجمع السيدة زينب للمعلومات والأبحاث» الذي افتتح سنة ١٩٩٥، وصار لاحقاً أحد مراكز التشيع.

ويذكر مرتضى في سيرته أنه بدأت ترسخ في قلبه «صورة المقام الروحية» كلما شهد والده «مسكوناً بفكرة المقام الشريف وتلبية حاجاته الضرورية»، وأنه طالما تطلع «إلى تنظيم شؤون المقام وتنميته»، وأنه تولي الإشراف على المقام بصورة رسمية عام ١٩٧٥م ليعمل «على تحقيق غاياته السامية مشرفاً ومتولياً»، وأنه على الرغم من مشاغله فإن المقام الشريف بقي مدار اهتمامه الأكبر والتزاماته الدائمة، وحرص على أن يجعل «من المقام صرحاً من المؤسسات التي تعزز أو اصر العلاقة القائمة بين تاريخ الحوراء زينب ورسالتها المتفاعلة بقضايا الأمة وأمانيتها». ويضيف مرتضى في سيرته إن «المشروع الحيوي والهام الذي حرصت عليه لجنة الإشراف هو «مجمع السيدة زينب (ع) للمعلومات والأبحاث» سنة ١٩٩٥»، والذي تم إنشاؤه «في الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن الشريف، ويضمّ قاعة ومستودعات.. وقاعة للباحثين ومستودعاً كبيراً للكتب ومنتدى للباحثين، وفيه مدرج حديث ومنظم، و[حيث] سيكون هذا الصرح العظيم المرجع المهم لجميع العلماء والمفكرين ويجمع التراث الفكري والديني والتاريخي (المخطوط أو المطبوع) لآل البيت عموماً وللسيدة زينب خصوصاً باللغة العربية وباللغات الأخرى». وحيث «سيكون [أيضاً] لهذا المجمع الحضاري الدور المستقبلي الكبير والفعال في دعم مسيرة وفنائ آل البيت».

(من شيعة دمشق، وهو كذلك متولي مقام السيدة زينب) رئيساً لجامعة دمشق عام ٢٠٠٠، ثم وزيراً للتعليم العالي في ٢٠٠٣ والذي كُرِّم بشكل خاص من إيران لدوره في «التعاون الثقافي بين البلدين»؟^(٢١).

وسعى مرتضى لتعيين مساعدين من الشيعة في مفاصل مهمة في جامعة دمشق في أثناء رئاسته لها، مثل الدكتور عبد الرزاق شيخ عيسى (مواليد دمشق ١٩٥٥)، الذي كان قد عينه في منصب أمين جامعة دمشق، وعندما صار مرتضى وزيراً رشحه لمنصب معاون الوزير، وعين مرتضى بدلاً منه في منصب أمين جامعة دمشق الشيعي المتطرف عباس صندوق. ثم صار شيخ عيسى وزيراً في حكومة عادل سفر في آذار/مارس ٢٠١١.

في وزارة الأوقاف تم تعيين محمد عبد الستار السيد مدير الأوقاف في طرطوس عام ١٩٨٥، ثم صار معاوناً للوزير عام ٢٠٠٢، ثم وزيراً للأوقاف في حكومة محمد ناجي عطري الثانية

= وذكر مرتضى أنه في زيارته لإيران «ضمن الوفد الحكومي الرسمي الذي ترأسته الدكتورة صالحة سنقر وزيرة التعليم العالي» آنذاك طرح «هناك مع المسؤولين الإيرانيين إمكانية الدعم المادي والمعنوي لوزارتي الثقافة والتعليم للمساهمة في إنجاز وإكمال مشروع «مجمع السيدة زينب (ع) للمعلومات والأبحاث»». انظر: هاني مرتضى، موسوعة المعرفة على الشبكة العالمية، على الوصلة:

< http://www.marefa.org/%D9%87%D8%A7%D9%86%D9%8A_%D9%85%D8%B1%D8%AA%D8%B6%D9%89 >.

«متولي المقام السيد الدكتور هاني مرتضى»، موقع السيدة زينب الكبرى في دمشق، على الوصلة:

< <http://zainabshrine-damas.org/cms/viewPage.php?id=128> >.

(٢١) المصدر نفسه.

بدءاً من عام ٢٠٠٣^(٢٢). والسيد نشر آراءه مرات عدة في مجلات شيعية متطرفة (مثل مجلة المنبر التي تصدرها «هيئة خدام المهدي» التي يشرف عليها الكويتي المعروف بتطرفه ياسر الحبيب) يتبنى فيها عقائد شيعية ومن غير الواضح ما إذا كان السيد قد تشيع بالفعل أم كان يتخذ ذلك وسيلة للوصول لمناصب حكومية رفيعة، وأياً ما يكن فالسيد معروف بكونه شخصية مقربة من الشيعة وتيار عودة الفرع إلى أصله العلوي. وعَيَّن السيد أنور النابلسي مديراً لأوقاف درعا المعروف بدعمه لنشاط التبشير الشيعي، والذي كان على صلة وثيقة بالمرجع الشيعي اللبناني حسين فضل الله والشيخ الشيعي الدمشقي عبد الله نظام، حيث يتلقى الدعم منهما.

كما عيّن السيد أيضاً الشيخ عبد الله نظام، أحد أبرز مبشري التشيع السوريين مستشاراً للشؤون الدينية، وصار نظام مشرفاً على الثانويات الدينية الشيعية التي بدأ وزير الأوقاف بإنشائها في المدن السورية (تتبع وزارة الأوقاف والتربية وزارة التربية)^(٢٣)، في الوقت

(٢٢) انظر سيرة ذاتية مختصرة للسيد وردت في المرسوم التشريعي رقم ٢١٠ الخاص بتشكيل حكومة رياض حجاب والصادر في ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠١٢.

(٢٣) أنشأ وزير الأوقاف ثانويتين دينيتين (شرعيتين) شيعيتين في نبل في ريف حلب، هما «ثانوية أهل البيت للبنات»، و«ثانوية أهل البيت للذكور»، تابعتين لوزارة الأوقاف، وأنشأ قرابة عشر ثانويات شرعية تتبع الحوزات في اللاذقية وإدلب والرقه ودمشق وغيرها. انظر: «قائمة بأسماء الثانويات الشرعية» في الموقع الرسمي لوزارة الأوقاف السورية، على الوصلة:

< [٢٢٠](http://mow.gov.sy/%D9%82%D8%A7%D8%A6%D9%85%D8%A9-%D8%A8%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84-%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%B3%D9%85-5/> .</p>
</div>
<div data-bbox=)

الذي كانت عدد من الثانويات الشرعية السنية تغلق لأسباب مختلفة.

وفي ٢٠٠٤ عين مهدي دخل الله (شيعي دمشقي) وزيراً للإعلام^(٢٤)، وهو أول وزير شيعي يتولى هذا المنصب.

رابعاً: الاقتصاد والاستثمار

يعتبر رجل الأعمال صائب نحاس الشخصية الشيعية الأبرز في هذا المجال، والمعروف بصلاته العميقة مع إيران والعراق، حيث كان على علاقة خاصة بموسى الصدر وحافظ الأسد منذ عام ١٩٧٢، وكان الأسد قد طلب منه نقل تحذير للصدر من السفر إلى ليبيا، لكن الصدر لم يأخذ بالتحذير واختفى منذ ذلك الحين. كان نحاس مقرباً من رجال الاستخبارات، بشكل خاص محمد ناصيف خير بك وهشام بختيار. ولعب دوراً رئيسياً في فتح قنوات تواصل بين النظام السوري والحكومة الفرنسية بعيد مقتل رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري عام ٢٠٠٥، واستمرت تلك المساعي في التوفيق في بداية عهد الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، الذي قلّد صائب النحاس وسام جوقة الشرف من رتبة فارس على دوره في تطوير العلاقات مع نظام دمشق^(٢٥).

(٢٤) مهدي دخل الله من مواليد دمشق ١٩٤٧، حاصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد، كان مدير عام دار البعث في الفترة ٢٠٠١ - ٢٠٠٤، ثم صار وزيراً للإعلام في الفترة ٢٠٠٤ - ٢٠٠٦، ثم رئيس مركز دراسات القيادة القطرية في الفترة ٢٠٠٦ - ٢٠٠٩، وصار سفيراً بين عامي ٢٠٠٩ و ٢٠١٢، وأصبح عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث في ٢٠١٧. انظر تعريف يدخل الله في موقع حزب البعث العربي الاشتراكي (السوري) على الوصلة: <http://baathparty.sy/site/arabic/index.php?node=5555&nid=16489&First=0&Last=14&CurrentPage=0>.

(٢٥) معتصم الطويل، «النظام السوري يرفع قرار الحجز الوهمي عن صائب نحاس»، نشرة كلنا شركاء، ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، انظر الوصلة:

ينشط النحاس في مجالات عديدة في الصناعة والتجارة والإنشاءات والسياحة وغيرها، والسياحة الدينية الشيعية بشكل خاص، فهو يملك فندق «السفير - دمشق» أبرز فنادق السيدة زينب، والذي يمثل مركزاً للدعم اللوجستي لقُدوم وافدين من زوار شيعة إيرانيين وعراقيين إلى جنوب العاصمة دمشق، فمن بين شركات النحاس السياحية «شركة السيدة زينب للسفر والزيارات» و«شركة نحاس للسفر والسياحة»، و«مجموعة هولدينغ نحاس» التي كانت قد أدرجت اسم «إيران إير» ضمن «حلفائها الاستراتيجيين»^(٢٦). وليس غريباً أن يصبح نحاس أحد الضالعين في مشروع التغيير الديمغرافي الإيراني^(٢٧).

كذلك شجعت الظروف الجديدة في عهد بشار الأسد بعد ٢٠٠٣ الإيرانيين للدخول إلى سورية وتوسيع الاستثمار فيها لا بغرض الربح وتحقيق عائدات مرتفعة وحسب، بل بغرض أن يشكلوا قوة مؤثرة ويسهموا في توسيع النفوذ الإيراني وتمكينه في سورية، وهكذا تدفق رجال أعمال إيرانيون وعراقيون في قطاعات رئيسية: الصناعة والإنشاءات والسياحة والعقارات والتكنولوجيا

< <http://www.all4syria.info/Archive/247213> > .

(٢٦) انظر: «صائب نحاس... أحد خفايا المال والسياسة في «سورية الأسد»»، موقع اقتصاد: مال وأعمال السوريين، التابع لصحيفة زمان الوصل، تاريخ ٨ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، على الوصلة:

< <http://www.eqtsad.net/read/5920?url=news-5920.html> > .

(٢٧) مع اندلاع الثورة السورية في آذار/مارس ٢٠١١ عمل صائب نحاس على دعم النظام وتقديم المساعدة له بطرق عديدة، «وأفاد مصدر في العاصمة دمشق لـ«كلنا شركاء» إلى ضلوع صائب نحاس وغيره من رجال الأعمال الدمشقيين الشيعة في شراء عقارات ومباني في منطقة الرازي وتحديدًا في المنطقة الواقعة خلف مبنى السفارة الإيرانية، ورجح المصدر تسجيل بعض تلك العقارات باسم زوج ابنته الدمشقي أحد أفراد عائلة الزيات». انظر: المصدر السابق نفسه.

الرقمية، حيث ذلت لهم الصعاب ومنحوا تسهيلات استثنائية، وأتيحت لهم الفرصة بالدخول في المشاريع ذات العائد المرتفع، وفي المشاريع المتعلقة بالسيادة الوطنية.

وعلى سبيل المثال سُمح للحكومة الإيرانية في عام ٢٠٠٥ التقدم إلى مناقصة الهويات الذكية، بقرض طويل الأمد قيمته ٤٠ مليون دولار، تستلم إيران بموجبه مشروع البصمات العشرية، وأن يعتمد إصدار الهويات على كوادرمعدات إيرانية، ورغم أن المشروع لم يتحقق حتى اليوم، إلا أنه في حال تحقيقه سيسمح لها بالولوج إلى قاعدة معلومات السجل المدني السوري، وهو ما سيجعلها قادرة على الحصول على المعلومات السورية «اليومترية» وبالتالي التعرف على أي سوري وجمع المعلومات عنه بأي لحظة، وربما يجعلها قادرة على إقحام عائلات أجنبية (عراقية أو إيرانية أو لبنانية .. إلخ) شيعية في الخانات السورية^(٢٨).

(٢٨) حسب مصدر لصحيفة زمان الوصل السورية الإلكترونية، تمكن المهندسون المعلوماتيون من تأخير مشروع تسليم السجل المدني السوري إلى إيران حتى عام ٢٠١١ من خلال وضع العقبات الشرطية بوجه الشركة الإيرانية، ولكن في العام ٢٠١٢ دخل رامي مخلوف (ابن خالة بشار الأسد، وواجهة العائلة المالية) على المشروع شريكاً، وضغط باتجاه توقيع عقد المشروع والبدء به، فلجأ المهندسون إلى الإغراق بالتفاصيل التقنية وتشكيل لجان متابعة وتحديد ميزات وشروط بغرض المماطلة. وفي ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣ أقر «مجلس الشعب» ميزانية لبطاقات شخصية حديثة بميزانية ٢٨ مليون يورو، وحسب تصريح معاون وزير الداخلية للأحوال المدنية فإن «المزايا الناجمة عن هذا المشروع هي تهيئة شروط الإقلاع بمشروع الحكومة الإلكترونية وإدخال البصمة الإلكترونية على البطاقة، ما سيجنب خزانة الدولة دفع عشرة ملايين يورو كلفة تنفيذ مشروع البصمة بشكل منفرد». لكن هذا المشروع لم ينفذ بعد، ولم يصرح عن الشركة وجنسياتها التي ستكون مسؤولة عن التنفيذ. انظر: «الحكومة السورية تقرر تغيير بطاقات الهوية»، صحيفة الحياة، ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣. على الصلة:

= < <http://www.alhayat.com/Details/575406> >.

وفي الثامن من شباط/فبراير ٢٠٠٧ بدأت الشركة الأولى في سورية لصناعة السيارات (الشركة السورية الايرانية لتجميع وتصنيع السيارات - SIAMCO) بالعمل في مصنعها في مدينة عدرا الصناعية بريف دمشق بإنتاج ماركة «شام»، الشركة هي فرع للشركة المصنعة الأم «آيكو» الإيرانية التابعة لمجموعة «إيران خودرو» لصناعة السيارات. ثم في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ افتتحت الشركة السورية الإيرانية الدولية للسيارات سايبا سورية (سيفيكو إنترناشونال) المصنع الثاني للسيارات - وهي فرع عن شركة سايبا الإيرانية، سجلت في سورية ٢٠٠٥ كشركة سورية مغفلة مساهمة - وأعلن عن إنتاج أول سيارة لها.

في ٢٤ من أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، اتفق الطرفان على إنشاء شركات مشتركة في مجالات استثمارية مختلفة؛ وخاصة في قطاع المقاولات، ثم عقدت اللجنة المشتركة للتعاون الاقتصادي والتجاري بين البلدين جلستها الأولى نهاية النصف الأول من عام ١٩٩٦^(٢٩)، ووفقاً للتقرير السنوي الخامس (٢٠١٠) لهيئة الاستثمار السورية، منذ عام ١٩٩١ إلى عام ٢٠٠٥، كان لإيران أربعة مشروعات في سورية بتكلفة استثمارية بلغت أكثر من خمسة مليارات ليرة سورية (١١,١ مليار دولار)؛ وأما خلال الفترة الممتدة من عام ٢٠٠٦ إلى عام ٢٠١٠ فاستثمرت إيران في سورية في سبعة مشروعات بتكلفة استثمارية بلغت أكثر من ٢٠ مليار ليرة سورية

= «مصدر خاص: التغيير الديموغرافي مشروع بدأه حافظ الأسد ومهندسون حالوا دون سيطرة إيران على «نفوس» سورية»، صحيفة زمان الوصل، تاريخ ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، على الوصلة:

< <https://www.zamanalwsl.net/news/63941.html> > .

(٢٩) تامر بدوي، العلاقات الاقتصادية بين إيران والنظام السوري: مؤشرات الاختلال (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات) ٢ تموز/يوليو ٢٠١٥، ص ٤. نقلاً عن: سازمان توسعه تجارت ایران، راهنمای تجارت با کشور سوریه، ٢٠٠٩، ص ١٠٧.

(٤٤,٤ مليار دولار)^(٣٠).

في عام ٢٠٠٦ صارت إيران ثالث أكبر مستثمر في سورية بعد السعودية وتركيا، وفي سبتمبر/أيلول ٢٠٠٦ أعلن مسؤولون من الدولتين عن خطط لتوسيع مشاريع إيرانية في سورية بقيمة ١٠ مليارات دولار على مدى السنوات الست الآتية^(٣١). كما صرّح مسؤولون إيرانيون بوصول قيمة الخدمات الفنية والهندسية الإيرانية في عام ٢٠١٠ إلى ٢,٢ مليار دولار أميركي، وهو العام أيضاً الذي اتفق فيه الجانبان على تأسيس بنك إيراني سوري للصادرات برأس مال مبدئي يصل إلى ٣٠ مليون دولار على أن يستحوذ الجانب الإيراني على ٦٠٪ منه^(٣٢).

إضافة إلى ذلك إنه ومنذ زمن تتمتع سورية بأهمية جيو - اقتصادية كبيرة لدى طهران؛ التي خططت لتصدير الغاز الطبيعي الإيراني إلى شرق منطقة البحر المتوسط عبر سورية، ثم إلى جنوب شرق أوروبا مستقبلاً^(٣٣). الاستثمارات - كما هو ملاحظ - مرتبطة بتحقيق الهدف الاستراتيجي لإيران التي سنرى لاحقاً كيف أنها استغلت الثورة السورية وشكلت طفرة^(٣٤).

(٣٠) انظر: «التقرير السنوي الخامس لهيئة الاستثمار السورية»، (دمشق: هيئة الاستثمار السورية)، ٢٠١٠، ص ٦٥، على الوصلة:
< <http://sia.gov.sy/userfiles/reports/SIA2010.pdf> >.

(٣١) انظر: بدوي، العلاقات الاقتصادية، م.س، ص ٩.

(٣٢) المصدر السابق نفسه.

(٣٣) ولكن مع اشتداد الحرب في سورية بعد اندلاع الثورة في ٢٠١١، تراجعت فرص مد أنبوب الغاز إلى سورية؛ الذي استمر العمل في مدّه إلى الأراضي العراقية دون توقف؛ وكان مخططاً انتهاءه وبدء تصدير إيران لغازها من خلاله بين أيار/مايو وتموز/يوليو ٢٠١٥.

انظر: المصدر السابق، ص ١١. نقلاً عن:

Hassan Hafidh And Benoit Faucon, "Iraq, Iran, Syria Sign \$10 Billion Gas-Pipeline Deal", *The Wall Street Journal*, July 25, 2011.

(٣٤) اكتسبت طهران نفوذاً اقتصادياً واسعاً ومنهجاً في سورية بشكل واضح؛ =

تذّر تلك الأحداث بمجموعها بأن المساعي الإيرانية لاختراق عمق الدولة عبر نظام الأسد بدأت تأخذ خطوات متسارعة وتنفذ إلى مؤسسات سيادية واقتصادية مختلفة بموازاة تغيير ديمغرافي، ومن المرجح أنه سيكون لها عواقب وخيمة على مستقبل سورية.

= استفادت لبنائه من كل الظروف، وساعدت العزلة الاقتصادية الدولية التي فُرضت على نظام الأسد بعد اندلاع الثورة السورية في تضخم قيمة صادراتها إلى سورية، وتتجاوز المصالح الإيرانية في سورية - كون الأخيرة سوقاً لصادراتها النفطية وغير النفطية - إلى استحواذها فيها على عدد متزايد من العقارات وتسريع الخطوات في التغيير الديمغرافي؛ فقد باتت عملياً تلك العقارات تمثل امتداداً لسيادة الدولة الإيرانية التي حثت المستثمرين ورجال الأعمال الإيرانيين لإقناعهم بفرص الاستثمار العقاري بسورية، ومطالبتها بإيهم بالذهاب إلى هناك، وفق ما ذكره موقع بيك نت الإيراني في ٢٠١٥.

وبدأت الحكومة الإيرانية وكيانات مقربة من الحرس الثوري تسابق الزمن لانتزاع عقود اقتصادية كبيرة في سورية، وتحقيق أكبر مكاسب ممكنة من دعمها لنظام بشار الأسد لصنع وقائع يصعب تغييرها تحسباً لاحتمال نهاية الحرب في البلاد. فقد جرى توقيع ٥ مذكرات تفاهم خلال زيارة رئيس الوزراء السوري عماد خميس إلى طهران يوم الثلاثاء ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠١٧، بينها رخصة للاتصالات وعقود لاستخراج الفوسفات، كما ستعطي سورية لإيران ٥ آلاف هكتار من الأراضي للزراعة وألف هكتار لإنشاء مرافئ للنفط والغاز إضافة إلى تقديم أراضٍ لتربية الماشية. ومنحت طهران الحق بتشغيل الخط الخليوي الثالث في قطاع الاتصالات، القطاع الحساس الذي سيسمح لإيران بمراقبة وثيقة للاتصالات السورية وربما إنشاء قاعدة اتصالات موازية على غرار شبكة حزب الله.

وجدير بالتنويه أن نظام الأسد يصبح مديناً مالياً بشكل متزايد لإيران، فقد فتحت طهران خطوط ائتمان لسورية بقيمة ٣,٥ مليار دولار في ٢٠١٣ وزادتها مليار دولار في ٢٠١٥ وهو ما يقول اقتصاديون إنه ساعد اقتصاد النظام على الاستمرار. ودعا رئيس الوزراء السوري في اجتماع عقده مع علي أكبر ولايتي المستشار البارز للمرشد الأعلى الإيراني علي خامنئي إلى الاستثمار في مشاريع إعادة الإعمار في سورية. انظر: بدوي، العلاقات الاقتصادية، م.س، ص ٩. ولين فرانسيس وبوزورجمهر شرف الدين، «طهران تسابق الزمن لحصد مكاسب اقتصادية في سورية»، صحيفة العرب (لندن)، ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠١٧. ومحمد عبّود، «العقارات.. سلاح إيران الأقوى في غزو العواصم العربية ديموغرافياً»، الخليج أونلاين، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٦.

خاتمة

أولاً: نتائج البحث

لقد أفضت مجموعة المعلومات المتحصّلة من المصادر الثمانية التي ذُكرت في مقدّمة الدراسة إلى جملة من المعطيات الرقمية، وبعد عدد من عمليات المقارنة أمكن التوصل إلى وضع جدول^(١) يوضح الانتشار جغرافياً وديمغرافياً في إطار تحديدات زمنية تسهّل فهم الانتشار وتفسيره حتى نهاية عام ٢٠٠٧.

يذكر هنا جملة النتائج التي يقدّمها الجدول المشار إليه، مع ملاحظة أنّ المعلومات مهما كانت دقيقة فهي في النهاية تقريبية، وسيتم اعتماد النسب المئوية في عرض النتائج والابتعاد عن الأساليب الإحصائية المتبعة في البحوث الاجتماعية لعدم ملائمتها للتطبيق هنا، ولسهولة فهم النسب المئوية البسيطة وقدرتها على تأدية الغرض العلمي في الوقت نفسه..

كما ستم مقارنة النتائج مع النتائج التي توصلت إليها دراسة

(١) انظر الجدول في الملحق (١) ص ٢٥٣ من هذا الكتاب.

مجلس الحقيقة والعدالة والمصالحة، خصوصاً فيما يتعلق بالأرقام الخاصة بالتشيع في الوسط الاجتماعي السنّي، ذلك أنّ هذه الدراسة هي الدراسة الوحيدة التي أعلنت أرقاماً تقريبية فيما يخصّ التشيع في سورية، كما سيتم الاعتماد على الأرقام التي انتهت إليها تلك الدراسة بسبب صعوبة الحصول على أرقام تقريبية واقعية فيما يخصّ التشيع في الوسط الاجتماعي العلوي والإسماعيلي، وذلك على الرغم من العلم بأنها لا تتمتع بقدر واف من المصداقية، والأرقام الواردة فيها مبالغ بها كبراً وصغراً، لكن فيما يتعلق بالعلويين والإسماعيليين لا توجد إمكانية للحصول على أرقام يُطمأن لها.

وسيعتمد في النهاية إلى شرح النتائج ومحاولة تفسيرها على ضوء المعرفة السياسية والواقعية بالمناطق الجغرافية السورية وشرائح المجتمع وتركيبها الثقافية والاجتماعية.

عدد المتشيعين ونسبتهم

حسب الجدول، فإنّ عدد المتشيعين الإجمالي في سورية في الوسط الاجتماعي السنّي وحده ضمن المجال الزمني من ١٩١٩م إلى ٢٠٠٧م هو ١٦٠٠٠ (١٥٩٣٠) شخصاً كحد أقصى، منهم ٨٠٤٠ تشيعوا في الفترة بين ١٩٩٩م - ٢٠٠٧م، أي بنسبة ٥٠٪ من مجموع المتشيعين السُنّة السوريين.

هذه النتيجة تشكّل أكثر من عشرة أضعاف الرقم الذي توصلت إليه دراسة «مجلس الحقيقة والمصالحة» عام ٢٠٠٦ عن التشيع في سورية، التي زعمت أنّ إجمالي عدد المتشيعين السُنّة في سورية لا يتجاوز ١٥٠٠ شخص!

إذا أخذ بالاعتبار الرقم الذي وصلت إليه دراسة المجلس فيما يتعلق بالمتشيعين العلويين وهو ٥٢٧٠٠ شخص، والرقم الخاص بالمتشيعين الإسماعيليين وهو ٧٤٠٠ شخص، فإنَّ إجمالي المتشيعين في سورية - فيما إذا صَحَّت أرقام دراسة المجلس - يقارب في حد أقصى ٧٥٨٧٨ شخصاً. مع ملاحظة أنَّ الرقم الخاص بمجلس الحقيقة والمصالحة هو فقط في المجال الزمني ١٩٨٥م - ٢٠٠٦م، لكن هذه الملاحظة على أهميتها بالنسبة إلى المتشيعات العلويين والمتشيعات الإسماعيليين لا تشكل فارقاً كبيراً؛ ذلك أنَّ معظم حركة التشيع في الوسط الاجتماعي العلوي بدأت بالانتشار والنمو منذ عام ١٩٧٠، أي منذ انقلاب الأسد، في حين أنَّ معظم حركة التشيع في الوسط الاجتماعي الإسماعيلي بدأت بعد الثمانينيات.

ومن الجدير بالإشارة هنا فيما يخصَّ النَّسَب التي ذكرتها دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة، ما ذكرته بأن ٣ بالمئة من التشيع الإسماعيلي كان في محافظة حلب؛ أي أنَّ ٢٢٢ شخصاً إسماعيلياً متشيعاً من هذه المحافظة التي لا يوجد فيها إسماعيليون البتة كما هو معلوم! وعلى الرغم من أنَّ هذا الرقم لا يغير كثيراً من الرقم الأصلي فيما لو تمَّ إسقاطه من الأرقام لجملة المتشيعات الإسماعيليين باعتباره غير صحيح، فعدد المتشيعين الإسماعيليين سيكون ٧١٧٨ شخصاً، إلا أنَّ مغزى هذه الإشارة هو الأثر الذي تتركه في مصداقية الأرقام التي تقدمها الدراسة، خصوصاً إذا أخذ بعين الاعتبار عدم ثبوت صحة الأرقام المعلنة والخاصة بالمتشيعين السُّنة.

وعلى هذا الأساس فإنَّ مجموع المتشيعين في سورية هو ٧٥٨٧٨، يتوزع كالتالي: نسبة المتشيعات السُّنة هي ٢١ بالمئة،

ونسبة المتشيعه الإسماعيلية هي ٩ بالمئة، ونسبة المتشيعه العلويين هي ٧٠ بالمئة؛ أي أنّ نسبة المتشيعه السُنّة تحتل الدرجة الثانية، وتمثل قرابة ثلث عدد المتشيعه العلويين، وأكثر من ضعف المتشيعين الإسماعيليين.



التوزع الجغرافي

تشير المعلومات المتوفرة - كما هي مثبتة في الجدول أدناه - إلى أنّ الجزيرة السورية بمحافظاتها الثلاث (الرقه، دير الزور، الحسكة) كان فيها أكبر نسبة تشييع في الوسط الاجتماعي السنيّ على الإطلاق في المجال الزمني ١٩٩٩ - ٢٠٠٧؛ فعدد المتشيعين في هذه المنطقة وضمن هذا المجال الزمني يصل إلى أكثر من ٦ آلاف شخص^(٢)، ممّا يعني أنّ نسبة المتشيعين من هذه المنطقة

(٢) حوالي ٦٠٨٠ شخصاً، ويزعم بعض المتشيعين الجدد أنّ تعداد المتشيعين السُنّة في منطقة الجزيرة قارب العشرة آلاف خلال عقد من الزمن، ونحن نعتقد أنّه رقم مُبالغ فيه على عادة الأقليات الدينية في تقدير حجمها. انظر: هشام آل قطيط، المتحولون، م.س، =

وحدها هو ٧٦ بالمئة من نسبة المتشيعين السُّنة الإجمالية في عهد
بشار الأسد، و٣٨ بالمئة من إجمالي عدد المتشيعين في المجال
الزمني ١٩١٩ - ٢٠٠٧.

ومن الطبيعي أن هذه النتيجة التي توصلت إليها هذه الدراسة
تناقض تماماً ما وصلت إليه دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة سنة
٢٠٠٦، والتي وصفت العدد الإجمالي الذي وصلت إليه بأنه لا
يشكل «إلا أجزاء عشرية متناهية الصغر (بضع عائلات تعد على
أصابع اليد الواحدة)»!

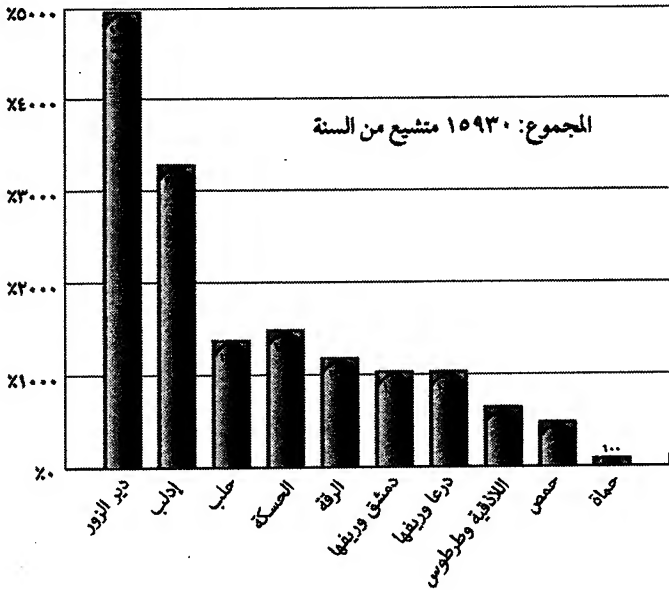
كما أن عدد المتشيعين من السُّنة في باقي المحافظات خلال
الفترة نفسها ١٩٩٩ - ٢٠٠٧ يصل إلى ١٩٦٠ شخصاً فحسب؛ أي
ما نسبته ٢٤ بالمئة من نسبة المتشيعين الإجمالية في هذه الفترة.
ومقارنة بما ورد في دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة التي قاربت
عدد المتشيعين السُّنة في هذه المناطق في المجال الزمني ١٩٨٥ -
٢٠٠٦ بـ ١٥٠٠ مواطن، في مختلف المناطق السورية باستثناء
الجزيرة والقنيطرة، فإن العدد ١٩٦٠ شخصاً الذي وصلت إليه هذه
الدراسة عن فترة ١٩٩٩ - ٢٠٠٧ يبدو متقارباً جداً، لكن مع
ملاحظة أن الرقم الذي أثبتته هذه الدراسة متعلق فقط بالسنوات
الثمانية الأخيرة، في حين أن رقم دراسة المجلس يشمل ٢١ سنة.

وقد جاءت النسب إجمالاً في المجال الزمني ١٩١٩ -
٢٠٠٧، وهي تشمل كل المتشيعين السُّنة ضمن فترات مختلفة من
١٩١٩م إلى ٢٠٠٧م كالتالي:

= مقابلة مع الدكتور عبد المجيد العلي (متشيع من دير الزور عام ١٩٩٩) على الصلة:
< <http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm> >.

المحافظة	عدد المتشيعين	النسبة المئوية	المحافظة	عدد المتشيعين	النسبة المئوية
إدلب	٣٣٠٠	٢١	درعا وريفها	١٠٥٠	٧
الحسكة	١٥٠٠	٩	دمشق وريفها	١٠٥٠	٧
حلب	١٥٩٠	١٠	دير الزور	٤٩٨٠	٣١
حمّاة	١٠٠	١	الرقّة	١٢٠٠	٧
حمص	٥٠٠	٣	اللاذقية وطرطوس	٦٦٠	٤

توزع أعداد المتشيعين السُّنة بين عامي ١٩١٩ و ٢٠٠٧



وحسب ما توصلت إليه هذه الدراسة فإنَّ أكبر نسبة تشيُّع في الوسط السني هي في محافظة دير الزور، تليها محافظة إدلب،

وتحتل الدرجة الثالثة مدينة حلب، في حين أن أصغر نسب التشيع في الوسط السنّي كانت في محافظة حماة، أقل من ١ بالمئة.

وهي نتيجة تختلف جذرياً عمّا ورد في دراسة الحقيقة والمصالحة^(٣)، بل هي معاكسة لها، فقد زعمت تلك الدراسة بأنّ أعلى نسبة تشيع في الوسط السنّي كانت في محافظة حلب (٤٦ بالمئة)، وأنّ محافظة إدلب كانت أدنى النسب (٤ بالمئة) في المحافظات، في حين أنّ دير الزور ومحافظات الجزيرة - وفقاً لدراسة المجلس - شكّلت جميعها أجزاء عشرية متناهية في الصغر، أي أقل من ١ بالمئة!

وحسب النسب التي ذكرتها دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة فيما يخصّ المتشيعات العلويين، فإنّ الأرقام تبدو كالآتي:

المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية
طرطوس	٤٤	حمص	١٤	دير الزور	٠
اللاذقية	٢٦	إدلب	٠	درعا وريفها	٠
دمشق وريفها	١٦	الحسكة	٠	الرقّة	٠
حماة	١٦	حلب	٠		

وحسب النسب أيضاً التي أوردتها دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة فيما يخصّ المتشيعات الإسماعيليين، فإنّ الأرقام تبدو كالتالي:

(٣) حسب هذه الدراسة فإنّ النسب كما يلي: محافظة حلب وريفها ٤٦ بالمئة، محافظة دمشق وريفها ٢٣ بالمئة، محافظة حمص ٢٢ بالمئة، محافظة حماة ٥ بالمئة، محافظة إدلب ٤ بالمئة.

المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية
حماة	٥١	دمشق وريفها	٢	درعا وريفها	٠
طرطوس	٤٣	إدلب	١	الرقّة	٠
اللاذقية	٢٦	حمص	٠	دير الزور	٠
حلب ^(٤)	٣	الحسكة	٠		

الانتشار الجغرافي للتشيع

أولاً: قبل عام ١٩٧٠

انتشر التشيع في ٩ قرى على الأقل في ست محافظات،
والتفصيل التالي يفصل المناطق الإدارية:

حلب (٢): الزهراء، بزاعة.

إدلب (١): زرزور.

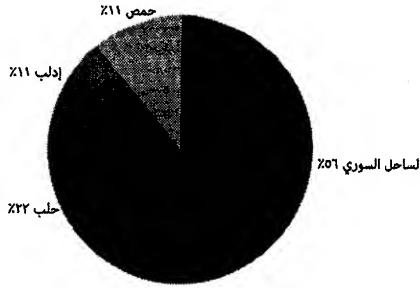
حمص (١): الرستن.

الساحل السوري (اللاذقية وطرطوس) (٥): صافيتا، الطليعي،
بشير ضهر، بيت الشيخ يونس، القرداحة.

المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية
الساحل السوري	٥٦	الجزيرة	٠
حلب	٢٢	دمشق	٠
حمص	١١	درعا	٠
إدلب	١١		

(٤) سبق وأشرنا إلى أنه لا يوجد إسماعيليون في مدينة حلب.

نسب الانتشار الجغرافي للتشيع في سورية قبل عام 1970



ثانياً: بين عامي ١٩٧٠ - ١٩٩٨

انتشر التشيع في ٧١ موقعاً جغرافياً جديداً (٦٧ قرية، و٤ أحياء) في تسع محافظات، وتجدر هنا الإشارة إلى أنَّ هنالك شكاً في أنَّ قسماً من القرى التي دخلها التشيع في ريف محافظة إدلب كان بعد هذا المجال الزمني، لكن أُدرجت هنا، فاقضى الإشارة:

دمشق وريفها (٦): دوما، التل، الضمير، ببيلا، نبيت سوا، سيدي مقداد.

حلب (٧): حي الخالدية/مدينة حلب، الليرمون، دير جمال، كفر داعل، المنصورة، خان العسل، منبج.

درعا (٣): حي المطار/مدينة درعا، قرفة، المليحة.

إدلب (١١): بنّش، معرة مصرين، حارم، كورين، عامود، خريبة، دركوش، الملند، الجانودية، الدريّة، كفريا.

دير الزور (٢): حطلة، زغير الجزيرة.

الرقعة (٢): مدينة الرقة، مزرعة حطين.

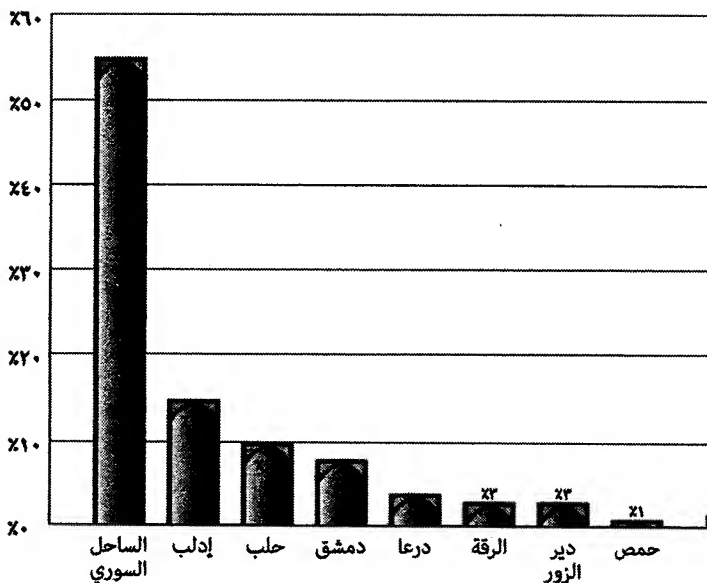
حمص (١): حي البياضة/مدينة حمص.

الساحل السوري (اللاذقية وطرطوس) (٣٩): حي الرزقانية/
مدينة اللاذقية، مدينة طرطوس، جبلة، القرداحة، تلا، الحفة،
بانياس، حلبكو، المشرفة، كرم غيزل، الدالية، حمين، حرصون،
عين التينة، الدبدابة، المقرمدة، كفرفو، أبو قبيس، الدريكيش،
الشبطلية، بكسا، تلة، مشقيتا، جبول، بيت الشيخ ديب، الطليعي،
زهر بشير، بحنين، الجبيلية، بشرائيل، الشامية، بيت الشيخ
يونس، بيت نافلة، حكر، البلاطة، أوين، بعمرة، سمت قبلة، دم
سرخو.

نسب تزايد الانتشار الجغرافي (١٩٧٠ - ١٩٩٨)

المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية
الساحل السوري	٥٥	درعا	٤
إدلب	١٥	دير الزور	٣
حلب	١٠	الرقعة	٣
دمشق	٨	حمص	١

معدّل زيادة الانتشار الجغرافي للتشيع بين عامي ١٩٧٠
و١٩٩٨ مقارنة مع معدّل ما قبل ١٩٧٠:



ثالثاً: بين عامي ١٩٩٩ - ٢٠٠٧

لا تتوفر معلومات يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بالانتشار الجغرافي في الساحل السوري في هذا المجال الزمني، باستثناء مدينة اللاذقية، ومع هذه الملاحظة، فإنّ ما يتوفر من المعلومات يشير إلى أنّ التشيع قد انتشر في هذا المجال الزمني في ٦٥ منطقة جغرافية جديدة (٥٦ قرية و٧ أحياء):

دمشق (٦): عدرا، حَجيرة، الحجر الأسود، داريا، حي الشاغور، عربين.

حلب (١٠): حي الشهباء الجديدة/مدينة حلب، حي الجزماتي/مدينة حلب، الخفسة، المالكية، النيرب، مسكنة، الباب، جازز، صوران/العذية، عين العرب.

درعا (٣): الحراك، طفس، الصورة الصغيرة.

إدلب (١): منطقة جامع الروضة/مدينة إدلب.

دير الزور (٢٠): مدينة دير الزور، خشام، البصيرة، الكسرة،
الكبر، الصعوة، الصغير، جديد عكيدات، جديد بكارة، البوحמיד،
حلبية، موحسن، الشميطية، جزرة، حويجة صقر، أبو خشب،
الصور، البوكمال، غرانيج، محقان.

الرقعة (٦): شارع المنصور/مدينة الرقعة، تل أبيض، حويجة
صقر، شلبية، جزرا، مدينة الطبقة (الثورة).

الحسكة (١٠): تل الشداوي، تل تمر، تل ورد، القصر،
الداوودية، زين المبرك، عامودا، الجبسة، حي النشوة/مدينة
الحسكة، مدينة القامشلي/طريق الحسكة إلى حي الهلالية.

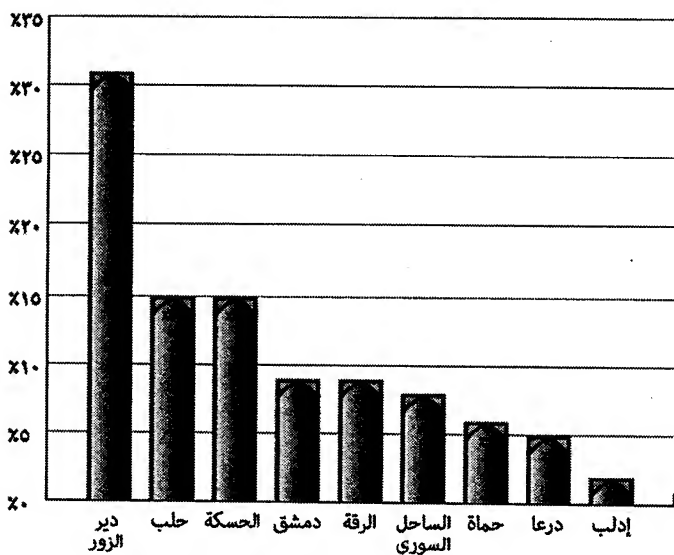
حماة (٤): السلمية، مصياف، عقارب، جبل زين العابدين.

الساحل السوري (اللاذقية وطرطوس) (٥): حي الرمل
الفلسطيني/مدينة اللاذقية، حي الزراعة/مدينة اللاذقية، حي قينص/
مدينة اللاذقية، القدموس، نهر الخوابي.

نسب تزايد الانتشار الجغرافي (١٩٩٩ - ٢٠٠٧)

المحافظة	النسبة المئوية	المحافظة	النسبة المئوية
دير الزور	٣١	الساحل السوري	٨
الحسكة	١٥	حماة	٦
حلب	١٥	درعا	٥
دمشق	٩	إدلب	٢
الرقعة	٩	حمص	١

معدّل زيادة الانتشار الجغرافي للتشيع بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٧
مقارنة مع معدّل الفترة من ١٩٧٠ وحتى ١٩٩٨



معدلات الانتشار

أولاً: الانتشار الديمغرافي

تُعتبر الفترة الذهبية للتشيع هي الفترة الممتدة بين ١٩٧٠ - ٢٠٠٧، فما قبلها لا يعتبر التشيع ظاهرة، ولم يتعدّد عدد الذين تشيعوا بضع مئات، فإذا قدّر عددهم بما دون الألف فإنّ عدد الذين تشيعوا في الفترة ١٩٧٠ - ١٩٩٩ يقدر بـ ٦٩٦٠ كحد أقصى، بما نسبته ٤٣ بالمئة، وعدد الذين تشيعوا في الفترة ١٩٩٩ - ٢٠٠٧ يقدر بـ ٨٠٤٠ كحد أقصى بما نسبته ٥٠ بالمئة.

وعلى هذا الأساس فإنّ المعدل السنوي للتشيع حتى عام

١٩٧٠ كان ١٩,٦ شخصاً من السَّنة في الوسط الاجتماعي الموسوم بالسَّني، وفي عهد حافظ الأسد ١٩٧٠ - ١٩٩٩ كان المعدل ٢٣٢ سنياً في السنة؛ أي تضاعف قرابة ١٢ مرة عن الفترة التي سبقتها، وفي عهد بشار الأسد ضمن الفترة ١٩٩٩ - ٢٠٠٧ فإنَّ معدل الانتشار كان ١٠٠٥ أشخاص سنوياً؛ أي أنَّ المعدل السنوي تضاعف عن عهد الأب في ١٩٧٠ - ١٩٩٩ بما يعادل ٤ مرات، وتضاعف بـ ٥١ مرة عن معدل ما قبل ١٩٧٠.

لكن إذا أخذت بعين الاعتبار الأرقام التي زعمتها دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة وتمَّت محاولة مقارنة العدد الذي تشيع في عهد حافظ الأسد من العلويين والإسماعيليين عن طريق المعدل السنوي، فإنَّ عدد المتشيعين هو: من العلويين ٤٠٥٠٩، والإسماعيليين ٥١٢٧^(٥)، وإجمالي عدد المتشيعين في عهد حافظ الأسد هو: ٥٢٥٩٦ شخصاً سورياً من مختلف الطوائف، ومن ثَمَّ فإنَّ معدَّل الانتشار السنوي في عهد الأسد كان ١٧٥٣ شخصاً في السنة.

وبالمثل، فإذا ما أخذ بعين الاعتبار الرقم المزعوم في دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة من خلال المعدل الوسطي، فإنَّ عدد المتشيعين ٨٠٤٠ (سنياً) + ١٢١٩١ (علوياً) + ٢٠٥١ (إسماعيلياً) = ٢٢٢٨٢ شخصاً سورياً، ومن ثَمَّ يكون المعدل السنوي لانتشار

(٥) حُسِبَ هذا الرقم على أساس الرقم المزعوم في دراسة مجلس الحقيقة والمصالحة، ولتجنُّب المبالغة تمَّ اعتبار أنَّ الرقم المتحصَّل في السنوات ١٩٨٥ - ١٩٩٩ يتضمَّن السنوات التي قبله من عهد الأسد الأب، وعلى هذا فقد تمَّ الوصول إلى الرقم أعلاه من خلال المعدَّل السنوي مضروباً بالرقم ١٥، الذي يساوي سنوات المجال الزمني التي غطتها تلك الدراسة من عهد حافظ الأسد.

التشييع في مختلف الطوائف السورية هو: ٢٧٨٥ شخصاً في السنة.

ووفقاً لهذا الحساب تكون نسبة التشييع زادت في عهد حافظ الأسد عمّا قبله بـ ٨٩ مرة! وفي عهد بشار الأسد تضاعف الرقم ١,٦ مرة عن عهد أبيه، و١٤٢ مرة عمّا كان في الفترة التي سبقت عهد أبيه!

ثانياً: الانتشار الجغرافي

في الفترة ١٩١٩ - ١٩٧٠ انتشر التشييع في ١١ منطقة جغرافية جديدة داخل الأراضي السورية؛ أي بمعدل ٠,٢ منطقة في السنة. وفي الفترة الممتدة ١٩٧٠ - ١٩٩٩ انتشر التشييع في ٧١ منطقة جغرافية جديدة؛ أي بمعدل ٢,٤ منطقة في السنة. وفي الفترة ١٩٩٩ - ٢٠٠٧ انتشر التشييع في ٦٥ منطقة جديدة؛ أي بمعدل ٨ مناطق في السنة. وذلك يعني أنّ تمذد التشييع جغرافياً قد تضاعف ١١ مرة في عهد الأسد الأب عمّا سبقه، وتضاعف التمدد الجغرافي للتشييع في عهد بشار الأسد ٣,٤ مرة عن عهد الأسد الأب، و٣٩ مرة عن ما قبل ١٩٧٠.

تفسير النتائج

لم يتجاوز عدد المتشييعين في المجال الزمني ١٩١٩ - ١٩٧٠ ألف شخص كحد أقصى؛ أي أنّه طول نصف قرن لم يكن بالإمكان الحديث عن ظاهرة تشييع بقدر ما يمكن فيه الحديث عن تشييع فردي متباعد الزمان والمكان، ولعلّ هذا يرجع إلى سببين: أولهما أنّ الأقلية الشيعية السورية صغيرة جداً، تميل للانطواء والحفاظ على النفس، وثانيهما أنّ فكرة عودة الفرع العلوي النصيري إلى أصله الشيعي لم تكن قد جذبت اهتمام المراجع

الدينية، فبقيت نخبويةً، وبقي هذا التيار على اتصال محدود بالمراجع الشيعية الإيرانية والعراقية، وصلته ضعيفة بالشيعية السوريين، فضلاً عن ضعف الأقلية الشيعية السورية، وهذا جعله تياراً ضعيفاً، يضم بعض الأفراد «الإصلاحيين» الذين يرغبون بإخراج الطائفة من عزلتها عبر تشييعها.

غير أنَّ التشيع في المجال الزمني ١٩٧٠ - ١٩٩٩ - كما تشير الأرقام - يدلّ على انتشار بالغ للتشيع، فقد بلغ المعدل السنوي لانتشار التشيع ١٧٠٤ أشخاص في السنة، ينقسمون كالتالي: ٢٣٢ سنياً في السنة، ١٣٥٠ علوياً في السنة، ٦٨ إسماعيلياً في السنة. ويرتفع معدل هذا الانتشار بشكل بالغ في الطائفة العلوية.

إنَّ تحوُّل التشيع إلى ظاهرة يرجع إلى تشكُّل تيار شيعي في الطائفة العلوية النصيرية بدعم من حافظ الأسد، الذي كان قريباً من أنصار هذا التيار، وإلى تدخُّل الملالي الإيرانيين العراقيين واللبنانيين في عملية التشييع في سورية، وإلى تزايد اهتمامهم بالطائفة العلوية ودفعها إلى اعتناق التشيع والخروج من الأفكار النصيرية المنشقة وإلى عمل ممنهج من قبل إيران لإيجاد حامل اجتماعي تعتمد عليه في توسيع وتثبيت نفوذها في سورية إلى أطول أمد ممكن.

في حين يبدو أنَّ ابتداء التشيع في الوسط الإسماعيلي بشكل قوي يوازي معدّله في الوسط السنّي؛ يعني أنَّ تغييرات طرأت على الطائفة الإسماعيلية أيضاً، بعضها يرجع إلى العمالة في لبنان، والبعض الآخر يرجع إلى نجاحات حزب الله في معاركه ضد الإسرائيليين في منتصف التسعينيات. أمّا التشيع داخل الوسط السنّي فيرجع أساساً إلى العمالة في لبنان، ونشاط شبكة مبشرين مؤلفة من

المتشعبة الجدد والشيعة السوريين، والملاهي الإيرانيين ومؤسساتهم الثقافية، والمبشرين الموفدين من المراجع الشيعة (وخصوصاً الشيرازية) ومؤسساتهم، والتسهيلات الحكومية التي بدأت تظهر شيئاً فشيئاً مع تزايد دور بشار الأسد وتقوية نفوذه في منتصف التسعينيات.

في عهد بشار الأسد تحول التشيع إلى «تشيع»، الأمر الذي يعكس تزايد انتشار التشيع وتضاعف معدله عن عهد أبيه؛ فقد منح بشار الأسد المؤسسات الشيعة ونشاطاتها تسهيلات غير معهودة من قبل، وهي تسهيلات تبدأ من المستوى الأمني وتنتهي بالمستوى السياسي والإداري، الأمر الذي أعطى التبشير دفعة لم تكن قط في السنوات السابقة.

غير أن الملاحظ هو أن تزايداً غير اعتيادي طرأ على نسب التشيع ضمن الوسط السنّي؛ فخلال ثماني سنوات فقط تشيع ما يزيد على ضعف وثلث الضعف عن عدد الذين تشيعوا في ثلاثين سنة، هي جملة ما تشيع في عهد الأسد الأب؛ فقد بلغت معدلات التشيع في الوسط السنّي في عهد حافظ الأسد ١٩٧٠ - ١٩٩٩ حوالي ٢٣٢ سنياً في السنة، وفي عهد بشار الأسد ضمن الفترة ١٩٩٩ - ٢٠٠٧ كان معدل الانتشار ١٠٠٥ سنّيين سنوياً؛ أي أن المعدل السنوي تضاعف عن عهد الأسد الأب في ١٩٧٠ - ١٩٩٩ بما يعادل ٤ مرات، وتضاعف ٥١ مرة عن معدل ما قبل ١٩٧٠.

كما أن انتشار التشيع جغرافياً تركّز في عهد الأسد الأب في الساحل السوري بالدرجة الأولى ٥٥ بالمئة، وفي إدلب بالدرجة الثانية ١٥ بالمئة، وحلب بالدرجة الثالثة ١٠ بالمئة، لكنّه انتقل بشكل دراماتيكي إلى الجزيرة السورية، التي قفزت فيها نسبة انتشار التشيع في عهد بشار الأسد إلى ٥٥ بالمئة بعد أن كان في عهد

الأسد الأب لا يتجاوز ٦ بالمئة! يعود هذا التحول إلى عدد من المعطيات تتعلق بالعمالة في لبنان، وانتشار الأمية، والعامل السياسي المتمثل في الرغبة الإيرانية في توسيع ولائها الاجتماعي وتجذير هلالها الشيعي في سورية السنية، فالمنطقة تعتبر بادية سورية تنتشر فيها القبائل، ولهذه القبائل امتدادها في العراق والسعودية والأردن، وبعض هذه القبائل تشيع قسمها العراقي، وبالإجمال فإنّ البادية المحاذية لشعبة العراق تمثل امتداداً جغرافياً لها، وهذا ما يجعلها مغرية جداً للراغبين في بسط الهلال الشيعي عبر سورية.

كما أنّ الروابط القبليّة تساعد على الانتشار بشكل واسع، خصوصاً مع شيوع الأمية بشكل كبير في المجتمع البدوي، وهو أمر يجعل للقبيلة سلطاناً يفوق سلطان العقل، وأحياناً الدين. لقد أثبتت استراتيجية واضحة في تشييع القبائل من خلال ربطها بأصولها من آل البيت، خصوصاً أنّ كثيراً من القبائل تدّعي نسبتها لآل البيت، وقد تعدّى الأمر في بعض القبائل مثلاً (كقبيلة البكارة)^(٦) إلى تأويل نسبها وربطه بالأئمة الإثني عشرية (الإمام الباقر مثلاً)^(٧)، ومحاولة تجذير المسألة تاريخياً بزعم أنّ الجزيرة شيعية تاريخياً!^(٨)

(٦) تنقسم عشيرة البكارة إلى: العبيدات، المناصرة، هلامية، البومصعي، والحمد العابد، والبوعرب، والبوصالح، والبوحمدان، ورفيع، والبومعيش، والبورحمة، والعبد الكريم، والبوشمس، وبكارة الجبل، وعشيرة البكارة في حلب، وتمتد هذه العشيرة على ضفاف نهر الفرات، من الجانب الأيسر (جزيرة) إلى نهر الخابور شرقاً إلى البصرة شرق محافظة دير الزور وغرباً إلى محافظة الرقة.

(٧) آل قطيط، المتحولون: حقائق ووثائق، مقابلة مع الشيخ حمد الكويع. انظر المقابلة على الـوصلة:

<<http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm>>.

(٨) يلخص نص المقابلة مع الشيخ حمد الكويع (متشيع ديري منذ ١٩٩٦) قناعات المتشيع الجدد ومزاعمهم في مسألة القبائل كما يلي:

إنَّ تصاعد المد الشيوعي في عهد بشار الأسد يرجع أيضاً إلى معطيات جديدة في الاستراتيجية المتبعة للتشيع، إضافة إلى استغلال الروابط القبلية والظروف الثقافية لمجتمع الجزيرة السورية، فإنَّ تدفُّق الدعم اللوجستي الإيراني (المالي والمعنوي) والحماية الأمنية لنظام الأسد كانا سنداً قوياً لهذا المد، ليعتمد المال والسياسة كأساسين لانتشاره بسرعة أكبر بكثير من تلك التي كانت في العهد السابق.

ثانياً: سيناريوهات

إذا كان معدَّل التشيع الآن هو ٢٧٨٥ في السنة، منهم ١٠٠٥ أشخاص سنّيين، فعلى فرض استمرار هذا المعدل (والواقع أنَّ انتشار الأديان كظواهر اجتماعية ينتقل عبر متواليات حسابية وليس

= إنَّ الرقعة الجغرافية الممتدة من الخابور إلى نهر الفرات كلها شيعية وممتدة حسباً ونسباً لأهل البيت، والدليل على ذلك أنَّ الجميع يرددون عند أي حديث كلمة (الله وعلي)، وقبل «الاحتلال» العثماني كانت هذه المنطقة منطقة الجزيرة على مذهب أهل البيت، ولكن بعد الاحتلال العثماني عملت الدولة العثمانية على إخراج الشيوخ والعلماء الموجودين في المنطقة إلى عاصمتها إسطنبول، وأتوا بالملاي من قبل الدولة العثمانية، ووضعوا كل ملا في قرية، وأجبروا الناس على الاقتداء بهذا (الملا).

تاريخياً، إنَّ هذه المنطقة كان أهلها شيعة، والتسمية ما زالت موجودة في بعض القرى مثل قرية (زغير) نسبة للإمام علي الأصغر وقرية الحسينية، وهذه كانت فيها حسينية باسم الإمام الحسين منذ مائة ونيف، وعين علي نسبة للإمام علي (عليه السلام) وقرية الكبر نسبة لعلي الأكبر ابن الإمام الحسين.

وقد أدخلت الدولة العثمانية على هذه القرى الطرق الصوفية، بدلاً من مذهب آل البيت (الشيعة)، واستخدم أهالي هذه المنطقة أناشيد تتعلق بأهل البيت والأئمّة الإثني عشر، وهذه القصائد الشعبية تدل على أنَّ الناس كانوا قديماً في دير الزور كلهم شيعة، وهذه القصائد دليل قاطع على ما ورثه الناس من تراث أهل البيت، والمنطقة كلها شيعية تاريخياً. انظر: المصدر نفسه.

عبر تزايد عددي تقليدي، خصوصاً في ظل مجتمعات متماسكة اجتماعياً لاتزال الأسرة الممتدة تمثل أساس العلاقات الاجتماعية فيها، وغالباً تتعدها إلى القبيلة)، فإنه خلال عشرين سنة سيكون عدد المتشيعين السوريين حوالي ٥٥٠,٠٠٠، ولكن المجتمع السوري يكون وقتها قد تجاوز الثلاثين مليوناً، وحتى لو ضاعفنا هذا المعدل ثلاث مرات فإن عدد المتشيع في سورية سيصل إلى مليونين خلال عشرين سنة! وخمسمئة ألف خلال خمس سنوات، وهذا يعني أن خطر التغيير الديمغرافي في سورية في هذه الفترة ضعيف.

لكن من المهم ملاحظة أن تركيز التبشير الشيعي في رقتين جغرافيتين أساسيتين: الساحل السوري ومنطقة الجزيرة. وهاتان المنطقتان تَضُمّان الشريحتين الرئيسيتين من المجتمع السوري اللتين اختير منهما عناصر المجندين والضباط في الجيش السوري والمخابرات الذين قاموا بالمجازر في مدينة حماة على وجه الخصوص، وعموم المدن السورية في أحداث الثمانينيات بشكل عام، وهو أمر له دلالة سياسية ويعكس استراتيجية محددة، إذ إن هذا يرشح أن تكون هاتان المنطقتان مؤهلتين للعب الدور الرئيس في حماية النظام والدفاع عنه:

المنطقة الأولى في الساحل السوري لأسباب طائفية وامتيازات اجتماعية وخوف وجودي، والمنطقة الثانية لانتشار الأمية والفقر فيها وسهولة إخضاع أفرادها للقوة وإجبارهم على تنفيذ أوامر النظام ولو ضد شعبيهم. ويجب أن يلاحظ دخول عنصر جديد في هذه المنطقة، وهو تشييع القبائل. وحيث يعتبر عهد الأسد هو العهد الذهبي للتشييع في الجزيرة، فإن مصالح المبشرين مرتبطة آلياً بوجود النظام، ومن ثم، فإن المتشيعين الجدد يمكن أن يكونوا عناصر

محتملين لحماية النظام والدفاع عنه مع المتشعبة الجدد المنتشرين في كل أنحاء سورية.

كل هذا مع افتراض بقاء معدلات التشيع في حدود ما ذكر آنفاً، لكن ماذا لو تشيع زعماء القبائل؟ وهو أمر يجري العمل عليه بكثرة في الجزيرة، خصوصاً مع توارد إشاعات عن زيارات لبعض هؤلاء الزعماء للمرجعيات الدينية في إيران والعراق! ومن الواجب التذكر بأنه في المجتمع القبلي، وحيث يعمّ الجهل والأمية، فإنّ اعتناق زعيم القبيلة للمذهب الشيعي يعني انتشار التشيع في معظم القبيلة، فالناس هنالك تنقاد لقرارات زعمائها القبليين أكثر من علماء الدين.

الأقلية الصغيرة جداً لا تملك بطبيعة الحال طموحات سياسية بقدر ما تملك طموحات اجتماعية، لكن عندما تكبر فإنّها بالتأكيد سيكون لها طموحاتها السياسية، فإذا حصل ما سبق - وهو أمر وارد - فإنّ معدلات التشيع ستكون مخيفة؛ إذ من الممكن أن تنتقل إلى معدلات كبيرة جداً قد تصل إلى عشرة أضعاف، وهذا يجعل السيناريو مختلفاً، إذ ستصل أعداد المتشيعين خلال خمس سنوات إلى ما يزيد على مليون متشيع! وهذا سيجعل الأقلية الشيعية بحجم الأقلية الكردية. وبما أنّ امتداد الشيعة العرب الديمغرافي يتركز أساساً في العراق ولبنان، البلدين اللذين يمثلان الجزء العربي الأهم من الهلال الشيعي، فإنّ المتشعبة السوريين قد يقومون بتشكيل أحزاب مناضلة تأثراً بأشقائهم في العقيدة (حزب الله، ومنظمة بدر، وجيش المهدي)؛ فإن حصل هذا فإنّها ستكون بالتأكيد متأثرة بالمليشيات الشيعية المذكورة، وكلها تعتبر أحزاباً متشابهة من وجهة نظرها وولائها السياسي لإيران دون أوطانها.

وربما لا يكمن الخطر هنا فحسب، فماذا لو أنّه تمّ تشكيل

حزب مناضل بمعونة رسمية من النظام السوري، وبلاستعانة بخبرات حزب الله، ثم مؤه شكلياً بأشخاص من المجتمع السنّي، وتمّ إطلاق يده على حدود الجولان، هل من الممكن أن يتكرر سيناريو حزب الله فيصبح حزب الله السوري متحكماً في القرار السوري الداخلي على سورية، كما يستولي نظيره حزب الله اللبناني على قرار لبنان ويُعوق إرادة الأكثرية اللبنانية؟ سيصبح النفوذ الإيراني في سورية حينها حقيقة أبدية بلا شك.

حتى لو تمّ الافتراض بأنّ هذا السيناريو غير محتمل، فمن الممكن التوقع أن يتحول المتشيعون الجدد إلى عناصر أمنية عند تعرّض النظام لاحتجاج داخلي كما تحوّل عناصر حزب البعث في الثمانينيات إلى عناصر أمنية، خصوصاً أنّ كثيراً من النخب السياسية وضباط الأمن العلويين منحازون بشكل كبير أو ينتمون للتيار الشيعي في الطائفة العلوية، أو قد يتحول هؤلاء إلى عناصر شغب تبثّ الفوضى في المجتمع السوري لصالح النظام.

لو بقيت معدلات التشيع على حالها ولم تتضاعف أبداً - وهو أمر غير محتمل في ظل الظروف الراهنة - فإنّ دخول عنصر التشيع الإيراني والعراقي فضلاً عن الوجود الشيعي العراقي الراهن في سورية، والذي يصل إلى قرابة ٥٠٠ ألف شيعي، وفي ظل دعم لوجستي إيراني وأمني سوري، يمكن أن يحوّل المتشيعين الجدد إلى اللعبة السياسية ليصبحوا إحدى الأدوات الجديدة للنظام في صراعه مع المعارضة الوطنية الديمقراطية، خصوصاً إذا أقرّ قانون الأحزاب.

قضية التبشير الشيعي في سورية ليست قضية عديدة فحسب، وإنّما يظهر العمق السياسي لهذا النشاط وأهدافه عند تحليل التوزع الجغرافي لهذا التبشير؛ فبتحليل عددي بسيط نجد أنّ معدّل التبشير الحالي (٢٧٨٥) شيعياً جديداً، منهم ١٠٠٥ من أصل سنّي في

العام) لن يغير الطبيعة الديمغرافية للمجتمع السوري؛ إذ إنَّ هذا المعدل إذا استمر لفترة عشرين عاماً فإنَّ عدد الشيعة الجدد لن يتجاوز ٥٥٠,٠٠٠ في الوقت الذي يصبح فيه التعداد السكاني لسورية ٣٠ مليوناً. وحتى لو تصاعد المعدل إلى ثلاثة أضعاف العدد الحالي، فإنَّ عدد الشيعة الجدد بعد عشرين عاماً لن يتجاوز ١,٦٥٠,٠٠٠، ولن يصل إلى ٥٠٠,٠٠٠ بعد خمس سنوات؛ أي أنَّ حجم التغيير - خلال فترة الولاية الثانية لبشار الأسد على الأقل - غير مهم بحد ذاته.

المهم هو التوزع الجغرافي لنشاط التبشير الشيعي في سورية، حيث يتركز هذا النشاط في منطقتين هما: الساحل السوري ومنطقة الجزيرة.

هاتان المنطقتان الجغرافيتان في سورية لهما أهمية خاصة، فهما مؤهلتان للعب دور رئيسي في حماية النظام والدفاع عنه؛ فأولاهما (الساحل السوري) ستحمي النظام لأسباب طائفية واجتماعية وخوف وجودي، وثانيتهما (منطقة الجزيرة) ينتشر فيها الفقر والأمية فيسهل ترغيبها وترهيبها واستمالتها للتعاون مع النظام أو القيام بأعمال غير شرعية، كتلك المجازر التي تمَّت في حماة وباقي المدن السورية في الثمانينيات. كما أنَّ معظم عناصر الجيش والمخابرات ينحدرون أصلاً من هاتين المنطقتين الجغرافيتين، وهذا سبب آخر يعلل تركيز وتوجيه نشاط التبشير الشيعي فيهما؛ فطبيعة منطقة الجزيرة القبلية تجعل منها أرضاً خصبة للعمل التبشيري الشيعي، ففي حال تشييع أيٍّ من زعماء القبائل فذلك سيشجع كامل القبيلة لتحذو حذوه، فالناس هنالك، وبسبب الجهل والأمية، تنقاد لقرارات زعمائها القبليين أكثر من علماء الدين. وتشير التقارير الأخيرة عن توجه بعض زعماء القبائل لزيارة مرجعيات دينية شيعية في إيران والعراق.

عند هذه النقطة من التحليل يصبح للعامل العددي أهمية أخرى؛ فعلى الرغم من أننا بدأنا هذا الاستنتاج بجعل أهمية العامل العددي للتبشير الشيعي أمراً ثانوياً إلا أن دخول عامل التركيب القبلي قد يرفع معدّل التشيع إلى عشرة أضعاف المعدل الحالي، وفي هذه الحال ستصل أعداد المتشيعين إلى ما يزيد على مليون متشيع خلال خمس سنوات؛ أي بحجم الأقلية الكردية في سورية. وبما أن امتداد الشيعة العرب يتركز بشكل أساسي في العراق ولبنان، البلدين اللذين يمثلان الجزء العربي الأهم من الهلال الشيعي، فإنّ ازدياد عدد المتشيعين السوريين من طبقات اجتماعية فقيرة بشكل مطرد سيزيد من طموحاتهم السياسية، ممّا قد يدفعهم إلى تشكيل أحزاب طائفية تأثراً بأشقائهم في العقيدة (حزب الله، منظمة بدر، وجيش المهدي)، وكل هذه تعتبر أحزاباً متشابهة من حيث وجهة نظرها وولائها السياسي لإيران دون أوطانها.

ومع أنّ الخطورة الديمغرافية للتبشير الشيعي ليست آنية، إلا أنّ خطورتها الأمنية والسياسية تفرع جرس الإنذار بشكل فوري؛ فالخطر الذي تفرضه عملية تشيع هذه المناطق الجغرافية (الساحل والجزيرة) هو أنّ هؤلاء المتشيعين الجدد سيتحولون إلى عناصر دعم وحماية للنظام، تماماً كما تحوّلت معظم العناصر البعثية خلال أحداث الثمانينيات إلى مخبرين لصالح النظام، ويتكرر هذا في حال تعرّض النظام لأي ضغوط أو احتجاجات سلمية من الأغلبية السنيّة، التي تسعى إلى رفع مستويات حريتها واستعادة العدالة الاجتماعية.

ويتضخم حجم المخاطر الأمنية والسياسية التي تتأتى من النشاط التبشيري الشيعي في سورية عندما نأخذ بعين الاعتبار

النجاح الذي تمّ تحقيقه في مناطق الساحل واعتناق كثير من العلويين المذهب الشيعي الإثني عشري ضمن مخطط «عودة الفرع إلى الأصل».

تشير الإحصائيات إلى أنّ ٧٠ بالمئة من المتشيعين بين عام ١٩٧٠ و ٢٠٠٧ هم من أصول علوية - وهي نسبة ضخمة جداً تشير الانتباه، خصوصاً عندما نعلم أنّ العلويين لا يشكلون سوى ١٠ بالمئة من المجتمع السوري. هذا التركيز للتبشير الشيعي الإثني عشري (المذهب الرسمي لإيران) في الطائفة العلوية ربما يمثل أخطر تهديد لأمن سورية ومستقبلها السياسي، حيث يتمتع العلويون بسلطة لا مثيل لها في البلاد من خلال نسبتهم الكبيرة - والتي لا تتناسب مع نسبتهم في المجتمع السوري - في الجيش والمخابرات ومن خلال تدخلهم بحكم البلاد بشكل مباشر، حيث إنّ رئيس الجمهورية منذ عام ١٩٧٠ هو علوي الانتماء.

نظرة العلويين إلى طائفتهم وإلى دور سورية السياسي في المنطقة مبنية على حاجتهم للبقاء في موقع السلطة والحفاظ على قبضتهم على منافذ القوة في بلد أغلبية شعبه متململ ورافض للتسلط العلوي. ووجود قوة إقليمية داعمة للحكم العلوي في سورية يشكّل ضرورة سياسية لبشار الأسد، خصوصاً عندما أصبحت الدول العربية «المعتدلة» المجاورة، مثل السعودية ومصر، غير قادرة على تحمل السلوك السيئ للنظام، وما يدل عليه من ابتزاز سياسي، فهذا الدعم الإقليمي من إيران يخرج النظام السوري من عزلته السياسية. ومع سيطرة حزب الله على القرار السياسي في لبنان (غرب سورية)، وقيام الشيعة بفرض سيطرتهم على العراق (شرق سورية) أصبح الحفاظ على تحالف مع إيران بالنسبة إلى العلويين في سورية ذا أهمية خاصّة. «العودة إلى الجذور» لها أهميتها السياسية أيضاً وليست الدينية فقط.

أكثر من وقت مضى خلال التسعين سنة الماضية (أي منذ قيام الدولة الحديثة على أنقاض العهد العثماني) تشهد سورية التقاء مصالح غير مسبوق بين الأهداف السياسية والدينية بدعم دور سورية في الهلال الشيعي. فإذا أخذنا بعين الاعتبار علاقة بشار الأسد المتينة بحسن نصر الله، والسماح غير المشروط للنشاط الشيعي في سورية، فمن غير المؤكد قدرته على مواجهة الأصوات الشيعية ضمن طائفته العلوية. ولكن ما تؤكده الوقائع هو أنَّ صفة سورية «العلمانية» التي تُحكم من حزب البعث «القومي» لم تعد حقيقة مسلَّمة ولم تعد تعكس بدقة ما يدور على أرض الواقع.

أمَّا الاستثمار الإيراني في التعليم الديني الشيعي وبناء الحسينيات عبر سورية، فإنَّه يستمر في التزايد؛ فمثلاً قام الاتحاد السوفياتي بزراعة الشيوعيين في أوروبا الشرقية خلال فوضى سَني الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فإنَّ إيران تستغل ظروف الاضطراب في لبنان والعراق، والضعف المتأصل في النظام السوري، لتأسيس إمبراطورية بالوكالة؛ فإيران تستخدم اسم الشيعة والإسلام كأداة سياسية لنشر الانتماء الشيعي وافتعال مجتمعات حاضنة تعمل لصالحها في الدول المجاورة.

والنظام السوري بتركيبته العلوية هو نظام قابل أكثر من غيره للوقوع تحت التأثير الإيراني. إنَّ سورية ستتحول حتماً إلى كوكب يدور في فلك إيران؛ فالنظام يعتمد بشكل كامل على إيران في الدعم السياسي والاقتصادي - واكتساب الشرعية التي طالما سعى إليها - ولن تستطيع سورية الانفكاك عن حقل الجاذبية الإيراني ما لم يحدث تغيير جذري في رأس النظام في دمشق.

ملحق (١)

جدول الانتشار الشيعي

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشيع	أسباب ظهور التشيع
محافظة دمشق وريف دمشق	*	السيدة زينب	*	١٩٧٥	الوافدون إلى جوار مقام السيدة زينب، وتأسيس الحوزة الشيرازية، واحتلال مقام السيدة زينب والجامع السنّي الذي يحضنه
	*	بيت سوا	*	الربع الأخير من عقد التسعينيات	الامتداد السكني للوافدين وطلبة الحوزات الأجانب
	دمشق	*	السوقية		تشيع بعض الأهالي والتزوج العراقي
	دمشق	*	الشاغور	بعد ٢٠٠٣	تشيع بعض الأهالي والتزوج العراقي
	داريا	*	البلدية	٢٠٠٠	اختراع مقام للسيدة سكينة بنت الحسين
	دوما	*	*	مطلع الثمانينيات	جمعية المرتضى
	*	عربين	*	بعد ٢٠٠٠	غير متوفر
	دمشق	*	الأمين	قديم	
	دمشق	*	الجورة	قديم	
	دمشق	*	زين العابدين	قديم	
	*	الضمير	*	١٩٨٦	تشيع أحد أبنائها - محمّد يوسف قجمي

*	عدرا	*	نهاية التسعينيات	احتلال مقام حجر بن عدي
دمشق *	عمارة جوانية	*	منتصف الثمانينيات	احتلال مقام السيدة رقية
* ببيلا	*	*	النصف الثاني من التسعينيات	امتداد الوجود الشيعي في السيدة زينب، لاجئون عراقيون
* حنجيرة	*	*	نهاية التسعينيات	امتداد الوجود الشيعي في السيدة زينب، لاجئون عراقيون
* سيدي مقداد	*	*	نهاية التسعينيات	امتداد الوجود الشيعي في السيدة زينب، لاجئون عراقيون
*	*	*	الحجر الأسود	امتداد الوجود الشيعي في السيدة زينب، لاجئون عراقيون
*	*	*	الدويلعة	لاجئون عراقيون بعد الاحتلال
*	*	*	الزاهرة	لاجئون عراقيون بعد الاحتلال
*	*	*	جرمانا	لاجئون عراقيون بعد الاحتلال
*	*	*	مساكن برزة	لاجئون عراقيون بعد الاحتلال
*	الثل	*	نهاية التسعينيات	العمالة في لبنان
دوما	راوية	*	قديم	

ملاحظات	عدد الشيعة وجنسياتهم	عدد المتشيعين السوريين
السكان الأصليون سنّة متمسكون بسنّيتهم، ولا يزالون كذلك إلى اليوم. ازداد الوجود الشيعي العراقي بكثرة لافتة للنظر بعد حرب الخليج الثانية وحصار العراق	قراية ١٠٠ ألف معظمهم لاجئون عراقيون، وتوجد أقليات لبنانية وخليجية	لا يوجد
سكان البلدة سنّة، وربما ظهرت فيهم بعض حالات التشيع لكنها قليلة	بضعة آلاف	أقل من ٣٠٠
		أقل من ١٠٠
سكان الحي سنّة متمسكون بسنّيتهم، الحي متصل بحي الأمين الشيعي	أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠
وفود شيعة أجانب (عراقيون وإيرانيون ولبنانيون) لرعاية المقام	أقل من ٢٥ معظمهم من العراقيين	لا يوجد
دوما المدينة السورية الوحيدة التي تتبع المذهب الحنبلي، الذي يركز على العقائد السنيّة، وتنتشر فيها السلفية بشكل واضح	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
أقلية شيعية	غير متوفر	أقل من ١٠٠
	أقل من ١٠ آلاف	لا يوجد
	أقل من ١٥ ألفاً	لا يوجد
	أقل من ١٠ آلاف	لا يوجد
تأثراً بعبد الحميد المهاجر	أقل من ١٠	أقل من ٥
السكان الأصليون مازالوا مسلمين سنّة، ولم تُذكر حالات تشيع بينهم		غير متوفر

لا يوجد	١٠٠ شخص إيراني وعراقي وبعض الشيعة الشوام	احتله حسن الشيرازي، وأصبح مزاراً وأقيم فيه جمعية وفرع لـ «جمعية العلوم الإسلامية» بلندن، لكن لا يوجد في سكان الحي أي حالة تشيع، ولكن يجاوره بعض التجار من الشيعة الدمشقيين الأصليين
أقل من ٣٠٠	بضعة آلاف	غير متوفر
	بضعة آلاف	غير متوفر
	بضعة آلاف	غير متوفر
	بضعة آلاف	غير متوفر
لا يوجد	بضعة آلاف	لا يوجد تشيع بين السكان
لا يوجد	بضعة آلاف	لا يوجد تشيع بين السكان
لا يوجد	بضعة آلاف	لا يوجد تشيع بين السكان
لا يوجد	بضعة آلاف	لا يوجد تشيع بين السكان
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أوّل حالة تشيّع	أسباب ظهور التشيّع
محافظة حلب	حلب *	*	حي الشهداء	بعد ٢٠٠١	مركز ثقافي إيراني قريب جداً من السكن الجامعي
	حلب *	*	جب الجلي أو جبل «شيخ محسن»	قديم	وجود «مشهد النقطة» التاريخي و«جمعية الإعمار والإحسان الإسلامية الجعفرية»
	حلب *	*	الخالدية	مطلع التسعينيات	تشيّع بعض الأفراد بسبب العمالة في لبنان
	حلب *	*	الجزماتي	منتصف العقد الأول من الألفية الثانية	تشيّع بعض الأفراد بسبب العمالة في لبنان، وانتساب البعض لعشيرة البكارة التي بدأ يتمّ فيها التبشير بشكل مكثّف في العقد الأخير
	الليرمون *	*		منتصف الثمانينيات	تشيّع بعض الأفراد تأثراً بالثورة الإيرانية
	بزاعة *	*		١٩٦٨	العمل في لبنان
	منبج *	*		قناعات دينية	
	* دير جمال *	*		الثمانينيات	تشيّع بعض الأفراد بتأثير التبشير من أهالي نبل والزهراء
	* الخفسة *	*		نهاية التسعينيات	تشيّع بعض الأفراد لقناعات دينية

*	الزهراء	*	قبل ١٩٧٠	تشيع معظم أهالي القرية بتأثير تبشير قرية نُبُل والقرايات الناشئة بين أهالي القريتين
*	نُبُل	*	قبل ١٩٧٠	غير متوفر
*	المنصورة	*	التسعينيات	تشيع بعض الأفراد تأثراً بتبشير شيعة نُبُل
*	المالكية	*	بعد ٢٠٠٠	غير متوفر
*	النيرب	*	بعد ٢٠٠٤	غير متوفر
*	خان العسل	*	التسعينيات	تشيع بعض الأفراد تأثراً بتبشير شيعة نُبُل
*	جارز	*	بعد منتصف التسعينيات (غير محدد)	غير معروف
*	صوران	العذية	نهاية التسعينيات	تشيع بعض الأفراد بسبب العمالة في لبنان
*	كفر داعل	*	السبعينيات	تشيع بعض الأفراد
*	مسكنة	*	نهاية التسعينيات	
الباب	*	*	٢٠٠٧	التبشير الشيعي والإغراء المالي
عين العرب	*	*	بعد ٢٠٠٣	غير معروف

ملاحظات	عدد الشيعة وجنسياتهم	عدد المتشيعين السوريين
يعتمد التأثير في طلبة الجامعة عبر تقديم خدمات مجانية وإغراءات مادية	أقل من ١٠٠	أقل من ٥٠
وجود بعض القائمين عليه من الشيعة من ريف حلب مثل (نبل والزهران)	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
سكان الخالدية هم فقراء وافدون من الريف الشمالي الغربي لمدينة حلب	أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠
سكان الجزماتي هم فقراء وافدون من الريف الشمالي الشرقي لمدينة حلب	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
بعض الأفراد	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
تشيع الشاعر سمعو عبد الكريم الدرويش	أقل من ٢٠	أقل من ٢٠
تشيع بعض الأفراد	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
أقلية صغيرة	أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠
أقلية صغيرة جداً	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
لا يوجد معلومات كافية غير تغيير اسم القرية في نهاية السبعينيات بناء على نصيحة حسن الشيرازي	٥ - ٧ آلاف	غير متوفر
أهالي القرية شيعة أصليون	١٠ آلاف - ١٢ ألفاً	لا يوجد
أقلية صغيرة	أقل من ١٥٠	أقل من ١٥٠
أقلية صغيرة جداً	أقل من ٢٥	أقل من ٢٥
أقلية صغيرة جداً	أقل من ٢٠	أقل من ٢٠
أقلية صغيرة	أقل من ٥٠٠	أقل من ٥٠٠
أقلية صغيرة	أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠
يتزعم حركة التبشير الشيعي معتقل إسلامي سابق	أقل من ١٥	أقل من ١٥

أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	أقلية صغيرة جداً
أقل من ٢٠	أقل من ٢٠	بعض الأفراد
أقل من ١٥	أقل من ١٥	الباب تُعتبر من المدن السّنيّة المحافظة جداً
أقل من ٢٠	أقل من ٢٠	أوّل حالة تشيع لأحد طلبة الدراسات الإسلامية

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحيّ	تاريخ ظهور أوّل حالة تشيع	أسباب ظهور التشيع
محافظة درعا	درعا	*	حي المطار	مطلع الثمانينيات	أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب
	*	قرقة	*	مطلع الثمانينيات	جمعية المرتضى
	*	الصنمين	*		أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب
	*	بصرى الشام	*	مطلع الثمانينيات	أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب
	*	الحراك	*	نهاية التسعينيات	العمالة في لبنان
	*	المزيريب	*	مطلع الثمانينيات	أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب

أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب	مطلع الثمانينيات	*	المليحة	*
أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب	مطلع الثمانينيات	*	الشيخ مسكين	*
أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب	مطلع الثمانينيات	*	نوى	*
أقلية مهاجرة من لبنان بسبب الحرب الأهلية والاحتلال الإسرائيلي للجنوب	مطلع الثمانينيات	*	الكسوة	*
		*	طفس	*
مصطفى الحريري متشيع متأثر بزياد غزالي	بعد ٢٠٠٣	*	الصورة الصغيرة	*

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشيع	اسباب ظهور التشيع
محافظة إدلب	إدلب		جامع الروضة	٢٠٠٥	كلية الدراسات الإسلامية (غير مرخصة)، فرع افتتحه بعض المتشيعين السوريين من مدينة حلب، وبعض شيعة قرى إدلب بدعم خارجي
	*	حارم	*	نهاية التسعينيات	غير متوفر
	*	معرة مصرين	حي واحدة في البلدة	الثمانينيات	
	*	زرزور	*	١٩٤٥	تشيع أحد أبنائها - محمد الغفري
	*	كورين	*	التسعينيات	تأثراً بتبشير متشيعي قريتي زرزور والفوعة
	*	عامود	*	التسعينيات	تأثراً بتبشير متشيعي قرية زرزور

ملاحظات	عدد الشيعة	عدد المتشيعين السوريين
وفود العراقيين منذ نهاية التسعينيات وبناء مؤسسات دينية	أقل من ٥٠٠٠	أقل من ٢٠٠
نشاط عضو الجمعية المنحلة زيدان غزالي في بداية التسعينيات بالتبشير، والتحقت به عائلته وأقاربه. تشييع بعض الأهالي	غير متوفر	أقل من ١٥٠
لا يوجد حالات تشييع واضحة بين الأهالي	أقل من ١٠٠	
لا يوجد حالات تشييع واضحة بين الأهالي	أقل من ١٠٠٠	
	أقل من ٢٥	أقل من ٢٥
لا يوجد حالات تشييع واضحة بين الأهالي	أقل من ٥٠٠	أقل من ٢٥
تشييع بعض الأهالي بسبب إغراءات مالية	أقل من ١٠٠٠	أقل من ٥٠٠
غير متوفر	غير متوفر	أقل من ٥٠
لا يوجد حالات تشييع بين الأهالي	أقل من ٢٠٠	لا يوجد متشيعون
لا يوجد حالات تشييع بين الأهالي	غير متوفر	لا يوجد متشيعون
	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
يوجد حالات تشييع بين الطلاب من سنّة إدلب وريفها	أقل من ١٠٠	أقل من ٥٠
غير متوفر	غير متوفر	أقل من ٥٠

أقل من ٥٠٠	أقل من ٥٠٠	بتأثير تبشير شيعة الفوعة
أقل من ٢٠٠٠	أقل من ٢٠٠٠	تبشير الشيخ محمد الأنطاكي
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعة
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعة

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشيع	اسباب ظهور التشيع
محافظة إدلب	*	خرابة	*	غير متوفر	تأثراً بتبشير متشيعي قرية زرزور
	*	دركوش	*	التسعينيات	تأثراً بتبشير متشيعي قرية زرزور
	*	الملند	*	غير متوفر	تأثراً بتبشير متشيعي قرية زرزور
	*	الجانودية	*	التسعينيات	تأثراً بتبشير متشيعي قرية زرزور
	*	الدرية	*	غير متوفر	تأثراً بتبشير متشيعي قرية زرزور
	*	بش	*	بعد ١٩٨٠	تأثراً بتبشير متشيعي الفوعة
	*	الفوعة	*	قبل ١٩٧٠	غير معروف
	*	كفريا	*	التسعينيات	غير معروف

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشيع	أسباب ظهور التشيع
محافظة دير الزور	*	حطلة	*	١٩٧٧	تشيع أحد أبناء القرية تأثراً بأفراد من شيعة قرية الفوعة في محافظة إدلب، ثم جمعية المرتضى
	*	خشام	*	نهاية التسعينيات ومطلع الألفية الثانية	امتداد لتبشير متشيعة حطلة
	*	البصيرة	*		
	*	الكسرة	*		
	*	الكبر	*		
	*	الصعوة	*		
	*	الصغير	*		
	*	جديد عكيدات	*		
	*	جديد بكاره	*		
	*	البوحميد	*		
	*	حلبية	*		
	*	موحسن	*		
	*	الشميطية	*		
	*	جزرة	*		
	*	زغبر جزيرة	*	بعد ١٩٨٧	تشيع أحد أفرادها تأثراً بحسين الرجا من قرية حطلة

عدد المتشيعين السوريين	عدد الشيعة وجنسياتهم	ملاحظات
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعة
أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	أقلية متشيعة
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعة
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعة
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعة
أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠	أقلية متشيعة
لا يوجد	أقل من ١٠ آلاف	كل سكانها شيعة الآن
أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	أقلية متشيعة
أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	أقلية صغيرة متشيعة
أقل من ١٥٠٠	أقلية شيعية كبيرة تعدادها أقل من ١٥٠٠ عشرة مساجد وسبع حسينيات ومغسل مرتبطة بالحوزة الزينية، إذ يمثل محمد الشيرازي المرجع الديني لهم	بدأ يتشع التشيع فيها منذ ١٩٩٥
أقل من ٣٠٠٠	امتداد لتبشير متشيعة حطلة	أقليات صغيرة متشيعة
أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	التشيع عبر نسب القبيلة

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشييع	اسباب ظهور التشييع
محافظة دبر الزور	*	حويجة صقر	*	بعد ٢٠٠٣	بناء بعض أهالي حطلة مسجد «علي الهادي» الشيوعي بغرض التبشير
	*	أبو خشب	*	بعد ٢٠٠٠	تأثير تبشير متشيعة حطلة
	الصور *	*	*	بعد ٢٠٠٠	تأثير تبشير متشيعة حطلة
	*	غرانيج	*	بعد ٢٠٠٠	تأثير تبشير متشيعة حطلة
	*	محقان	*	بعد ٢٠٠٠	تأثير تبشير متشيعة حطلة
	البوكمال *	*	*	بعد ٢٠٠٢	أسباب غير معروفة

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشييع	اسباب ظهور التشييع
محافظة الرقة	الرقة *	*	شارع المنصور	٢٠٠٧ - ٢٠٠١	تشيد حسينية
	الرقة *	*	باب بغداد	١٩٨٨	تشيد مقام عمار بن ياسر بالاشتراك مع الحكومة الإيرانية، وهجرة عائلة متشيعة من قرى إدلب
	*	مزرعة حطين	*	١٩٩٢	عبد المجيد الأحمد السرابي تأثراً بتبشير متشييعي حطلة

*	تل أبيض *	بعد ٢٠٠٠	تأثراً بتبشير بعض متشيعي قرية حويجة صقر
*	حويجة صقر *	التسعينيات	تأثراً بتبشير بعض متشيعي قرية حطة
*	شلية *	غير معروف	تأثراً بتبشير بعض متشيعي قرية حطة
*	جزرا *	غير معروف	تأثراً بتبشير بعض متشيعي قرية حطة
الثورة (الطبة) *	*	بعد ٢٠٠٣	بعض المتشيعية بتأثير كلية «الدعوة والاجتهاد» في مدينة الثورة

ملاحظات	عدد الشيعة وجنسياتهم	عدد المتشيعين السوريين
أقلل المسجد بسبب عدم وجود مصليين ولا مؤمنين	أقل من خمسة	أقل من خمسة
أقلية متشيعية	أقل من ٢٠	أقل من ٢٠
أقلية متشيعية	أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠
أقلية متشيعية	أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠
أقلية متشيعية	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
أول حالة تشييع كانت لطالب دراسات إسلامية في الدراسات، ولم يذكر حالات تشيع أخرى	أقل من خمسة	أقل من خمسة
أقلية متشيعية معظمها وافد من ريف المدينة	أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠

أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠	بدأت حركة تبشير شيعية في النصف الثاني من التسعينيات. افتتح المقام رسمياً عام ٢٠٠٤
أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠	
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	
أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	أقلية متشيعية
أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠	عائلة القفاف
أقل من ٥٠	أقل من ٥٠	أقلية متشيعية
أقل من ٣٠٠	أقل من ٣٠٠	

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أوّل حالة تشيّع	أسباب ظهور التشيّع
محافظة الحسكة	الحسكة *	*	النشوة		
	*	تل الشدادي	*		
	*	تل تمر	*		
	*	تل ورد	*		
	*	القصر	*		
	*	الداوودية	*		
	*	زين المبرك	*		
	*	عامودا	*		
	*	الجبسة	*		
	القامشلي *	*	طريق الحسكة إلى حي الهلالية		

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشيع	اسباب ظهور التشيع
محافظة حمص	حمص *		البيّاضة	غير متوفر	مهاجرون شيعة من ريف حمص
	*	أم العمد	*	قديم	
	*	الحميدية	*	قديم	
	*	شنشار	*	غير متوفر	
	*	الجابرية	*	غير متوفر	
	*	رسم العبد	*	غير متوفر	
	*	فيروزة	*	غير متوفر	
	*	معروف	*	منتصف السبعينيات	
	*	العزيزية	*	غير متوفر	
	الرسن *	*	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	

ملاحظات	عدد الشيعة وجنسياتهم	عدد المتشيعين السوريين
		أقل من ١٥٠٠
بينهم لاجئون عراقيون بعد الاحتلال	أقل من ٣٠٠	أقل من ٣٠٠
نسبتهم إلى سكان القرية غير متوفرة	غير معروف	غير متوفر
نسبتهم إلى سكان القرية غير متوفرة	غير معروف	غير متوفر
أقلية نسبتها إلى عدد سكان القرية غير متوفرة	غير متوفر	غير متوفر

أقلية نسبتها إلى عدد سكان القرية غير متوفرة	غير متوفر	غير متوفر
أقلية نسبتها إلى عدد سكان القرية غير متوفرة	غير متوفر	غير متوفر
أقلية نسبتها إلى عدد سكان القرية غير متوفرة	غير متوفر	غير متوفر
أقلية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي	غير متوفر	غير متوفر
أقلية نسبتها إلى عدد سكان القرية غير متوفرة	غير متوفر	غير متوفر
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)	أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أوّل حالة تشيّع	اسباب ظهور التشيّع
محافظة حماة	*	السلمية	*		غير متوفر
	*	مصيف	*	٢٠٠٠	غير متوفر
	*	عقارب	*	بعد عام ٢٠٠٠	غير متوفر
	*	جبل زين العابدين	*	بعد عام ٢٠٠٣	مزاعم تاريخية حول «طريق السبايا» من صفين إلى دمشق

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشييع	أسباب ظهور التشييع
الساحل السوري (محافظة اللاذقية وطرطوس)	اللاذقية *	*	حي الزراعة	بعد عام ٢٠٠٠	إنشاء مركز ثقافي كبير
	اللاذقية *	*	الزرقانية	١٩٨٧	
	اللاذقية *	*	حي قنيص	بعد ٢٠٠٠	التبشير الشيعي الإيراني العراقي في مدينة اللاذقية
	اللاذقية *	*	الرمّل الفلسطيني	بعد ٢٠٠٠	غير متوفر
	طرطوس *	*		بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	جبله *	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	صافيتا *	*	*	بعد ١٩٢٠	الإحياء الديني
	الفرحاة *	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	* تلا	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	
	الحفة *	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	بانياس *	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي

*	حلبكو	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
*	المشرفة	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	كرم غيزل	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي

ملاحظات	عدد الشيعة وجنسياتهم	عدد المتشيعين السوريين
إسماعيلية متشيعة	غير متوفر	غير متوفر
تقطن فيها أقلية وافدة من ريف مصياف من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيوعي، والطائفة الإسماعيلية، والمسلمون السنة	أقل من ٢٥٠٠	أقل من ٢٥٠٠
متشيعة إسماعيليون	غير متوفر	غير متوفر
لا يوجد سكان، بنيت فيه بعض المباني للإقامة المؤقتة والزيارة	أقل من ٥٠	أقل من ٥٠
	٥٠ موظفاً شيعياً سورياً وعراقياً ولبنانياً وإيرانياً	أقل من ٤٠٠
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيوعي (التيار المتشيع) بمعونة حسن الشيرازي	غير متوفر	أقل من ٥٠٠٠
أقلية سنية متشيعة، حي فقير غالب أهله من التركمان السنة	أقل من ٢٠٠	أقل من ٢٠٠

أقل من ١٠٠	أقل من ١٠٠	أقلية سنّة متشيعة، حي فقير
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشيع	أسباب ظهور التشيع
الساحل السوري (محافظة اللاذقية وطرطوس)	*	الدالية	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	حمين	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	حرصون	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	عين التينة	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	الدبدابة	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	المقرمدة	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	كفرفو	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	دريش	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	أبو قيس	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	*	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	الشبطلية	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	بكسا	*	بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٥٠	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي

*	تلة	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
*	مشقيتا	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
*	جيول	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
*	بيت الشيخ ديب	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
*	الطليعي	*	مطلع القرن العشرين	الإحياء الديني
*	ضهر بشير	*	مطلع القرن العشرين	الإحياء الديني
*	بحنين	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي

ملاحظات	عدد الشيعة وجنسياتهم	عدد المتشيعين السوريين
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)	غير متوفر	غير متوفر
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)	غير متوفر	غير متوفر
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)	غير متوفر	غير متوفر
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)	غير متوفر	غير متوفر
أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)	غير متوفر	غير متوفر

المحافظة	المدينة أو البلدة	اسم الناحية أو القرية	الحي	تاريخ ظهور أول حالة تشييع	اسباب ظهور التشييع
الساحل السوري (محافظة اللاذقية وطرطوس)	*	الجيلية	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	بشرائيل	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	الشامية	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	بيت الشيخ يونس	*	ستينيات القرن التاسع عشر ١٨٦٠م	الإحياء الديني، وُبني أول مسجد لتبار عودة الفرع إلى أصله الشيعي في جبال العلويين
	*	بيت نافلة	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	حكر	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	البلاطة	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	أوبين	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	بعمرة	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	سمت قبلة	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي
	*	القدموس	*		
	*	نهر الخوابي	*		
	*	دم سرخوب	*	بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٧٢	الإحياء الديني، وإسهام حسن الشيرازي، وجمعية المرتضى

عدد المتشيعين السوريين	عدد الشيعة وجنسياتهم	ملاحظات
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)
غير متوفر	غير متوفر	أقلية إسماعيلية متشيعه
غير متوفر	غير متوفر	أقلية إسماعيلية متشيعه
غير متوفر	غير متوفر	أقلية شيعية من تيار عودة الفرع العلوي إلى أصله الشيعي (التيار المتشيع)





ملحق (٢)

صور بعض الحوزات والمقامات الشيعية
في سورية



مقام السيدة زينب في دمشق: أصبح من أشهر مقامات الشيعة، وربما أهمها بعد النجف وكربلاء. ولم يكن هذا المقام معروفاً بشكل واسع قبل السبعينيات.



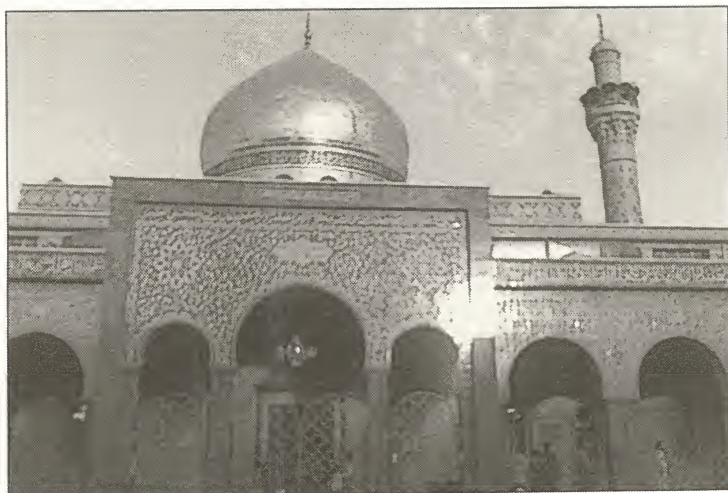
حوزة إمام الزمان التعليمية للدراسات الإسلامية: إحدى الحوزات الإثنتي عشرة التي أنشئت في قرية السيدة زينب جنوب دمشق بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٦، أي بعد تولي بشار الأسد السلطة.



مقام السيدة سكينة في داريا غرب دمشق، والذي بدأ التخطيط لإيجاده في عام ١٩٩٩. ولم يُعرف لهذا المقام أي سند تاريخي. راجع ص ٨٥.



مكتب الشيخ محمد الفاضل اللكراني في منطقة السيدة زينب، يتبع له «مركز الأئمة الأطهار» الشيعي التبشيري. ويُلاحظ أنَّ ظاهرة انتشار مكاتب خاصة لعلماء الدين في سورية تقتصر على علماء الشيعة.



مقام السيدة رقية في قلب المدينة القديمة في دمشق. وقد كان هذا المقام مندثراً إلى حين إعادة بنائه على يد الإيرانيين. وقد أكمل بناؤه في ١٩٩٠.



داخل مقام السيدة رقية.



مسجد سيدنا عمر الفاروق في منطقة السيدة زينب جنوب دمشق: بناه أهل السنة في المنطقة، وعمدوا إلى اختيار هذه التسمية وإبرازها في لافتة مضاءة كردّ فعل على النشاط الإيراني الشيعي في منطقتهم.



مدخل مسجد سيدنا عمر الفاروق.



الحوزة العلمية الزينية: أول حوزة شيعية في سورية وأكثرها نشاطاً وتأثيراً.
أقامها رجل الدين الشيعي الإيراني حسن الشيرازي في عام ١٩٧٦.



إشارة إلى مشروع بناء مسجد الرضا: أحد مشاريع بناء الحسينيات التي كانت وما زالت
قيد الإنشاء أثناء القيام بهذا البحث عام ٢٠٠٧.



حوزة وحسينية القائم.



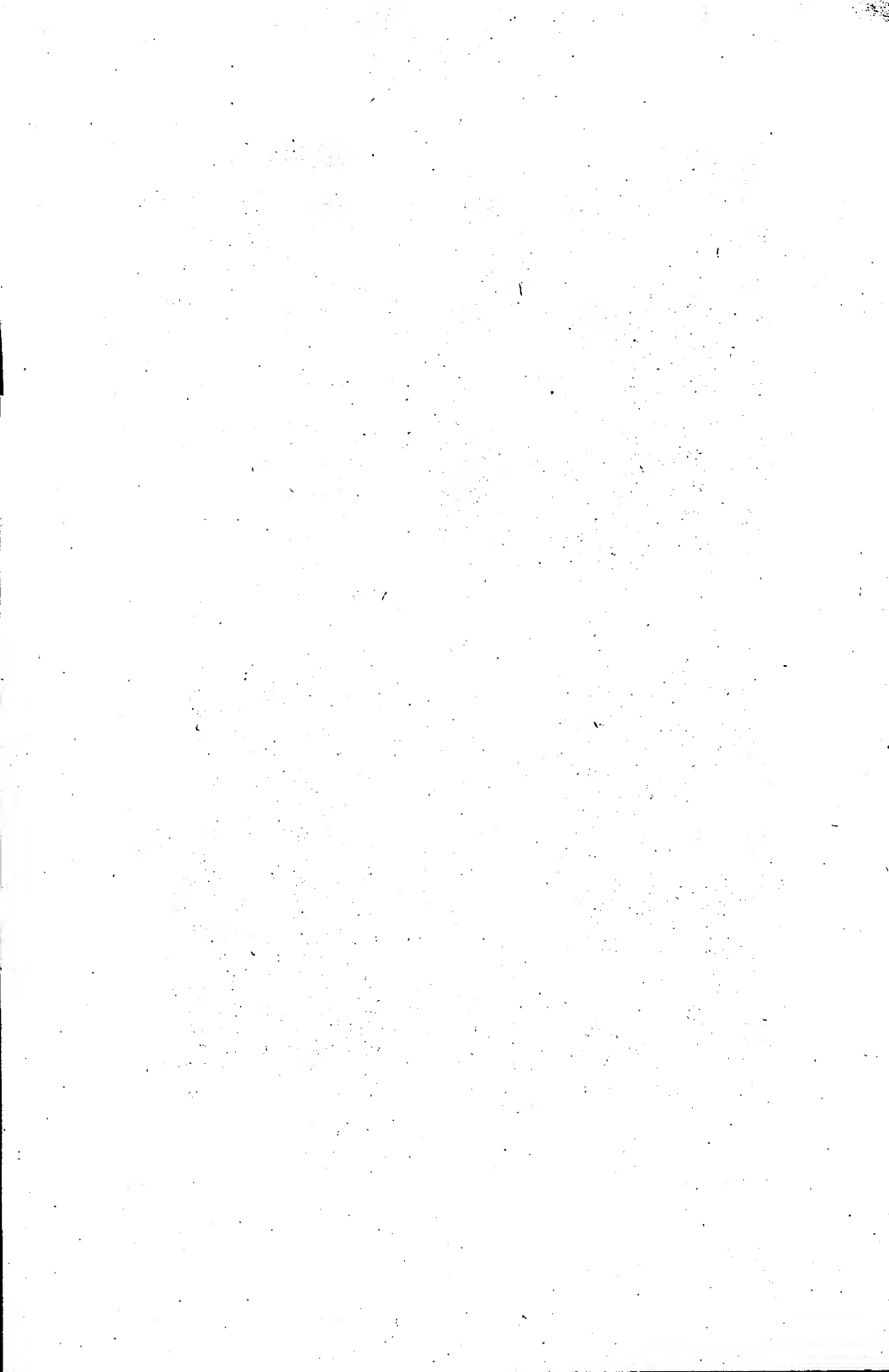
إشارة إلى حوزة السيدة الزهراء.



إشارة إلى حوزة الإمام الخميني.



حوزة الإمام الخميني النسائية.



ملحق (٣)

نصوص الوثائق

فتوى الشيخ سليمان الأحمد

ليس لدى العلويين مذهب مستقل للعبادات والأحكام المبنية على معرفة الحلال والحرام، والمعاملات كالمواريث وغيرها، وذلك اعتماداً منهم على المذهب الإمامي الجعفري، الذي هو الأصل، وهم فرع منه؛ فرجوعهم إليه في أصول الفقه وفروعه هو الواجب الحق الذي لا مندوحة عنه، وهو لم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها.

وهذه الصلة، وإن تكن انقطعت من مئات السنين حتى انتبه إليها في عصرنا هذا، فقد بقيت من هذه الفروع مسائل يتوارثها الخلف عن السلف تقليداً لاجتهاد سابق. وقد أدركت في عصري من المشايخ الأجلاء من جمع البنت وعمتها والبنت وخالتها أيضاً.

أما الإخوان الذين ينكرون ذلك فلا يرجعون فيه إلى أصل يعتمدون عليه، إلا ما حكمت عليهم به التقية؛ إذ أخذوا الإرث وآداب الشريعة عن أهل السنة، بحكم الوقت والأحوال والرخصة المعطاة لهم من أئمتهم حسبما يسمح به التأويل.

وبما أننا نعتقد أن أئمتنا هم هداتنا وقادتنا وسبلنا إلى الله، وهم لا يفارقون الكتاب ولا يفترقون عنه، فيجب علينا الأخذ بحجزهم وترك أقوال من خالفهم من الفقهاء، كائناً من كان، هذا ما أراه وأقول به وأعتقد. والسلام على من عرف الحق وأهله وكان لله قوله وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المصدر: بيان شيوخ العلويين: المسلمون العلويون... شيعة أهل البيت (ع) (طرابلس، لبنان: دار الصادق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م)،

برقية الزعماء العلويين إلى رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم

١٥ حزيران/يونيو ١٩٣٦

إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم، ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل.

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود الطيبين الذين لجؤوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام ونشروا على أرض فلسطين الذهب والرفاه ولم يوقعوا الأذى بأحد ولم يأخذوا شيئاً بالقوة، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سورية.

إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله، ولكن سورية لاتزال بعيدة عن هذا الهدف الشريف، خاضعة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين.

ونحن - الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه المذكرة - نستعرض حكومة فرنسا ضماناً لحريته واستقلاله ونضع بين يديها مصيره ومستقبله، وهو واثق أنه لا بد أن يجد لديهم سنداً قوياً لشعب علوي صديق قدّم لفرنسا خدمات عظيمة.

الموقعون: محمد سليمان الأحمد، محمود آغا حديد، عزي آغا غواش، سلمان المرشد، محمد بيك جنيد، سليمان الأسد.

المصدر: وثيقة محفوظات الخارجية الفرنسية رقم ٣٥٤٧، تاريخ ١٥/٦/١٩٣٦.

برقية المطالبين بالوحدة مع سورية في منطقة العلويين

اللاذقية ٢ تموز/ يوليو ١٩٣٦

صاحب المعالي؛

تعلمون ولا ريب يا صاحب المعالي مطالب الأمة السورية بتحقيق وحدتها واستقلالها، وعقد معاهدة بين فرنسا وبينها شبيهة بالمعاهدة العراقية الإنكليزية، هذه المعاهدة التي تسود العلاقات السياسية بين هاتين الدولتين، وإن أكثرية العلويين التي نمثلها لسعيدة بمعرفتها تقارب وجهتي النظر الفرنسية والسورية في المفاوضات الجارية آنياً في باريس لعقد المعاهدة الفرنسية السورية، وإنها تأمل أن تؤول هذه المفاوضات إلى النجاح. ومن جهة أخرى فإنها تجدد ثقتها بالوفد السوري، وتعرب عن عرفان جميلها نحو الاستعدادات الطيبة التي أظهرتها الأكثرية البرلمانية الفرنسية نحو مطالب سورية الحقّة المشروعة، ونعتبر هذه الاستعدادات الطيبة برهاناً على دوام تقاليد فرنسا بتحرير الشعوب.

إن الاستقلال الإداري الذي أُعطي لبلاد العلويين عام ١٩٢٠ لم يكن في مبدئه سوى نظام مؤقت يتسنى للعلويين بكفنه سرعة تطورهم السياسي والإداري والعلمي كي يتساووا برقيّ طبيعي مع إخوانهم في سورية؛ ولكن فحوى تصريحات فخامة الميسو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان تجاه لجنة الانتداب عام ١٩٣٣

وتصريحات المسيو دي كين العديدة تجاه اللجنة ذاتها لم تكن من الجلاء والوضوح بمكان، والحوادث أعظم برهان أن هذا الاستقلال الإداري بدلاً من أن يكون للعلويين عامل رقي لم يكن سوى عامل انحطاط وتأخر؛ فإفقار البلاد المطرد بضرائب باهظة، والتفكك والانحلال اللذان أصابا فكرة الوفاق والألفة بين العلويين من جرّاء تطبيق واتباع مبدأ فرّق تُسد، وإفساد معنويات البلاد بإنالة الخطوة لطبقة من الناس لا تمثل خيارهم، وإهمال المعارف العامة، براهين لا تقبل النقص على هذا الانحطاط....

إن العلويين شيعة مسلمون، وقد برهنوا طوال تاريخهم عن امتناعهم عن قبول كل دعوة من شأنها تحوير عقيدتهم، فهم يحتفظون بشدة بالعقيدة الشيعية الإسلامية، وكأن الصُدف يا معالي الوزير ساقط بتبشير الآباء اليسوعيين إلى جبالنا وأخذ هذا التبشير يتسرّب إليها منذ عام ١٩٣٠، ومن المفيد إحاطة معاليكم علماً أن الكثيرين من الموظفين الفرنسيين الإداريين يرون بعين الارتياح إلى أعمال الآباء اليسوعيين. وبعده مناسبات منذ عام ١٩٣٠ استلّفنا نظر السلطات العليا في باريس وبيروت إلى هذه الحوادث التبشيرية التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان، إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث، وهنا موضع استيائنا وعليه احتجاجنا، هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير وشراء ضمائر ضعيفة كما تُشترى السلع لتمرق من دين إلى دين آخر.

اسمحوا لنا يا صاحب المعالي بالإدلاء لكم بهذه الحقيقة التي نراها ديناً علينا لفرنسا ولسورية بالسواء، ذلك أن أشد أنصار الانفصال بين الموظفين الفرنسيين هم أشد أنصار التبشير اليسوعي، وأما طلب استبقاء الاستقلال الإداري الصادر عن بعض الشخصيات العلوية المطوعة لأوامر هؤلاء الموظفين لأنها تملك كل ما لديها

منهم، فليس الدافع إليه سوى خشيتها فقدان النعم التي تتمتع بها متى أذن تبدل النظام الحاضر بذهاب الموظفين.

إن القرآن الشريف هو كتاب العلويين سواء أكانوا طلاب وحدة أم طلاب انفصال، ومَن كان القرآن الكريم كتابه فهو مسلم، أحبُّ أم كره، إلا أن يترد عن الإسلام. وإن إخواننا الانفصاليين يصنفون أنفسهم بين أمرين لا ثالث لهما، فإما أن يعترفوا أن القرآن الشريف هو كتابهم، وعندها لا يمكن لهم إلا أن يكونوا مسلمين علويين؛ وإما أن ينكروا القرآن الشريف، وعندها لا يمكن لهم أن يكونوا مسلمين علويين، ولا أن يتسبوا لأية فرقة من فرق الإسلام. وإنه لَمَن المحزن يا صاحب المعالي، وهذه ويا للأسف حالتنا، أن يصادف المرء بين قومه أناساً يتخذون أقدس العقائد بضاعة للاتجار بها في سوق التجارة السياسية.

لا بد من التساؤل يا معالي الوزير: لِمَ يخشى الانفصاليون أن تكون الوحدة السورية سبباً لاضطهادهم من قبل الأكثرية الإسلامية العربية؟ بينما يرون إخواننا النصاري في دمشق وحماة وحلب متمتعين بذات الحقوق التي يتمتع بها المسلمون، وبينما يعيشون مع هؤلاء المسلمين بسلام، وبينما يعيش علويون آخرون في حمص وحماة وأنطاكية مع السنيين على قدم المساواة وفي جوٍّ مفعم بالوئام والمحبة؟.

إن مئتي ألف علوي ينتظرون اليوم الذي يعلمون به أن الوحدة والاستقلال والمعاهدة الفرنسية السورية أصبحت أموراً محققة، وإن هؤلاء المئتي ألف علوي يرسلون لفرنسا تحية مفعمة بالأمل، ويقدمون لمعاليكم أسمى الاحترام.

ملاحظة: وقَّع هذه البرقية أكثر من ٥٠ من وجهاء ورجال الدين العلويين، إضافة إلى وجهاء وسياسيين ورجال دين مسيحيين وبعض السياسيين السُنَّة.

كتاب نائب رئيس الجمهورية إلى وزير الأوقاف

مكتب نائب الرئيس

رقم: ١

تاريخ: ١٩٩١/١/١٢

السيد وزير الأوقاف؛

إشارة إلى كتابكم ذي الرقم ١/١٩٥ المؤرخ في ١١/٤/١٩٩٠ مطلوب تنفيذه على وجه الدقة، وإذا كان ثمة أمور تحتاجون فيها إلى المساعدة في تنفيذ المطلوب فيمكنكم إعلامنا لتقديم المساعدة المطلوبة، ونعود فنؤكد لكم الأمور التالية:

أ - إن الحسينيات والحوزات تتبع وزارة الأوقاف إشرافاً عليها، شأنها شأن الهيئات الإسلامية الأخرى، وتمارس وزارة الأوقاف صلاحيتها كاملة على الحسينيات والحوزات.

ب - يُعالج موضوع المخالفات القائمة في هذه الحسينيات والحوزات فيما يتعلق بالمدارس والتدريس الديني كما تُعالج المخالفات المماثلة القائمة في بعض المساجد، وتتم إزالة المخالفات (وبخاصة ما يتعلق بالمدارس غير المرخصة) بالتعاون بين وزارتي الأوقاف والداخلية.

ج - وفيما يتعلق بالشؤون التعليمية، كموضوع ترخيص المدارس، فتتم معالجته بالتنسيق بين وزارتي الأوقاف والتربية والداخلية، مع مراعاة الشروط التي حددها القانون لذلك. أما

الأمر الاجتماعي فيتم التنسيق بشأنها بين وزارات الأوقاف والشؤون الاجتماعية والعمل والداخلية، ويتولى المبادرة في التنسيق في كلا الحالتين السيد وزير الأوقاف، كما يتولى متابعة التنفيذ.

د - أما فيما يتعلق بموضوع تعليم القرآن فينفذ ما تقرر وسبق تبليغه لكم، ويعاد جميع المراكز المتفرقة بمركز واحد في كل محافظة يكون مستوفياً للشروط ويوضع له برنامج مناسب، وينظم تعليم الطلاب فيه وانتقاؤهم مع انتقاء المدرسين.

هـ - يلاحظ في بعض المساجد العودة إلى ممارسة التدريس الديني كيفاً. نرى ضرورة العودة لتنفيذ الإجراءات السابقة المتعلقة بهذا الموضوع.

فيرجى الاطلاع والعمل بمقتضاه.

نائب رئيس الجمهورية
الدكتور زهير مشاركة

نص الوثيقة الصادرة عن مكتب التربية والتعليم العالي في القيادة القطرية

الرقم: ١٧٣٢/ص
تاريخ: ٢٦ - ٢ - ٢٠٠٦

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة

السيد وزير التعليم العالي ع/ط الرفيق رئيس مجلس الوزراء؛

تحية عربية:

جواباً لكتابكم رقم ٢٥٨/م.ص تاريخ ٢٠٠٥/٩/٨ حول
مؤسسات التعليم الديني الخاصة غير المرخصة، نعلمكم الموافقة
على:

١ - تسوية أوضاع المؤسسات التعليمية الدينية الخاصة لمرحلة
ما بعد الثانوية (القائمة حالياً)، وإلحاقها بوزارة التعليم العالي،
وتشميلها بمرسوم تنظيم المؤسسات التعليمية الخاصة، ووضع
مناهج ومقررات دراسية تواكب العصر بإشراف وزارة التعليم
العالي.

٢ - إخضاع المؤسسات التعليمية الدينية التي قد تأسس
مستقبلاً لأحكام المرسوم/٣٦/لعام ٢٠٠١.

٣ - إلحاق المعاهد الشرعية والحوزات العلمية القائمة حالياً

بوزارة الأوقاف، ويطبق عليها نظام التعليم الخاص بحسب القوانين والأنظمة المعمول بها في المدارس الخاصة، وتكون الوزارة مسؤولة عن:

وضع نظام موحد للمدارس الشرعية والمعاهد الخاصة في المناهج والمقررات الشرعية والكونية (علوم - رياضيات - لغة أجنبية - فيزياء) بما ينسجم مع تطور ودعم التوجه الوسطي (المعتدل) في الإسلام الذي تنتهجه هذه المعاهد والحوزات، وذلك من خلال هيئة علمية تخصصية من وزارتي الأوقاف والتربية.

تحديد أعداد الطلاب العرب والأجانب الذين يمكن استيعابهم سنوياً للدراسة والتأكد من سلامة التوجه الديني للمقبولين من خلال لجنة مقابلة خاصة بالقبول.

اعتماد شروط محددة لقبول الطلاب في هذه المعاهد والحوزات، كالسن ومستوى الثقافة والشهادة العلمية.... إلخ.

تعيين المدرسين والإداريين والمديرين والموجهين التربويين بالتنسيق مع وزارة التربية (بعد أخذ موافقة الجهات المختصة).

تأمين الموازنة السنوية وضبط تبرعات الجمعيات الخيرية والأفراد بالتنسيق مع وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

٤ - تتولى وزارة الداخلية ما يلي:

إصدار التعميمات اللازمة لتحديد شروط الإقامة ومدتها في القطر للطلبة العرب والأجانب وفق الأصول المتبعة في مختلف دول العالم.

تحديد مدة الإقامة بالمدة الفعلية للدراسة ووقفها بعد انتهاء

مدة الدراسة وعدم منح بطاقات جديدة للطلاب المتخرجين بقصد العمل أو الزواج...

تجديد مدة الإقامة بناءً على وثائق دوام مصدقة من وزارتي التعليم العالي والأوقاف.

متابعة سلوك ونشاط الطلاب، وذلك من خلال إعداد نموذج استمارة معلومات خاصة ومفصلة لكل الطلاب، وسحب بطاقة الإقامة لمن يثبت قيامه بأي نشاط مخالف للأنظمة والقوانين.

٥ - إعطاء مهلة (من ستة أشهر إلى سنة) للمعاهد الشرعية والحوزات العلمية والكلليات التخصصية لتسوية أوضاعها.

يرجى الاطلاع وإجراء ما يلزم بالتنسيق مع الجهات المختصة لتنفيذ مضمونه.

والخلود لرسالتنا

رئيس مكتب التربية والتعليم العالي
الرفيق الدكتور ياسر حورية

الأمين القطري المساعد
الرفيق محمد سعيد بختيان

تقرير لجنة التعليم الديني في وزارة التعليم العالي الحوزات العلمية في جوار مقام السيدة زينب (ع)

تعتبر الحوزات العلمية في جوار مقام السيدة زينب (ع) بمثابة المرادف الموضوعي لما يسمى بالمعاهد الشرعية أو كليات الشريعة الإسلامية، لا تكاد تختلف عنها في المنهاج والأهداف ليتخرج منها الطالب فقيهاً أو عالماً أو داعية أو إمام. مسجد بحسب المرحلة العلمية التي توفر على دراستها، وهي تنقسم إلى مراحل ثلاث:

الأولى: ويصطلح على تسميتها بالمقدمات، يدرس الطالب خلالها مبادئ اللغة والبلاغة والمنطق وفتاوى الفقه وأصول العقيدة الإسلامية والأخلاق.

الثانية: ويصطلح على تسميتها بمرحلة السطوح، يدرس الطالب خلالها النحو والمنطق وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة وعلوم التفسير والحديث والتاريخ.

الثالثة: ويصطلح على تسميتها بمرحلة الدراسات العليا، وبحث الخارج، يتعمق الطالب خلالها بدراسة الفقه وأصول الفقه والاستنباط.

(...)

وقد اشتهرت بأسماء نذكر منها:

١ - الحوزة الزينية: وقد تأسست بإشراف المغفور له السيد حسن الشيرازي منذ عام ١٩٧٤، وعدد طلابها مائة وخمسون طالباً.

٢ - حوزة الإمام الخميني: بإشراف مكتب السيد علي الخامنئي، وعدد طلابها مائتا طالب، وقد تأسست منذ عام ١٩٨١.

٣ - حوزة المرتضى: وقد تأسست بإشراف المرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله منذ عام ١٩٩٥، وعدد طلابها سبعون طالباً.

٤ - حوزة الإمام السيستاني: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة الشيخ حليم البهبهاني منذ عام ١٩٩٦، وعدد طلابها سبعون طالباً.

٥ - حوزة الإمام القائم: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة محمد تقي المدرسي منذ عام ١٩٩٦، وعدد طلابها خمسون طالباً.

٦ - حوزة أهل البيت: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة السيد محمد الموسوي منذ عام ١٩٩٦، وعدد طلابها ستون طالباً.

٧ - حوزة الإمام علي: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة السيد عبد المنعم الحكيم منذ عام ٢٠٠١، وعدد طلابها أربعون طالباً.

٨ - حوزة الإمام جواد التبريزي: وقد تأسست بإشراف سماحة العلامة عباس النزاع منذ عام ٢٠٠٣، وعدد طلابها ستون طالباً.

وثمة حوزات صغيرة قام بتأسيسها عدد من الأساتذة بمبادرات شخصية؛ كحوزة الإمام الصادق، وحوزة الرسول الأعظم، وحوزة

المجتبى، وحوزة الإمام الحسين، وحوزة الإمام زين العابدين،
وحوزة قمر بني هاشم.

غير أن الحوزات الرسمية المؤيدة من قبل المرجعيات العليا
للطائفة تكاد تنحصر في الحوزات الثمانية والتي تحظى برعاية
مباشرة من مراجع التقليد، وهم:

- ١ - الإمام السيد علي الخامنئي.
- ٢ - الإمام السيد علي السيستاني.
- ٣ - الإمام السيد محمد سعيد الحكيم.
- ٤ - الإمام السيد محمد حسين فضل الله.
- ٥ - الإمام ميرزا جواد التبريزي.
- ٦ - المرجع الديني السيد كاظم الحائري.
- ٧ - المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي.

وتجدر الملاحظة إلى أن معظم طلاب تلك الحوزات هم من
الجنسيات العراقية والأفغانية والهندية والباكستانية واللبنانية
والأفريقية مع أقليات لا تذكر من أندونيسيا والمغرب واليمن
وأذربيجان وتركيا، وهذا بالإضافة إلى مائتي طالب من الجمهورية
العربية السورية.

مقترحات:

أولاً: تطوير مناهج التعليم الديني في الحوزات بإضافة العلوم
التالية:

- ١ - علم مقاصد الشريعة.

٢ - علم الدين المقارن.

٣ - الفقه المقارن.

٤ - أدب الحوار واللغة الأجنبية.

ثانياً: العمل الجاد على إيجاد صيغة قانونية للتوأمة بين
الحوزات العلمية وكنية الشريعة.

ثالثاً: تأسيس لجنة علمية تشرف على امتحانات التخرج.

رابعاً: ضبط وتحديد سنوات الدراسة:

المرحلة الأولى: ستان.

المرحلة الثانية: أربع سنوات.

المرحلة الثالثة: ثلاث سنوات.

خامساً: اشتراط منح الإقامة للطلاب الأجانب بالإضافة
للشروط المطلوبة أمنياً أن تتم بموجب تزكية من إحدى إدارات
الحوزات الثمانية المؤيدة من قبل المرجعية الدينية.

تقرير وزارة الأوقاف إلى القيادة القطرية حول الحوزات الشيعية

الحوزات الدينية

أولاً: تضمن كتاب القيادة القطرية رقم ١٧٣٢/ص تاريخ
٢٦/٢/٢٠٠٦ فيما يخص الحوزات:

١ - إلحاقها بوزارة الأوقاف.

٢ - تطبيق نظام التعليم الخاص عليها.

٣ - مسؤولية وزارة الأوقاف في وضع نظام موحد في
المناهج، والمقررات الشرعية الكونية بما ينسجم مع الإسلام
المعتدل الذي يجب أن تنتهجه الحوزات.

وهذا ما تؤكدته المادة ٤٤ من المرسوم التشريعي رقم ٥٥/
تاريخ ٢/٩/٢٠٠٤ (الناظم للمؤسسات التعليمية الخاصة للتعليم ما
قبل الجامعي)، وتتضمن إغلاق أي مؤسسة خاصة تروج للشقاق
الوطني أو الطائفي، أو تكرار المخالفات بعدم الالتزام بالتعليمات
الوزارية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى وجوب عدم احتواء مناهج هذه
الحوزات على أي سبٍّ للصحابة مما يؤدي إلى الشقاق الوطني ولا
يتناسب مع أخلاق أهل البيت عليه السلام.

٤ - مسؤولية وزارة الأوقاف عن تحديد أعداد الطلاب العرب والأجانب.

٥ - مسؤوليتها عن اعتماد شروط محددة لقبول الطلاب في هذه المعاهد. والحوزات، كالسن والشهادة، علماً أن هذه الشروط غير متوفرة..

ثانياً: التواصل مع الحوزات

طلبت وزارة الأوقاف أكثر من مرة بعض المعلومات الخاصة بالحوزات: اسم الحوزة، واسم مديرها، وجنسيته، ترخيص الحوزة، مرجعيتها، عدد سنوات الدراسة، المناهج المقررة، النظام الداخلي لها.. ولم تتم الإجابة إلا من القليل منهم، وإجابة هؤلاء كانت غير كافية وغير مقنعة. وعلى سبيل المثال أجابت حوزة الإمام المهدي، ولكن ليس فيها إلا الموافقة الأمنية، علماً أن الموافقة الأمنية لا تكفي لاعتبار الحوزة مرخصة دون الرجوع إلى وزارة التربية ووزارة الأوقاف.

ولا يوجد أي تنسيق مع وزارة الأوقاف، علماً أن الوزارة تصدق على شهاداتهم.

وقد حاولت الوزارة التواصل معهم لمعرفة أوضاعهم القانونية من خلال مراسلات وطلبات للاجتماع معهم، وكانت الاستجابة ضعيفة جداً، حيث لم يصلنا إلا معلومات قليلة، وفي آخر تعميم من أجل إبلاغهم كتاب القيادة القطرية لم يتم حضور أي مدير منهم للاجتماع المنعقد بتاريخ ٣١ - ٥ - ٢٠٠٦ بأمر وزير الوقاف رقم ٣٩ تاريخ ٢٢/٥/٢٠٠٦.

علماً أنهم عند تبليغهم قال لنا مدير الحوزات إنهم قد أسسوا

مديرية خاصة بهم تهتم بأمر الحوزات، وإنه لم يعد لوزارة الأوقاف علاقة بهم. وهذه التصرفات مخالفة لكتاب القيادة القطرية والمرسوم التشريعي للتعليم الخاص.

ثالثاً: المؤسسون والمشرفون ومديرو الحوزات

أغلب المؤسسين للحوزات ومديريها هم من غير السوريين (هنود - باكستانيون - إيرانيون - أفغانستانيون) وهذا مخالف للمادة/ ٨ من المرسوم ٥٥ تاريخ ٢٠٠٤/٩/٢ الناظم للتعليم الخاص التي تشترط أن يكون المدير سورياً إذا كان شخصاً طبيعياً، وأما المؤسس الاعتباري فإن لم يكن سورياً فيجب أن يكون له نائب سوري، وأن يكون المدير سورياً كذلك (في الحالتين).

تعميم

إلى السادة مديري الحوزات في القطر العربي السوري

يرجى حضوركم إلى وزارة الأوقاف - قاعة الاجتماعات في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ٣١ - ٥ - ٢٠٠٦ للاجتماع مع مديرية التعليم الشرعي في الوزارة للمناقشة في شؤون الحوزات من النواحي المختلفة - العلمية والإدارية - مصطحبين معكم ما يلزم من الوثائق التالية:

- ترخيص الحوزة.
- المنهاج المقرر.
- جدول عن الجهاز الإداري.
- جدول عن الجهاز التدريسي للحوزة.
- جدول عن أسماء الطلاب وأعدادهم وجنسياتهم.

وزير الأوقاف
الدكتور زياد الدين الأيوبي

دمشق في ٢٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ
الموافق لـ ٢٢/٥/٢٠٠٦

ملاحظة: الوثيقة بخط اليد

كتاب إدارة الهجرة والجوازات في دمشق بشأن تصديق وثائق الحوزات

رقم: ١٠٦٠٤/أ

إلى وزارة الأوقاف

إشارة لكتابكم رقم ١٤/٤/١٤٥٠ تاريخ ٢٠٠٥/٤/٧ حول موافاتكم بأسماء الحوزات الدينية ليصار إلى تصديق وثائقها.

بالعودة إلى إضارة طلاب المعاهد الشرعية تبين لنا مضمون كتابكم رقم ١٤/٤/٣٧٨٥ تاريخ ١٩٨٨/٩/١١ المتضمن بأن السيد نائب رئيس الجمهورية الدكتور زهير مشاركة وجه بأنه لا مانع من تمديد وتجديد الإقامة لطلاب حوزتي الإمام الخميني والشيرازي في القطر، والمرفق صورة عن كتابكم الآنف الذكر.

يرجى الاطلاع

العميد محمود حسين الخطاب
مدير إدارة الهجرة والجوازات

دمشق في ٢٥ نيسان ٢٠٠٥

المراجع

١ - العربية

كتب

- الأنصاري القمي، محمد رضا. عقيدة الشيعة: تأصيل وتوثيق من خلال سبعين رسالة اعتقادية من القرن الثاني لغاية القرن العاشر الهجري. ط٢. قم: دار التفسير، ٢٠١٦.
- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق: إبراهيم الزبيق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٧.
- ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ). البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. الرياض: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، ط١، ١٩٩٧.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ). مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس وآخرون. دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٨٤.
- الأمين، حسن. ثورة إيران في جذورها الإسلامية الشيعية. بيروت: دار النهار، ١٩٧٩.
- الأمين، هيثم وميرفان، صابرنا (تحقيق وشرح). سيرة السيد محسن الأمين. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٠.
- بدوي، تامر. العلاقات الاقتصادية بين إيران والنظام السوري: مؤشرات الاختلال. الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٢ تموز/يوليو ٢٠١٥.

سورا، ميشيل. سورية: الدولة المتوحشة. ترجمة أمل سارة ومارك ببالو؛ تقديم برهان غليون وجيل كيبل. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧.

رزق الله، رالف. يوم الدم: مشهديات عاشوراء في جبل عامل. بيروت: دار الطليعة، ط١، ١٩٩٧.

آل حسين، عبد الستير. تحذير البرية من نشاط الشيعة في سورية. القاهرة: دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر، ٢٠٠٧.

آل قطيط، هشام. المتحولون: حقائق ووثائق. بيروت: دار المحجة البيضاء، بالاشتراك مع دار الرسول الأكرم، ٢٠٠٢.

ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني. رحلة ابن جبير. بيروت: دار التراث، ١٩٦٨.

ابن عبد الجليل، المنصف. الفرق الهامشية في الإسلام. بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٤.

الأمين، حسن. ثورة إيران في جذورها الإسلامية الشيعية. بيروت: دار النهار، ١٩٧٩.

_____. غارات على بلاد الشام. دمشق: دار قتيبة، ٢٠٠٠.

الأمين، هاشم محسن وعباس بيضون. «الخبيبة والحزب والعزلة». السفير: ١٩٨١/١١/١٧.

بدوي، عبد الرحمن. مذاهب الإسلاميين: المعتزلة والأشاعرة والإسماعيلية والنصيرية. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٧.

البوطي، سعيد رمضان. الجهاد كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟. ط ٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩.

_____. هذا ما قلته أمام بعض الرؤساء والملوك. دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١.

جلي، أحمد محمد أحمد. دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين: الخوارج والشيعة. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨.

الحاج، عبد الرحمن. الدولة والجماعة: التطلعات السياسية للجماعات الدينية في سورية (٢٠٠٠ - ٢٠١٠). لندن: مركز التواصل والأبحاث الاستراتيجية، ٢٠١١.

الحكيم، حسن. الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي، ١٩١٥ - ١٩٤٦. بيروت: دار صادر، ١٩٧٤.

حوى، سعيد. هذه تجربتي وهذه شهادتي. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٧.

الخصيبي، أبو عبد الله الحسين بن حمدان. الهداية الكبرى. ط ٤. بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩١.

الخير، عبد الرحمن. عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين الجعفرين العلويين. دمشق: دن، ط ٣، ١٩٩٢.

الخير، هاني. يقظة المسلمين العلويين. دمشق: يقظة الشرق الجديد، ١٩٩٦.

رزق الله، رالف. يوم الدم: مشهدة عاشوراء في جبل عامل. بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٧.

روس، دينيس. السلام المفقود: خفايا الصراع حول سلام الشرق الأوسط. بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤.

سورية بالأرقام: دليل إحصائي شامل (المعطيات الجغرافية والسياسية والتربوية والعسكرية). بيروت: المركز اللبناني للدراسات الاستراتيجية، ١٩٨٥.

سيل، باتريك. الأسد: الصراع على الشرق الأوسط. لندن: دار الساقى، ١٩٨٩.

شرارة، وضاح. دولة حزب الله: لبنان مجتمعاً إسلامياً. ط ٤. بيروت: دار النهار، ٢٠٠٦.

عجمي، فؤاد. الإمام المختفي: موسى الصدر والشيعة في لبنان. لندن: طبع إيتاكا، ١٩٨٦.

لجنة تقصي الحقائق في مجلس أمناء اتحاد علماء المسلمين. التشيع في إفريقيا: تقرير ميداني. جدة: مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١١.

ليفريت، فلاينت. وراثة سورية: اختبار بشار بالنار. ترجمة عماد فوزي الشعيبي. بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، ٢٠٠٥.

المسلمون العلويون... شيعة أهل البيت (ع). طرابلس، لبنان: دار الصادق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.

مصطفى، شاكِر. موسوعة دول العالم الإسلامي. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣. ج ٣.

المهاجر، جعفر. التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية: أول دراسة علمية على تاريخ الشيعة في المنطقة. بيروت: دار الملاك، ١٩٩٢.

النيسابوري، محمد حسن بادباني. العلويون هم أتباع أهل البيت: فتاوى مراجعهم وشرح نص بيانهم. بيروت: دار الإرشاد، [د. ت.].

دوريات

أبو رمان، محمد. «التشيع في الأردن: ظاهرة يغذيها حزب الله». صحيفة الغد (الأردن): ٢٠٠٦/١٠/٤.

«اتفاق عسكري سوري - إيراني ولجنة للدفاع». النهار: ٢٠٠٦/٦/١٦.
«استراتيجية إيران لنشر التشيع في سورية». تقرير صحيفة الوطن العربي: ٢٠٠٦/٦/١٢.

«إقالة مدير التعليم الشرعي في سورية بسبب رفضه قرار وقف التسجيل في المعاهد الشرعية». أخبار الشرق: ٢٠٠٦/٧/١٠.

البابا، حَكَم. «إعدام صدام كعقاب مذهبي لا كعدالة وطنية». القدس العربي (لندن): ٢٠٠٧/١/٦.

البنبي، أكرم. «لبنان المنكوب وخيار الدولة». صحيفة الغد (الأردن): ٢٠٠٦/٧/٢٠.

_____ . «لماذا انحسرت شعبية حزب الله؟» صحيفة الغد: ٢٥/

٢٠٠٧/١

التايم: ٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠٧.

«الحركات الإسلامية في لبنان (ملف)» مجلة الشراع: ١٩٨٤.

حمود، زين. «حزب الله من الداخل: أسرار وخفايا» مجلة الشراع:

١٤ آب/أغسطس ١٩٩٥.

الحياة (لندن): ١٦/٦/١٩٧٣؛ ٢٥/٢/٢٠٠٧؛ ٥/١/٢٠٠٨.

خضر، محمد. «السيدة زينب... شو صاير؟» بلدة السيدة زينب التي

يؤمها حوالي مليون زائر سنوياً... ضاحية دمشق المزدهرة رغم فقرها

وعتية الزوار العراقيين والإيرانيين. «الحياة» (لندن): ١٦/١٠/٢٠٠٦.

الخليج: ١٨/٣/٢٠٠٧.

الخليل، عبد الله. «استراتيجية إيران لنشر التشيع في سورية» صحيفة

الوطن العربي: ١٢/٦/٢٠٠٦.

الرأي العام (الكويت): ١/٥/٢٠٠٦.

رضوان، خليل. «الأردن: إعدام صدام يقلب الرأي العام ضدّ حزب الله

وحماس وإيران» صحيفة المستقبل (بيروت): ٨/١/٢٠٠٧.

سعود، عبد اللطيف. «العلويون شيعيون» مجلة النهضة (عدد خاص

عن العلويين) (طرطوس): العدد ٨، تموز/يوليو ١٩٣٨.

السفير: ١٨/٥/١٩٩٥.

«سورية... جسر إيران إلى المتوسط» مجلة المشاهد (لندن): العدد

٥٣٧، ٢٠٠٦.

شهباء، رأفت نديم. «ما بعد حيفا وإلى ما بعد ما بعد حيفا... توجد

دمشق!» الغد: ٢٠/٧/٢٠٠٦.

«الشيخ الصوفي سابقاً يشرح لـ«المنبر» كيف اتهم بالماسونية! حوار مع

الشيخ حسين الرجا» أجرى الحوار عادل الحبشي وعصام

الموسوي. مجلة المنبر (الكويت): العدد التجريبي، ١٤٢٠هـ/

٢٠٠٠م.

شيف، زئيف. «سورية تشتري الأسلحة للعراق في أوروبا الشرقية». هآرتس: ٢٠٠٢/٧/١٥.

صبرا، حسن. مقابلة مع عبد الحليم خدام. مجلة الشراع (بيروت): ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧.

«الملك يحذر إيران من زعزعة الاستقرار في المنطقة». صحيفة الغد (عمّان): ٢٥/١/٢٠٠٧.

المنبر (الكويت): العدد ١٧، جمادى الآخرة، ١٤٢٣هـ - آب/أغسطس ٢٠٠١.

المولى، سعود. «عاشوراء وطقوس الحزن». المستقبل (بيروت): ٢٠١٢/١/١١.

النور، النور أحمد. «جماعات إسلامية سودانية تحذر من مخطّط كبير وراء إيران: قرى بأكملها تشيّعت والحسينيات والزوايا تنتشر في الخرطوم». الحياة: ١٩/١٢/٢٠٠٦.

الوطن (الكويت): ١٢/٦/٢٠٠٦؛ ١/٦/٢٠٠٧.

دراسات إلكترونية

الأحمد، خالد. «بشار يبيع سورية للصفويين». موقع رابطة أدباء الشام، <<http://www.odabasham.net/show.php?sid=9230>>.

«اختراق شيعي لمصر عبر بوابة المتصوفة». العربية.نت، ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦،

<<http://www.alarabia.net/articlep.aspx?S=27111>>.

«برقية المطالبين بالوحدة مع سورية في منطقة العلويين مرسلة من اللاذقية في ٢ تموز ١٩٣٦».

<<http://www.alaweenonline.com/site/modules/news/article.php?storyid=15>>.

«التشيع في سورية: محافظة درعا»، على موقع «محمّد سرور زين العابدين». بتاريخ ٤ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ، الموافق لـ ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٦،

<<http://www.surour.net/index.php?catid=000003&id=000168>>.

«قلق في سورية بعد اختفاء ناشط في مجال حقوق الإنسان». هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، ٢ أيار/ مايو ٢٠٠٥،

< http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_4506000/4506897.stm > .

الحجي، إسماعيل. «مقام عمار بن ياسر: معلّم هام من معالم السياحة الدينية في الرقة». موقع «الرّقة» الرسمي،

< http://www.eraqqa.sy/_print.php?filename=2007051516510310 > .

حسن، أحمد. «المهرجان السنوي لهيئة المختار الثقفي بمناسبة مولد أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)». الوكالة الشيعية للأبناء (إباء)، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢،

< <http://www.ebaa.net/talreer-khabar/index.htm> > ..

حسين، بسام. «لجنة سيّد الشهداء تشيد حسينية في محافظة حلب/ قضاء نبل». الوكالة الشيعية للأبناء (إباء)،

< <http://www.ebaa.net/khabar2003/10/6/khabar007.htm> > .

الخير، عبد الرحمن. يقظة المسلمين العلويين،

درويش، إبراهيم. «ما لم يقل مقال: أين مكمّن الخطر؟». موقع مركز الشرق العربي،

< <http://www.asharqalarabi.org.uk/mushrakat/b-mushacat-1160.htm> > .

«رسالة من مواطن سوري حول المد الصفوي في اللاذقية»،

< <http://www.d-sunnah.net/forum/showthread.php?t=62624> > .

السلامي، حيدر. «حوزة المصطفى للعلوم القرآنية في دمشق... صرح

علمي شامخ: حوار مع مدير «حوزة المصطفى» مختار البغدادي». «موقع

الوكالة الشيعية للأبناء» (إباء)، ١٨ تموز/ يوليو ٢٠٠٧،

< <http://www.ebaa.net/khabar/013/013.htm> > .

«السلطات الإيرانية تعتقل منظمي مجلس عزاء للمحسن السقّط! (عليه

الصلاة والسلام)». مجلة المنبر (الكويت): العدد ١٤، ربيع الآخر

١٤٢٢هـ تموز/ يوليو ٢٠٠١م،

< <http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm> > .

«شخصيات سورية قلقة من تنامي ظاهرة التشيع... مؤسسات إيرانية تبني حسينية وتقدم عروضاً مالية مغرية لكسب ولاء السوريين.» وكالة قدس برس، ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦،

< <http://www.qudspress.com/look/print.tpl?IDLanguage=17&publication=1&NrArticle=4104&NrIssue=1&NrSection=3> > .

الشمري، أبو حيدر. «مهرجان خطابي في الرقة إحياءً لذكرى استشهاد الصحابي عمار بن ياسر.» الوكالة الشيعية للأنباء (سورية)، ٦/٤/٢٠٠١،

< <http://www.ebaa.net/khaber/archev/khaber022khaber22.htm> > .

عرايبي، أحمد. «إعادة بناء مقام السيدة سكينة: إحياء جديد لرمز ديني وتاريخي عريق.» تقرير في موقع «عكس السير» (٧ آب/أغسطس ٢٠٠٧)،

< http://www.aksalser.com/?page=view_articles&id=09d0ce08-fe485cbce6c1ce2974dc6dac > .

عريقة (قرية)، ويكيبيديا (الموسوعة الحرة)،

< [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9_\(%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A9\)](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9_(%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A9)) > .

كليب، سامي. «علي البيانوني: مفاوضات الإخوان والسلطة، ج ٢.» موقع «الجزيرة نت»، برنامج «زيارة خاصة» (القناة الفضائية)، بتاريخ ٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥،

< http://www.aljazeera.net/NR/exeres/5E34C6DF-C34E-4E6A-B01E-6725A2774A0htm?wbc_purpose=basic_current_current_Current_Current_Current > .

مقابلة مع الدكتور عبد المجيد العلي (متشيع من دير الزور عام ١٩٩٩)،

< <http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm> > .

مقابلة مع الشيخ حسين الشريفي، موقع «الشيرازي نت»، بتاريخ ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٦،

< <http://www.alshirazi.net/leqaat/leghaat/legha/shahid/0023.htm> > .

مقابلة مع الشيخ حمد الوكاع،

< <http://www.14mason.com/maktabat/maktaba-akaed/book58/index.htm> > .

«مقربون من «البعث» يدعون الحكومة السورية إلى تنفيذ شائعات «التشيع السياسي».» جريدة البيان الإماراتية، ١٢/٢/٢٠٠٧،

< <http://www.arrae.com/modules.php?name=News&file=article&sid=18246> > .

«مواطنون سوريون ينظمون عريضة إلى رئاسة الجمهورية احتجاجاً على نشاط شيعي مستفز في دمشق القديمة.» أخبار الشرق (دمشق):

٢٧/٤/٢٠٠٥،

< <http://www.thisissyria.net/2005/04/27/levant1.html> > .

موقع «سيريا نيوز» الإخباري،

< http://www.syria-news.com/newstoprint.php?sy_seq=59539 > .

موقع مركز فقه الأئمة الأطهار:

< <http://www.markazfiqhi.com/ara/tre/report1.php> > .

موقع «النجمة المحمدية» على الإنترنت:

< <http://www.al-najma.org> > .

نيوف، حيان. «شيعية سورية يردّون على اتهامهم بـ«التبشير» بين السنة والعلويين.» العربية.نت، ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦،

< <http://www.alarabiya.net/articles/2006/11/06/28855.html> > .

٢ - الأجنبية

Books

Agha, Hussein J. and Ahmad S. Khalidi. *Syria and Iran: Rivalry and Cooperation*. London: Pinter Publishers: Royal Institute of International Affairs, 1995.

Bear, Gabriel. *Population and Society in Arab East*. London: Routledge and Kegan Paul, 1949.

- Clarke, John I. and W. B. Fischer (eds.). *Populations of the Middle East and North Africa*. New York: Africana Pub. Co., 1972.
- Leverett, Flynt. *Inheriting Syria: Bashar's Trial by Fire*. Washington, DC: Saban Center, Brookings Institution Press, cop. 2005.
- Van Dam, Nikolaos. *The Struggle for Syria: Politics and Society under Asad and Ba'th Party*. 3rd ed. London; New York: I. B. Tauris Publishers, 1996.
- Wirth, Eugen. *Syrien: Eine Geographische Landeskunde*. Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1971.

Periodicals

- Gambill, Gary C. "Syria Rearms Iraq." *Middle East Intelligence Bulletin*: vol. 4, no. 9, September 2002.
- Kinichmeyer, Ellen. "Syrian Sunnis Joining Shiites." *Washington Post*: 6/10/2006.
- Reiheluth, Stuart and Abdel Rahman. "La "Chiización" de Siria." *Foreign Policy* (Edición Española): 2007.
- Williams, Daniel and Nicholas Wood. "E. Europe Armaments Find Way to Iraq." *Washington Post*: 20/11/2002.

Electronic Studies

- Orbach, Benjamin and David Schenker. "The Rise of Bashar al - Asad." Policy Watch (Washington Institute for Near East Policy): no. 371, 5 March 1999, <<http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/the-rise-of-bashar-al-asad>>.